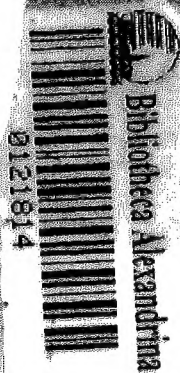


# ليلى المجنون

د. محمد غنيمى هلال

دار نهضة مصر للطبع والنشر  
القاهرة - الفجالة





# ليلى المجنون



دكتور / محمد شفيق صلاح

الهيئة العامة لغة الإسكندرية
892-709384
رقم التسجيل

دار تحفة مصر للطبع والنشر



# مقدمة

## الطبعة الثانية

### المعنى الرمزي لجمال ليلي في الأدب الاسلامي ورمزية الجمال في الآداب العالمية

موضوع هذه القصة ليلي في جمالها الصوفي كما أضفى على قيس ، فتوصل بجمالها إلى الله . وقيس بأرائه الفلسفية في هذه القصة لم تعرفه البيئة العربية ، ولكنه أسطورة خلقها فلاسفة التصوف الإسلامى ، ليتخللوا منه قالباً لآرائهم في الجمال والحب الإلهيين . وهؤلاء الصوفية يمثلون في الأدب الإسلامى تياراً فلسفياً عالمياً كان له رواج كبير في الآداب العالمية منذ أفلاطون ، ثم منذ أفلوطين ، وقد تأثر به فلاسفة المسلمين ، وعبروا عنه فنياً في أدبهم وأشعارهم وقصصهم (١) وفي هذا التعبير الفني سموا بفهمهم للجمال والحب إلى ما فوق رغبات الحس ودواعي المتعة ، ونفذوا إلى أبعد آماذ معانيه التجريدية . فالجمال في الطبيعة والمخلوقات دليل على وهاد إلى جمال الله تعالى الذى يؤسكون جميعاً أنه منزه عن التشبيه والمثال . والجمال لديهم هو وسيلة سمو الروح واهتدائها إلى المعاني الخيرة المطلقة ، والمبادئ

---

(١) قد فصلنا القول في ذلك في كتابنا : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية

السامية . وآيات الإبداع في المخلوقات سبيل النشوة الروحية التي يعرج بها كل امرئ نقي السريرة إلى الله ، وبه « جرى ذكر الله في كل مكان . وأشرقت لمعة منه على الملك والملائكة فبهز الملائكة ذلك النور ، وخروا مسبحين للرب ، ولهجوا مستغرقين بالتسبيح ، وانطلقت هذه الصبيحة من غواضي بحر الفلك : سبحان ذى الملك ، ووقعت على الوردة من تلك اللمعة أضواء ، فسرت من الوردة للبلبل حرقه الروح . وانتقدت خلود الشمع بقبس من تلك النار ، فأحترقت في كل منزل منه مئات الفراش . واحترقت الشمس بحرارة ذلك النور ، وبه أخرج النيلوفر رأسه من الماء . ومنه تحلى بالجمال حيا ليلي ، فصارت كل شجرة من غداثرها مناطاً لقلب المجنون (١) : فالجمال الإلهي في مظاهره في الطبيعة يتجلى في الموجودات والكواكب والنجوم كما يتجلى في الناس . والملائكة في تسبيحهم بجمال الله كالبلابل والفراش والطيور جميعاً ، تشترك في عبادة ذى الجمال المطلق المنزه عن الشبيه ، وتهيم بهذا الجمال في نشوة مقدسة ؛ بل إن الشمس محترقة بذلك النور وجدلاً : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٢) . وهذا الحب لله يغمر الكون ، وهو سبيل حفظ نظام الكون كله . فما الخاذية

---

(١) هذه ترجمة بعض أبيات من الشعر الفارسي من قصة : يوسف وزليخا ، لعبد الرحمن الجاني مؤلف قصتنا نقدمها للقراء ، نقلناها من المخطوطة الفارسية للقصة من مكتبة جامعة القاهرة ، الورقة الخامسة .  
(٢) سورة الإسراء .

الى يعبر عنها في قوانين علم الطبيعة إلا مرادف لهذا الحب اللاواعى في فهم هؤلاء الصوفية . فلولا الحب ما انتظم الكون ؛ ولكن هذا الحب يصبح واعياً في الإنسان الذى يهتدى إلى الله بآيات إبداعه في الكون . ممن اهتموا إلى الله عن هذا الطريق « قيس » ، حين تأمل في جمالى سالكا تفكير الفيلسوف الصوفى ، فكانت ليلي سبيله إلى هذه الهداية الروحية ، ثم كأنه في عاقبة الأمرار مرزاً للجمال الإلهى ، فحين كان ينطق باسمها — بعد هدايته — كان يقصد الحبيب الأعظم ، فارتقى قيس بالتأمل في الجمال الحسمانى المحدد إلى الانتشاء بالواردات إلهية لجمال يحل عن الكيف ، كما يقول أحد الصوفية من المسلمين على لسانه :

لا تقل دارها بشرقى نجد      كل أرض للعامة دار  
ولها منزل على كل ماء      وعلى كل دمنة آثار

وهذه نظرة شرحناها في مكان آخر مصدرها من التيارات الفلسفية (١) العالمية التى تأثر بها الرومانتيكيون من الأوروبيين كما تأثر بها صوفية المسلمين . ومن أمثلة ذلك أن « فكتور هوجر » يعبر عن نفس الفكرة التى سبق أن أوردناها وهى أن الحب لله سبب نظام الكون على طريقة أفلاطون وصوفية المسلمين — بهذا التعبير الشعري : « لو خلا الحب من الكون انطفأت الشمس » .

---

(١) في كتابنا السالف الذكر .

وقد اتخذ صوفية العرب طريقاً فريداً في التعبير عن ذلك بأشعارهم ، إذ يسلكون فيها مسلك الرمزية الصوفية . ومحور هذه الرمزية الصوفية أن جمال الطبيعة له ظاهر وباطن . ويجب أن يصل المفكر إلى باطنه العلوى بالاهتداء به إلى جمال الله وجهه . ومن يقف عند ظاهر الجمال ، ويهتم بمتعته الحسية أو الجسدية ، يكون شبيهاً — في رأى إخوان الصفاء — بالأطفال الذين يهيمون باللعب والدمى . ولا يليق بالحكماء أن يهيموا بظواهر الأجساد ونقوشها فيكونوا بمثابة أطفال في الحقيقة ؛ إذ يقفون عند مرحلة تمثل طفولة التفكير ، لأنهم لا يرتقون إلى فهم ما وراء الأشكال ، وهؤلاء يسميهم أفلاطون : « العوام » ، لأنهم يهيمون بالأجساد من أجل التوالد . ويرى أفلوطين أنهم في نظرهم إلى جمال الطبيعة كمن يحاولون أن يقرأوا كتاباً لا يعرف حروفة الأبجدية ؛ فيستعجم عليهم الفهم لقصورهم ودنو منزلتهم العقلية . وعند أفلوطين أن الطبيعة « لغة عجيبة لمن يقرأها » . ولكي يستطيع قراءتها يجب أن يبدأ بتطهير نفسه ، حتى يستطيع أن يحب الجمال في ذاته . وبما أن جمال الطبيعة له ظاهر وباطن — كما قلنا — فيجب أن يهتدى المفكر إلى أسرارها الباطنة . ولهذا أراد الصوفية أن تكون أشعارهم كذلك لها ظاهر وباطن ، فظاهرها غزل يمكن أن ينطبق على الغزل الحسى ، ولكن باطنها الهداية إلى أسرار الهيام بالمعارف الإلهية والواردات الباطنة ، والأسرار الجمالية العليا . يقول محيي الدين بن العربي في مقدمة ديوانه : « ترجمان الأشواق » : « لما نزلت بمكة سنة خمس مائة وثمان وتسعين ،



التقيت جماعة من الفضلاء . . . ولم ار فيهم مع فضلهم مثل . . .  
 أبي شجاع بن رستم ابن أبي الرجاء الأصفهاني . وكان لهذا الشيخ  
 بنت تقيد النظر وتزين المحاضر . علمها عملها . عليها مسحة ملك  
 وهمة ملك . فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد . .  
 فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكنى . . لا ولم أزل فيما كتبت  
 في هذا الجزء على الايماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحانية ،  
 والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقنا المثل . . . والله يعصم قارىء  
 هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم  
 العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية . »

ومما سبق يتضح الفرق الهائل بين الرمزية الصوفية في الشعر  
 العربي والرمزية في معناها المذهبي الحديث . وإنما ننبه إلى ذلك خشية  
 الخلط بينهما .

وعلى نحو ما شرح محي الدين بن العربي ، يسير « قيس » في  
 هذه القصة .

وبرغم الأشعار الفارسية الكثيرة التي تنهج منهج الرمزية  
 الصوفية في الأدب العربي على نحو ما شرحنا ، انفرد صوفية الفرس  
 والآداب الإسلامية الأخرى بتصوير نماذج أدبية في قصصهم تشرح  
 قضيتهم في الحب والجمال واتخاذها طريقاً للاهتمام إلى الله . ومن  
 أعمق من سلكوا هذه السبيل مؤلفنا « جامي » في قصصه الإسلامية ،  
 ومنها القصة التي نقدمها الآن للقراء .

وقد سلك هؤلاء الصوفية في الآداب الإسلامية مسلك الشعراء والكتاب الفلاسفة في الآداب العالمية . وفي صدر هذا التقديم ، أشرنا إلى غناء العاطفة بالتعمق في معاني الحب والجمال وفلسفتها ، على نحو مافعل الصوفية . وهذا مجال خصب للمقارنات الأدبية . ونكتفى الآن بالإشارة إلى شخصية «هيلين» في الآداب الأوروبية . ومشهور أنها في أساطير اليونان — زوج منلاوس ، وفي الإلياذة أنها هربت مع «باريس» ، أو اغتصبها باريس . وكانت روعة جمالها تفوق الوصف وهي — في الأساطير اليونانية كذلك — بنت الإله زيوس ، وأمها «ليدا» امرأة تندرئوس ، من ملوك اسبرطة . وكانت «ليدا» محبوبة للإله زيوس . وكثير من شعراء الإغريق قد برعوا «هيلين» من وصمة الهرب من زوجها . أن باريس هو الذي اغتصبها ، ولكنها هربت منه إلى مصر ، ولم يتبع باريس سوى خيالها الذي انخدع به باريس (١) . ومن أجل عفتها وطهرها ، ولأصلها الإلهي الأسطوري أصبحت معبودة في اسبرطة . ويرى أفلاطون أن الحب إذا كان إلهياً لا يمكن أن يكون سيئاً . كما يرى لذلك وجوب تبرئة هيلين من وصمة الهرب من زوجها (٢) وسرعان ما صارت رمز الجمال المطلق وبخاصة لدى الشعراء الإسكندرئيين ، ومن أشهرهم تيوكريتوس الإسكندرئى في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد . ثم أنها سمت زوجها

---

(١) أنظر مثلاً مسرحية : هيلين ، ليوريبيدس ، أنظر كذلك مقالة للأستاذ

الدكتور محمد صقر خفاجة ، عنوانها : Absolutio Helenae ، ص ٨٨ .

Platon Phaedrus, 242 d-243 b.

(٢)

وأخواتها إلى درجة إلهية بما سببته لهم من عذاب (١) ، صهرت به روحهم .

وقد اتخذها جوته « في مسرحيته : فاوست ( الثانية ) نموذجاً أدبياً سامياً به اهتمدى « فاوست » إلى الله بعد أن ضل الطريق إليه بالعلم ، وبالسحر ، وبالمغامرات الكثيرة التي صورها «جوته» في مسرحيته «فاوست» (الأولى) ، وها هو ذا فاوست بعد أن تعرف بهيلين — رمز الجمال المطلق — عرف كيف يهتدى إلى الخير ، ويعتني مشاعره الإنسانية ويتعمق فيها بالعاطفة ، وكيف ينفذ إلى أسرار الجمال الحق في مرآة جمال المخلوقات ، وكيف نجح في تحقيق المعاني الخيرة التي لا سبيل إليها سوى العاطفة ، الإنسانية الكبيرة ، وكان طريقه إلى تلك العاطفة هو فهم أسرار الجمال لمعرفة الجمال المطلق ، والسمو إليه بالروح ، فهو نوع من المعراج على أنه رمز السمو بالروح ، وبه تأثر دأته حين عرج إلى الله بحب بياتر يتشه . وفي هذا كله تشبه «هيلين» شخصية ليلى في هذه القصة الفارسية ، كما يشبه «فاوست» قيساً ، وفي آخر مسرحية فاوست (الثانية) ، يقول «جوته» على لسان جوقة مسرحية يسمع صوتها ولا ترى :

« كل ما هو هالك

ليس سوى رمز

والمتعالي على الإدراك (٢)

---

(١) انظر كذلك : Isocrate: Eloge d'Hélène, 61-64: وكذا Herodote

VI, 61 والمرجع السابق للدكتور محمد صقر خفاجة ص ٩٠ .

(١) يقصد به الله .

يصبح ها هنا مشاهدا :

وما لا يوصف

يصبح ها هنا محققاً

والأنوثة الأبدية

تجتذبنا نحو الأعلى « (١) .

ولا يخفى تلاقى هذه المعانى مع المعانى الصوفية التى يسوقها مؤلفنا فى خاتمة هذه القصة (٢) . وليس الشبه بينهما اتفاقاً ، بل مصدره تاريخى ، ذلك أن الفلسفة العاطفية فى أوروبا ، والفلسفة الصوفية العاطفية ، كلتاهما متأثرة بفلسفة أفلاطون وأفلوطين ، كما شرحنا فى كتابنا : « الحياة العاطفية » ، وقد بينا هناك بهذا التأثير سبب أوجه التشابه الكثيرة بين الأدب الصوفى الإسلامى والأدب الرومانتيكى .

وفى ما قدمناه فى إيجاز ، يتضح كيف كانت ليلي وقيس فى الأدب الفلسفى نموذجين غنيين بمعانيهما ، وبتمثيلهما لتيار فلسفى عام ، فيه تجلى فضل الصوفية فى خلق نماذج أدبية فلسفية جارينا بها النماذج الأدبية العالمية .

محمد غنيمى هلال

(١) يقصد به الله .

(٢) انظر على الأخص فصل ٤٥ - ٤٨ .

# المقدمة

## عبد الرحمن الجامي

يتفق نقاد الأدب من الفرس على أن المكانة الأولى في الملحمة للفردوسي ، وفي القصص الشعرى لنظامي الكنجوي ، وفي شعر التصوف لجلال الدين الرومي ، وفي الأدب الخلقى والتعليمي لسعدي الشيرازي ، وفي الغزل لحافظ ؛ ويجمعون كذلك على أن الجامي كانت له الصدارة في هذه الأجناس الأدبية جميعاً (١) .

ولد نور الدين عبد الرحمن الجامي في جام ، من أعمال مدينة هراة ، عام ٨١٧ هـ ( ١٤١٤ م ) . وكانت بلاد فارس تمتاز في تاريخها فترة عصيبة ، عقب غارات تيمور لتلك الثلاث ( في أعوام ١٣٨٠ ، ٨٣٨٤ ، ١٣٩٢ ) ، تلك الغارات التي وحد فيها إيران بحد السيف ، ولكن ما لبثت أن تمزقت بعد موت ابنه : شاه رخ ( ١٤٤٦ م ) الذي بذل جهد الياثس في الإبقاء على وحدتها في حياته . ثم خضعت البلاد لدويلات صغيرة انتشرت في عهدها الفوضى وكثرت الحروب الأهلية ؛ وظلت على هذه الحال إلى أن توحدت من جديد على يد الصفويين في بدء القرن السادس عشر الميلادي .

وكان العصر — على ما به من اضطراب غنياً بانتاجه الأدبي ؛

فقد خلف لنا كتابه ميراثاً فيما في التاريخ والتصوف والفلسفة والشعر .  
ولم يكن من بين شعرائه - على كثرتهم وخصب مواهبهم - من  
يقارن بالجامي في مكانته وشعره .

بعد أن أتم الجامي دراسته في جام ، ذهب يستكملها في مدينة  
هراة ؛ وأظهر في أثناء تلك الدراسة شغفه الشديد بالتصوف . وكان  
إمامه فيه سعد الدين الكشغري (١) أحد علماء العصر ، وشيخ الطريقة  
النقشبندية في عهده . ولما مات سعد الدين عام ٨٦٠ هـ . (١٤٥٥ م)  
اتخذ الجامي مسكنه بجوار قبره في ضاحية من ضواحي هراة ، وهناك  
تعرف بـ مير علي شير (٢) الذي كان وزيراً في بلاد السلطان حسين  
بيقرا آخر بني تيمور .

ويحدثنا هذا الوزير عن حياة الجامي في مقامه الهاديء في تلك  
الضاحية ، ويقرر أنه كان كثير الاطلاع على العلوم الدينية والدنيوية  
وقد برز في ذلك علماء عصره . ويذكر أنه كان دائم التفكير في  
الذات الإلهية ، لينفذ من وراء الحجب إلى جمال الحقيقة ، وكثيراً  
ما كانت تعثره لذلك حالات من الوجد الصوفي عني بتسجيل  
خواطره فيها في شعره ، ويشهد ذلك الوزير أيضاً أن الجامي كان

---

(١) يتحدث عنه الجامي في كتابه : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية بمكتبة  
جامعة القاهرة ورقة ٢٠٣ .

(٢) قد ألف هذا الوزير كتباً بالتركية عن حياة الجامي عنوانه خمسة المتحيرين وهو  
من أهم المراجع لحياة الجامي ، وقد ترجم فقرات منه Belin في Journal Asiatique  
1861 ويذكر فقرات منها أستاذي هنري ماسيه في مقدمة  
H. Massé :

*Béharistan de Djami*, Paris 1925.

قد وصل في العلوم إلى درجة ليس وراءها مزيد ، حتى إنه أصبح في غير حاجة إلى الرجوع إلى كتاب للإجابة عن مسألة من المسائل في أى فرع من فروع العلوم .

ويدل على مكانة الجاهل بين معاصريه أن ابن بيقرا ، وإلى هراة ، أقبل يوم وفاة الجاهل مع رجال حاشيته في ملابس الحداد ، ليودعوا الشاعر إلى قبره . وكان رجال الحاشية - كما يحكى على شير - يتناوبون حمل النعش ، وقد وقفوا طويلا ليكون على قبر الشاعر ، بجانب قبر شيخه سعد الدين الكشغري ، في جمع غفير من الشعب ازدحمت به الشوارع ، حتى كان يتعذر فيها السير بالجنازة ، مما اضطر الأمراء إلى الاشتراك مع رجال الشرطة في شق طريق السير . ولم يكن الجاهل ذا حظوة لدى بنى وطنه فحسب ، بل كان كذلك موضع التقدير من ملوك العصر . وقد بقيت لنا رسالتان وجههما إليه السلطان بايزيد الثاني من القسطنطينية (١) .



ومن بين مؤلفات (٢) الجاهل الكثيرة نخص بالذكر اثنين : هما قصة يوسف وزليخا ، وقصة ليلى والجنون (٣) ، وهما من إنتاج

---

(١) راجع : Browne : *Lit. History of Persia*, III, pp. 422-423.

(٢) للجاهل مؤلفات كثيرة دينية وأدبية وصوفية ، وقد ألف كذلك في النحو

والمروض والموسيقى : المرجع السابق ص ٥١٢ - ٥٤٨ .

(٣) قد تم نظمه للقصة الأولى عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ، وللقصة الثانية عام

٨٨٩ هـ (١٤٨٤ م) - انظر المرجع السابق ص ٥١٦ .

الشاعر في أيام كهولته . إذ كانت سنه إذ ذاك قد ناهزت السبعين .  
وفي كاتنا القصتين نرى أثر ثقافته الإسلامية والعربية ، فقد أخذ  
القصة الأولى عن القرآن ، والثانية عن الأدب العربي . ويزعم الجاحي  
في مقدمته ليوسف وزليخا أنه أول من نظم القصة (١) ، ولكنه في  
مقدمة ليلي والمجنون يذكر أنه اطلع على قصتين ألفنا قبله في الموضوع :  
الكنجوى ، وثانيهما لأمير خسرو (٢) الدهلوى . ولكن أثر الجاحي  
ظهر واضحاً في صبغه القصتين بلون ديني وفلسفي اكتسبنا به طلاوة  
وطرافة .

وفي الحق قد كان لنظامي من قبله الفضل في أن جعل من ليلي  
والمجنون قصة احتلت في الأدب الفارسي مكانة لا تقارن بها في  
الآداب الأوروبية إلا قصة روميو وجوليت ، أو قصة تريستان  
وإيزولت . ومنذ نظامي والموضوع في الأدب الفارسي مجال تخيال  
الشعراء عامة والمتصوفة منهم خاصة (٣) .

والجاحي — مثل نظامي — ذو روح إسلامية وميول عربية ، على

---

(١) ولكن الفردوسي كان قد سبقه ، راجع مقدمة يوسف وزليخا ، مخطوطة  
بمكتبة جامعة القاهرة ، ويرجع أن الجاحي لم يطلع على قصة الفردوسي راجع :

Bricteux, *op. cit.*, p. XI

(٢) مات الأول عام ١٢٠٢ والثاني عام ١٣٢٥ م ، انظر كتابنا : الحياة العاطفية  
بين العذرية والصوفية ، الباب الثاني .

(٣) لنشأة الموضوع وتطوره في الأدبين العربي والفارسي ، راجع كتابي السابق  
الذكر .



خلاف الفردوسى الذى ظهرت بعض ميوله الإيرانية فى الشاهنامه (١) وقد تأثر الجامى كثيراً بنظامى فى قصة ليلى والمجنون ، ولكن شخصيته مع ذلك واضحة فى كثير من آرائه ومشاعره التى تترامى من خلال قصته ، فقد سادها لون من التشاؤم (٢) الذى استولى عليه فى شيخوخته .

وقد كان الجامى أكثر عناية فى قصته بشرح إدراكه للحب على نحو ما يرى المتصوفة ، مبيناً أن الهيام بالجمال الجسدى يقود إلى الله متى أدرك الحب أن ذلك الجمال مرآة لجمال الله ، فاتخذ بذلك طريقاً للتقرب (٣) منه . ويعتقد الجامى أن « العشق الذى هو منقية من مناقب الإنسان وخاصة من خصائصه ، حيثما وجد ، يستلزم العفة والطهر ، أما العشق الذى فيه هوى النفس وشهوة الطبع فن صفات البهائم والسباع (٤) » . وعلى هذا النحو يشرح الجامى كيف أحب المجنون ليلى وتقرب من الله بحبه (٥) . هذا إلى أن الجامى قد اتخذ من المجنون معبراً عن آرائه فى التصوف فى كثير من المواقف ، كإدراكه الجمال على نحو ما يرى المتصوفة ، واعتماده فى الوصول إلى الله على القلب لا على العقل ، إذ العقل عند المتصوفة قاصر عن

(١) انظر : Browne : *Lit. Hist. of Persia*, III, p. 545.

(٢) انظر مثلاً فصل ٥٢ من هذه الترجمة ، وكذا فى مواضيع متفرقة من القصة .

(٣) راجع مثلاً فصل ٤٨ من الترجمة .

(٤) راجع بها رستان للجامى ص ٣٩ .

(٥) راجع مثلاً فصل ٤٨ من هذه الترجمة .

## إدراك الحقائق (١) .

ويعرض الجاحى فى أول قصته لنظرية المتصوفة فى أن الجمال كان السبب فى وجود الخلائق ، فهو لاء يعتقدون أن من طبيعة الجمال — أيها وجلد حب الظهور والابانة عن النفس . وكان هذا شأن الجمال المطلق الذى أراد أن يعرف فخلق الخلق ليعرفوه ، فهتدوا إلى جماله بما فى خلقه من جمال (٢) . فكان السبب فى وجود الكون ما اتصف به الله من جمال أراد أن يظهره ، فخلق العالم على ما فيه من نقص وشر ، ليستدل المتأمل فيه على ذى الجمال المطلق والخير المطلق ، كما يستدل بالظلام على النور ، وهذه هى الحكمة فى وجود الشر فى العالم فى نظر المتصوفة . وفى العالم — مع هذا الشر — كثير من مظاهر الكمال والخير ، إذ قد أودع الله الخلائق لمحات إشراق من الحسن هى مرآة ذلك الحسن الذى تقصر العقول عن إدراك كنهه ، وبها يستدل القلب — عن طريق الكشف — على جمال واجب الوجود

(١) لا يتسع المقام هنا لشرح نظريات التصوف فى ذلك وتأثير الأفلاطونية فيها ، وأحيل القارئ فيه إلى كتابى السابق .

(٢) وبهذا يفسر الصوفية حديث « كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فعرّفهم بى فعرّفونى ، وفى لفظ : فتمرّفت إليهم فبى عرفونى » . وقد اعتمد الصوفية هذا الحديث وبنوا عليه أصولاً لهم . قال ابن تيمية : ليس هذا الحديث من كلام النبى ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف .. قال القارىء : لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » أى ليعرفون ، كما فسرّه ابن عباس : راجع : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس ، لاسماعيل بن محمد العجلونى ، ص ١٣٢ .

وبهذا كان الجمال — عند المتصوفة — سبب وجود الخلق ، وكان الهيام به سبيل الوصول إلى الخالق ، ثم الفناء فيه عن طريق العشق . وبهذا اكتسب العشق عندهم معنى سامياً ، إذ لم يكن مصدره العاطفة والتسامي بها إلى درجة العفة والطهر فحسب ، بل كان مع ذلك عادة ، ينتهى فيها الزاهد ، بتأمله في جمال من يهيم بها من حسان الخلائق ، إلى أن تتصل روحه بذى الجمال المطلق والحسن الذى لا يتناهى . فالصوفية لا يغفلون شأن الجمال الجسدى وأثر النظر إليه في معرفة جمال الله . فالحب عندهم بهذا المعنى سلم للقربى (١) من الله . ولهذا تشبه قصائدهم في الحب بقصائد غيرهم من الغزلين ، حتى ليختلط الأمر أحياناً : فلا يدرى المرء أهو أمام عاشق وله ، أم أمام زاهد يتعبد . وإليك مثلاً ما يقوله الجاحى في حالة من حالات وجده الصوفى وهيامه بالله .

« ها هنا طرف الحديقة ، وشط النهر ، وحافة الكأس ،  
فانهض أيها الساقى ، إذ الزهد حرام في هذا المقام . إذا ثمل الشيخ  
في صومعته طرباً لسماع الألحان ، فدعنى وخمر الدنان ، إذ في مثل  
هذه الحال يدوم سوار الخمر . وحين تضع شفاهك على شفاه الكأس  
لا أستطيع — أنا الثمل — أن أميز هنا أين الخمر من ياقوت الشفاه .  
قلبي وحده أسير حلقات غداثرك ، فأينما طاف طائر القلب فهو

---

(١) لقد أوجزت هنا غاية الإيجاز في عرض هذه النظريات من التصوف ، وقد شرحتها وبيّنت أصولها الدينية والفلسفية في الباب الثالث من كتابي السابق .

هنا أسير شبابها . أنت تسل سيفاً لتنفطر قلبي شطرين ؛ دع السيف  
 فنظرة منك هنا كفيلة ببلوغ هذا المرام . لا تشرح مشكلات العشق  
 لدوى العقول ، ولا تبج أمامهم بدقائق يدركها الخواص ، في حين  
 مقامهم عام المجالس . قد صار الحامى ثملاً بجبك لم ير خيراً ولا كأساً  
 ها هنا مأدبة العشق ، فأى مكان فيها للخمر أو للكأس (١) ؟ » .



وبحسبنا في هذه العجالة هذا القدر من حياة الحامى ، لنترك  
 القارئ أمام النص الذى علقنا عليه بما يشرح غامضه ، ويشير إلى  
 معانيه التاريخية والفلسفية ، وبعض مصادره العربية ، ونود أن  
 ننبه إلى أن الحامى — على ما له من فضل وبراعة — ولوع في أسلوبه  
 بالتكلف والحلية اللفظية ، والتلاعب بالألفاظ ، وذلك طابع عصره  
 وقد حافظنا على خصائص أسلوبه ، وحاولنا ما استطعنا أن ننقل في  
 الترجمة كل ما يرمى إلى تبيان معان ، حتى تكون الترجمة صورة  
 صادقة للنص الفارسي ، وليتيسر بها الرجوع إلى الأصل لمن يدرس  
 الأدب الفارسي ، ثم لكي تكون الترجمة علمية — يجد فيها العون  
 من يريد القيام بمقارنات في الموضوع .

غير أننا حذفنا في الترجمة بضع صفحات من أول القصة في  
 النص الفارسي ، يتناجى فيها الشاعر الله ، ويستدل عليه من طريق

(١) كليات جامي طبة لكهنوص ٩٧ ، وكذا : Browne : *Lit. Hist. of* :

H. Massé : *Anthologie Persane*, pp. 181-182, *Persia*, III, p. 541 .

التأمل في مخلوقاته ، ثم يمدح الرسول ويذكر قصة أسرائه ومعرجه .  
ولأنما حذفناها لأن موضوعها لا يمت إلى القصة بسبب ، وخواطرها  
المؤلف في هذه الصفحات مطروقة ، ثم لأنها تبعد بالقارىء العربى  
عن جوهر القصة .

وشىء آخر نود أن ننبه إليه ، هو أننا اختصرنا بعض عناوين  
الفصول في الأصل ، وذلك حين تطول إلى بضعة أسطر ، وتبدو  
مصوغه في تكلف قد يخفى على القارىء معه معنى العنوان . ولكننا  
كثيراً ما حافظنا على ترجمتها كما هى إذا بدت موجزة واضحة . وفيما  
عدا هذا قد التزمنا جانب الوفاء للنص في نقل القصة إلى العربية  
نقلًا دقيقاً .

هذا ؛ وقد رجعنا إلى المخطوطات التى بين أيدينا في مكتبة جامعة  
القاهرة المصرية ، وكان أوضح هذه المخطوطات وأوفاهها مخطوطة  
رقم ٢٣٥ في مكتبة الجامعة ، ومخطوطتان رقم ٢١ و ١٢٥ في مكتبة  
دار الكتب . ولا يكاد يوجد في هذه المخطوطات خلاف في النص  
يؤثر على المعنى في الترجمة . ولذا لم ننبه إلى الخلاف بينها في تعليقنا ،  
إلا أننا حين نجد في مخطوط منها زيادة - وقلما نجد - نحرص على  
نقلها في ترجمتنا لكي تكون أقرب إلى الكمال .

وقد راعينا غاية الإيجاز في التعليق على النص ، مقتصرين في  
المراجع لهذه التعليقات على من تدعو إليه الضرورة .

محمد غنيمى هلال

## (١)

### في معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين

عندما تنفس صبح الأزل عن العشق ، نفث العشق نار الشوق في القلم ، فأجرى على لوح العدم صوراً جمّة ذات تهاويل بديعة . فكانت الأفلاك وليدة العشق الذي خرت صريعة لسلطانه أرجاء الأرض . فلولا العشق لم يوجد أثر للمخلوق خير أو شرير ، ولا وجود لشيء لم يكن مصدره العشق . فهذا السقف العالي الأزرق الذي يتوالى دورانه ليلاً ونهاراً هو نيلوفر بستان العشق (١) ، وكرة منحنى صولجان العشق . فالمغنطيسية التي هي طبع الحجر قد أنشبت مخلفها في الحديد صريع العشق الذي تجلي له من الحجر ؛ فانظر إلى الحجر في هذا المقام كيف استخفه الشوق إلى الحديد (٢) ؛ وخذ

(١) لفهم هذه الإشارات الصوفية راجع المقدمة ص ٥ - ٨ وللمزيد من الفهم راجع كتابي : الحياة العاطفة الفصل الأول والثاني من الباب الثالث . وهذا الإدراك للجمال والحب مطابق لإدراك أفلاطون راجع :

Platon : *Le Banquet*, trad. Meunier, Paris 1920, p. 40 et s.

(٢) هذا تعليل آخر للحب ، وأنه تجاذب بين الشبيه وشبيهه من المخلوقات ، حيوانات كانت أم جمادات ، ولكن العشق يبلغ أقصى حالات وعيه في الإنسان . والمغنطيس والحديد في مثال الشاعر كلاهما مشوق وكلاهما عاشق ، ولكن عنصر الحديد أقوى إذ هو الطالب لعشيقة . وهناك اختلاف يسير بين ترجعتنا وبين ترجمة Browne لهذه الأبيات يرجع إلى خلاف في المخطوطة ، وقد آثرنا هذا المعنى طبقاً لمخطوطة ٣٢٥ بمكتبة الجامعة ، إذ المعنى منطبق على ما أورده ابن حزم في طوق الحمامة طبعة القاهرة ١٩٥٠ ص ٨ وهذا المعنى مشروع هناك بالتفصيل . ثم إن هذا مأخوذ أيضاً عن أفلاطون راجع :

Massignon : *La Passion d'al-Hallaj*, وكذا Platon, *op. cit.*, p. 36.

p. 188, وقد شرحت هذا في كتابي السابق الذكر -

من هذا قياس المصابين بالعشق أنهم في جذبه العشق راضون .  
فعلى ما بالعشق من آلام هو راحة الصدور الزكية . وبدون سلطان  
العشق كيف يتخلص المرء من محن الفلك المدليل ؟ ؟

وما من آذى يخلو من معنى العشق علا قدره أو دنا ، ولكن  
الفرق ما بين حبيب قد يبعد في القدر بعد القشور عن اللب .  
فالمعشوق من ذهب ، والعاشق من فضة ، وبدون فضة كيف يستقيم  
أمر الذهب ؟ والمعشوق كرمة ، والعاشق حديقة ، فصدر العاشق  
بها مؤسوم ،

فيا حبذا من غسل ضميره من كل الأوشاب بحب جميلة مرحة ،  
وربط قلبه بمليحة ذات دلال ، خبيرة بمجالس الأنس ، أذياها  
طاهرة من الأغيار ، لا كأذيال الورد الممزقة بالأشواك . وخير  
منه ذلك الذى يرتبط بمرشد (١) خبير بالسلوك ، ينجل الورد  
بوضاءة الوجه ، ويحسده الياسمين لبياض شبيه . جماله مرآة الأرواح ،  
وكلامه مفتاح الفتوح . وإذا دعاك داعى العشق من هذين المقامين ،  
أوصلك محملة إلى الحقيقة . هذه هى وردة الصحراء الوسيعة ،  
وزهرة بحر الحجاز . ومن لا نصيب له من العشق فى حديقة الدنيا  
هذه ، فهو غافل عن حريم القربى ، ولم يستنشق نسيم الإنسانية .

يحكى أن واعظاً فصيحاً ، باسطاً ظل علمه على مجلس وعظ ،

---

(١) يقصد شيخ الطريقة ، وهو معشوق الجمال ، قارئة أفلاطون :

Platon, *op. cit.*, pp. 58-60, 62-63.

كان يسوق طرائف من دفتر العشق ، ويحكى من قصص العشاق .  
 فربمجلسه رجل ضل حماره ، وأخبره عن ضالته . فصاح الشيخ  
 قائلاً : من من الحاضرين اليوم لم يتقد قلبه بنار العشق ، ولم يذق قط  
 محنته ، ولم يكتبو بنار الحسان ؟ فوقف رجل ساذج من مكانه ، لم  
 يسفر قلبه عن دخان الآهات . وقال : يا وحيد الزمان ، أنا ذلك  
 الإنسان الذى لم يكن له قط نصيب من العشق ، فنادى الواقعظ الرجل  
 الذى ضل حماره قائلاً : ها هو ذا حمارك ، فأحصر مقودك ، فهو  
 والحمار سيان ، إذ أنه لم يعان تباريح العشق ، ولا فرق بينهما غير  
 طول الأذنين (١) .

فالعشق رأس مال القربى ، بل آدمية الإنسان من العشق . فمن  
 لم يعشق فليس بإنسان ، وليس بأهل لمجالس القربى .  
 أى جامى ! كن رهيناً بإسار العشق . واقطع نفسك بوصل  
 العشق

---

(١) في الموشى ( ليدن ص ٤٨ ) أن مجنون بنى عامر قال :  
 إذا أنت لم تعش فتصح هائماً ولم تك معشوقاً ، فأنت حمار



## (٢)

## سبب نظم الكتاب وباعث ترتيب هذا الخطاب

أقرب القصص للقبول ، وألصق الألحان بالطباع ، هي قصص  
العشق وألحانه ، في كل ما يعرف الفصحاء ، وفي جميع ما قرأ  
البلغاء . لذا شرعت في رفع الستار عن هذا السر ، وفي التغني بهذه  
الطرفة ؛ فألهمني طبعي الموهوب ما ألهمني من عذب القول في حب  
يوسف وزليخا (١) ، فانبجس من قلبي من حلول الكلام ما نظمت  
به قصة كانت في العالم مثار الفتنة ، ولكنها مثار السرور في خواطر  
العشاق ؛ وكانت منبع لطف ، ولكن لم يرتو منه عطشي . وفي  
مكان آخر كان طائر قلبي يريد أن يتغنى بلحن جديد ، فجرى  
الاقتراع بفأل ميمون ، حين وقعت به على حال المجنون ، على  
الرغم من أنه قد عالج الموضوع قبلي أستاذان ، لهما صرح عال في  
دولة الفصاحة ، وقد بسطا لسانهما في إيراد الظرف ، ووفيا  
الكلام حقه : أحدهما من كنجنا (٢) ، وقد كشف في قصته عن  
كنز الجواهر : والآخر من الهند (٣) ، وقد سال عذب حديثه  
الفياض . وقد دق الأول طبل الدعوى وجلا الثاني عروس المعاني .

(٢) المقدمة ص ٣

(١) انظر المقدمة ص ٣

(٣) هو خسرو الدهلوي . المقدمة ص ٣-٤ .

وزين الأول ببديع نظمته الألواح ، وجلاها الثانى بيده الصناع  
بالألوان . وبلغ الأول بعلمه أوج الإعجاز ، ونفذ الثانى بسحره  
إلى الألباب .

وقد اقتضيت أثرهما ، ممتطياً راحلة خاطرى العداء كالريح .  
وقد راجت بضاعتها في كل مكان ، وجاد بهما خاطرهما الكريم .  
وحثت راحلتى — على ما أنا عليه من عوز بالإضافة لهما — فلهقت  
غبارهما . وإذا عددت بعدهما في الشوط ، فكفاني ما جلل وجهي  
من غبار اللحاق بهما ، فهو لإكسير وجودى وحلية عطلى .

لا ، لا ، إلى غريق في بحر القلزم ، فكيف بالتراب أتيهم ؟  
ولنما أغترف من منبع همتى ما أغسل عن وجهي هذا الغبار .  
وذو الجود المطلق هو فياض كل إلهام . وكل طلب من سواه عيب  
وامتحان . وإذا استطعت الحصول على جوهرة من معدنها ، فمن  
الضعف أن تلجأ في الحصول عليها إلى جوهري . الدجلة ملك يميني  
حقاً ، فلا يليق بي أن أطلب ماء من سقاء ؛ ولا نخاذ كفى بجاما  
والارتواء بها من وشل مائى ، خير من الارتواء بكأس من ذهب  
من حياض سقاء آخرين . وحين تفيض اللجة فلا إمساك خشية  
الإفناق . ومائى الجذب نخلو الدهن من المخاطر . وإذا أريد إمساك  
ماء المورد سدت عينه بحجر من الأحجار ؛ وقد طهرت عين إلهامى  
من السداد ، ليعم فيضها ، وينساب في كل جهة مأواها ، حتى  
أروى وأروى سواى . سأروى بلحن الغيب ، وأجعل فضل  
شرائى صدقة .

### (٣)

نذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان

ودعاء بعض من حلوا في مركز نقطة الحال (١)

يا ساقى الروح فذاك روحى ، أترع الكأس من خمر الصبوح (٢)  
من تلك الخمر المباحة لدوى العشق أهل القلوب الواعية ، وأت بها  
مشرقة فقد حل الصباح ، لتعقد مجلسنا على مشهد من خيوط الفجر ،  
ونسوق في مجمع الخلان نبذة من طرائف اللطفاء ، أولئك الذين  
كنا لهم رفقاء ، وكان بعضنا شقيقاً على بعض ، فحشنا معاً خطأ  
الطلب . وتصفحننا صحائف الأدب . كنا متكاتفين في الغيبة والحضور  
دون أن نكون معاً لا تمتد يدينا إلى طعام . ألا فليكن مقامهم في  
عليين ، وليكن الكوثر من رشحات كثوسهم . بقلبنا من فرقهم  
حرقه كحرقه الشقائق بارحت حديقتها . ذهبوا وتركونا وولوا  
ولم يبالوا .

فناولنا — أيها الساقى — كأساً مبيدة للأسى ، ورونا من الخام

---

(١) أى ذكر من ماتوا ، وبلغوا بموتهم أعظم غاية للوحد وهى القرب من الله حتى  
الفناء فيه : راجع لهذه الاصطلاحات الصوفية : Massignon : *Lexique Technique de la Mystique Musulmane*, pp. 39, 255, 275.  
(٢) الخمر عند الصوفية رمز للوجد Extase وقد تأثروا في هذا بنبيهم ، فمثلا :  
Philon يتحدث عن الخمر بهذا المعنى في كتابه : *De Vita contemplativa* ،  
انظر دائرة المعارف الإسلامية ، وعلى هذا النحو يتحدث الجاني عن الخمر فيما أوردنا  
له من شعر في مقدمة هذا الكتاب ص ٦-٧ .

باعثة الطرب ، من تلك الكأس التي تشيع في النفس السرور ،  
وتبعث ذكرى السابقين من نازلي القبور ، ممن ثبتت أقدامهم في  
طريق التجريد (١) ، وصفت أقدامهم في مجلس التوحيد (١) ،  
شيوخ مسالك الطريقة ، وأسد ممالك الحقيقة ، المطهرون عن حب  
النفس ، قد وجدوا طريقهم (٢) إلى تملك الوجود ، وختموا  
طبائعهم بميسم الزهد . كانوا مصابيح هدى لأهل الظلمات ، وكان  
من الناس من يقبس منهم الأنوار في دجنة الحياة ؛ يغمرونهم بالنور ،  
حيث استغنوا عن المصابيح والشموع ، واستضاءوا بنور (٣) الجمع  
آثار أقدامهم في أى الطرق سلكوا هداية للناس . فرأسي فداهم ،  
ولتكن روحى تراب طريق وفاهم .

أيها الساقى ! إن قلبي قد انقبض دوني ، لم يدع من أمرى

(١) التجريد : هو تخليص النفس من جميع الأغيار ، ومن التفكير في الذات بغية  
القربى الكاملة من الله ، وأما التوحيد فيقسمه الجاهل إلى توحيد إيماني وعلمي . وهما  
علمان لا يختص بهما المتصوفة ، ثم توحيد حالي وهو أن يلزم التفكير في ذات الموحد  
حتى لا يرى إلا الواحد . ولا بد أن يصاحب هذا التفكير التوحيد العلمي لا التقليدي ،  
ويمتزج به حتى يروى الموحد بشراب التوحيد الموصوف في آية : ومزاجه من تسليم ،  
عيناً يشرب بها المقربون . راجع الجاهل : نفحات الأنس ورفه ١٧ وكذا :

Massignon : *op. cit.*, pp. 74, 246, 283.

(٢) هذه العبارات تذكرنا ببعض عبارات لأفلاطون: *Platon : op. cit.*, p. 48

(٣) الجمع : الفناء في الله : *Massignon : op. cit.*, p. 75 ويعرفه الجاهل بأنه  
استغراق الموحد في مشاهدة جمال الواحد فلا يرى غير ذات الواحد وصفاته . وتتلأشى  
ذاته كأنها قطرة في تلاطم بحر التوحيد . راجع نفحات الأنس للجاهل ، المخطوطة  
الفارسية السابقة الذكر ، ورقة ١٦ .

مستقيماً ولا معوجاً . فاسقنا خمرة تخلصنا بها لحظة من حب الذات والكبرياء . ورد شفاء الأمل مبتسمة من جرع كأس النقشبنديين (١) ونجنا بتلك الطريقة من أهوال حب النفس والإعجاب بالذات . وإن كانت بغداد من قديم عامرة بالحنديين (٢)، فقد غدت سمرقند الآن بغداد فهي بهم خطيرة الشأن . وإذا مميت الحنديين ، فثن بالعبيدين في قافيتك . وحين يفيض الطبع بفصيح القول ، فلن تجد أجمل من هذه القافية . ونظم موضوعه الرسوم الصوفية نظم بديع في الزمان ، حقيق بالخلود ، وجدير به ألا يكون خالياً من هذه القوافي . أيها الساقى ! ناولنا من تلك الخمرة المشرقة كالشمس في جام (٣) جمشيد الكاشف للعالم ، من تلك الخمرة التي جعلت من نور الإشراق الذي يكشف جوانب التاريخ قديمه وحديثه . فأين

---

(١) نسبة لنقشبند : وهو محمد بن بها الدين البخاري (١٣١٧ - ١٣٨٩ م) عاش في ضواحي بخارى وتنقل في مدن كثيرة . وهو مؤسس الطريقة النقشبندية ، راجع : جامي : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ، ورقة ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) نسبة لحنيد ، وهو أبو القاسم بن محمد بن الحنيد الخراز ، صوفي ببغداد ، أصل أسرته من نهاوند ، درس الصوفية على أبو ثور تلميذ الشافعي ، حج ثلاثين مرة على قدميه ، وكان يسمى سيد الطائفة : المرجع السابق ورقة ٤٧ .

(٣) جمشيد من ملوك إيران القدماء ، يعتقد أنه عاش حوالي ٣٠٠٠ ق. م. ومن الأساطير المعزوة إليه أنه كان له جام ينظر فيه فيرى فيه الكائنات في الأقاليم كلها ، ويطلع به على حوادث الكون أجمع : انظر الشاهنامة ، تحقيق وتعليق الدكتور عزام ، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ م ( ١٩٣٢ م ) ١ - ص ١٤٣ - ١٤٤ ، وكذا Jackson : *Early Persian Poetry*, pp. 96-99.

بهرام وأين قبره ، وعضده كالأسد (١) قوة ؟ وأين كاؤوس (٢) وقصره الأشم الذى كان يطاول السماء ؟ وجنكيز (٣) الذى كان ذئب هذه الصحراء ، فتخلص الوادى منه ، وتغلب فى مخلب الأقدار المتذبذبة ؛ وفقد روحه فى حربه ؟ أين تيمور شاه (٤) ، شبيه السد الحديدى ، فى أمان من الفساد ، فاتح الثغرات ، قد صار فى كف العجز ليناً كالشمع ، ثم أسلم الروح محروماً من الملك والمال ؟ وشاه رخ (٥) الذى عاش سعيداً محدوداً ، وبعد صيت

---

(١) وهو بهرام الخامس بن يزجرد الأول (٤٢٠ - ٤٣٨ م) وقد شهر بقوته وبراعته فى الصيد ، أنظر الطبرى طبعة ٥٥٨ de Goe, I, وكذا مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه طبعة ليدن ١٣٠٦ ص ٢٥٥ .

(٢) يسمى بالعربية كيقاوس وهو الملك الثانى من ملوك الفرس الكيانيين وهو ابن كيقاذ فى الشاهنامه ، وفى كتب أخرى أنه حفيده أو ابن أخيه ، ولقبه نمرد ، ويقال إنه حاول أن يطلع على صرح السماء : راجع الشاهنامه تحقيق وتعليق الدكتور عبد الوهاب عزام ج ١ ص ٢٦ وص ١٠٢ - ١٩٩ .

(٣) جنكيز خان المغولى ، ومؤسس الأباطورية المغولية المترامية الأطراف ، ولد عام ١١٥٥ م ومات وهو يحاصر إحدى بلاد الصين عام ١٢٢٧ : راجع مثلاً : Brockelmann : *Hist. des Peuples et des Etats Islamiques*, pp. 209-211.

(٤) المقصود به هنا تيمورلنك : راجع مقدمة هذا الكتاب ص ١ ، ويعتقد بعض المؤرخين أنه من نسل جنكيز خان ، راجع دائرة المعارف الإسلامية . وقد ولد تيمور سنة ١٣٣٦ م وتوفى سنة ١٤٠٥ .

(٥) راجع مقدمتنا لهذه القصة ص ١-٢ وفى النص تلاعب بالألفاظ فى كلمة شاه رخ ، إذ هى أيضاً اصطلاح فى لعبة الشطرنج . ولم أستطع ترجمة جميع المعانى الفارسية إلى العربية بأكثر مما فعلت .

حكمه ، اضحى على بساط رقعة الآفات لعبة ، فينما هو ملك  
إذ قيل مات .

أيها الساقى ! دع انتعلل لحظة ، واسقنى كأساً من خمرة المجوس  
تلك الخمرة التى ينبعث طيبها من القلب ربحان دعاء للملك العادل ،  
ملك يأبى الظلم ، شعاره العدل والكرم ، وما احتياجه للدعاء ،  
وعدله ملاذ العرش والتاج ؟

بعد أن شد الفاروق عمر الرجال من هذا العالم ، بقى به صيته  
العادل . وأما حين حزم الحجاج متاعه من هذه الدنيا فقد نجا العالم  
من ظلمات ظلمه . فطابت بالعدل سيرة ذاك ، واستراح فى روض  
الرضا ، وعاش هذا بظلمه موضع الدم ، على ما ينتظره فى العالم  
الآخر من أنواع النكال . ألا طاب عيش من ينتصح ، وبغيره  
يعتبر ، فيضحك من عيب الملموم ، ويقتنى أثر من أحسن عملا !!

فناول - أيها الساقى - تلك الخمر القديمة على السنين ، وصحبها  
ياقوتاً مذاباً ، فتلك الخمر حين يحتسيها المحبون ، يصبحون ولاهم  
لهم غير الوفاء والحب . وهى مبعث الارتياح للخائفين النافرين ،  
وصلة المتقاطعين . ومن يتوافق وصاحبه يثمر نخل أمله الثمر اليناع  
فالحبيب مفتاح كنز الأمل ، وأنشودة العشق الخالد . ومن المقصود  
فى الوجود غير الحبيب ؟ وأى جنى من كل أنواع الصلات غير  
جنى الحبيب ؟ ومنذ أول العهد بالوجود حتى آخره لا يطير الطائر

بأسرع من الصديق ؛ ولا يفتأ الصديق يغرد فى بستان الصداقة على أغصان الوفاء ، فيرسل من ألحانه اللطيفة ما يهدد به القلوب المهيبضة ؛ وليس من عمل يفضل هذا العمل . ألا فداءً لمثل هذا الصديق كل الأصدقاء .

أيها الساقى ! هذه أنفاس الفجر كالمسك الخالص ، وقد أخذت تهب أنسام الصباح ، وتهب من الحماراة رائحة الشراب ، فاصح وأجذب إليك دنأ من تلك الخمر التى تحرق بنورها (١) فراشة العقل ، حيناً تتقد بها شموع الروح . وعندما يحترق العقل ينمى العشق . ويموت عصفور العقل ، إلترف العنقاء بأجنحتها . فتحرر من وسائل العقل ، وكن طليقاً من عقاله ، حتى تريح فى تجارة العشق وتطمئن فى ظلاله . فالعشق أينما كان طهر وزهد ، والعقل حينما كان مكر وحيلة .

أى جامى ! يجنون الاشتغال بالعشق ، خالص نفسك من التصنع ؛ وإذا لم تبلغ شرف تلك الرتبة ، ولم تمارس أصول جنون العشق ، فاجلس واثل القصة ، وانثر السحر من حديث ذلك الإنسان الذى جن من العشق .

---

(١) الصوفية يؤمنون بأن المرء يصل إلى الحقيقة عن طريق القلب لا العقل ؛ راجع مثلاً الفصل الأول من الباب الثالث من كتابي : الحياة العاطفية بين المدرية والصوفية ، الباب الثالث ، الفصل الأول .



## (٤)

## الحلقة الأولى في قصة عشق ليلى والمجنون

كاتب تاريخ العشاق ، ذو الأسلوب العذب والكلام المطرز  
عندما بدأ في حديث سيد العشاق ، هكذا سطر على لوح البيان  
قائلا :

كان في بنى عامر رجل رفيع القدر ، سعيد الطالع ، بدر  
يتألق في أوج الشرف ، مرموق من العرب لطيب فعالة ، مرموق  
من العجم لركة شمائله ، تجمعت له أسباب المال والثراء ، ووفر  
من الدور والمروج . خيامه المضروبة تضيئ على الجبل والسهل منظر  
نخيم ضخمة أقيم على بساط الغبراء (١) ، تتأخم طلائعه المعمور من  
أرض اليمن . ضاقت الجبال والسهول في وجه الغزلان من كثرة  
قطعانه . وقطعان إبله جبل أشم فوق الجبل ، شاحخة المنظر جميلة  
المظهر ، مرعاها الأرض جمعاء . خيله تغدو وتروح في كل الأرجاء  
كأنها قطعان لاحصر لها من حمر الوحش . بابه مفتوح للضيوف  
يدعوهم إلى مائدة كرمه . في السهل والجبل ، ومن الليل حتى  
الصباح ، يوقد النار ليحلب الضيوف . يسر السائلون بطلاقة وجهه  
ويصير خراهم بجوده عامراً . وقد جرى ذكره في كل قبيلة ، بما

---

(١) كانت المبالغة في الوصف طابع العصر ، ويقصد الحامى بتلك المبالغات أن  
يجعل قصة المجنون أمراً بين الواقع والخيال ، ليتسع المجال له لإبداء آرائه والتعبير  
عن عواطفه على لسان المجنون .

تفيض به كفه من أياد جميلة ، تنقبض عما تجود به كفه يد حاتم .  
ويقبل لديه سادات والعرب الأرض تبجيلاً ، ويسعى ملوك العجم إلى  
صداقته على ما لهم من مكانة وموفر دولة ، وله من جاهه آلاف  
من مظاهر الجلال والسعادة ، وخير منها أنه كان له عشرة (١)  
أولاد ، كل منهم غصن في شجرة الحياة ، وقصر أشم في مدينة  
الأمل . ولكن كان له ابن من بينهم هو أصغرهم ، وكان قلبه  
متعلقاً به أكثر منهم . نعم في اليد عشرة أصابع ، تتعاون كلها فيما  
لليد من قوة ، ولكن من بينها - في حالي فرح أو ماتم - الإصبع  
الصغرى هي الجديرة بحلية الخاتم . نعم كان هو في برج الأمل  
ميمون النقية ، قرراً مضيقاً وشمساً مشرقة . يمنه يفوق حد القياس ،  
واسمه قيس . وعندما خطا نحو الرابعة عشرة من سنه ، بدأ يغشى  
بدر وجهه كلف العذار . قد طاب خط ياقوت شفاهه ، ونسج من  
المسك شعار قر وجهه . من جبينه يشع نور القمر المتألق ، وهو  
شمس مشرقة على الأرض ، حواجه محراب الغانيات ، وقبلة دعاء  
المتقين ، وقده نخلة عجب تسبي القلوب ، يتساقط منها الرطب على  
مكلوى الفؤاد . كأن حول فمه خيوطاً من الفضة ؛ وقد دق خصره  
كالشعرة ، وكرة ذقنه خالصة لم تشبها خضرة الشعر . ويتمنى  
الغيد ذوات الخلود الوردية والقردود الممشوقة كشجرة السرو أن  
يكن صولجاناً في هوى تلك الكرة . وهو مفطور على حسن الخلق ،  
مطبوع على الأدب ؛ طب بصناعة القول ، شغوف بالشعر ، ماهر

---

(١) انظر الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٢٨ .

فى تدبيجه . فإذا ضم ياقوت شفتيه ، فإنما تتلمس أذنه طريقاً إلى سر . وإذا تفتحت شفتاه كالبرعمة الوردية الصغيرة ، فإنما ليقول لطائف لاتحصى عن روية وإمعان . وطالما سطر بنانه خطوطاً كذوائب الحور ، بدائع من القول على ألواح من الكافور ، وكل ما يخطه يغرى من يجيدون الكتابة بتمزيق ما كتبوا . وقد اعتاد أن يتجول فى السهول والجبال ، مع طائفة من الشبان ، تنفخ ثيابهم عطر مسك الغرلان . فحيناً كان يلعب معهم على سفوح الجبل ، يختال مع الحجل ، وحيناً كان يجلس فى شعاب الوادى يوقع على الأوتار ألحان الطرب ، وآونة يتوجه إلى أرض ذات عيون ليغسل عن نبع القلب ما علق به من غبار . وآناً يحزم أمتعته متوجهاً شطر المروج ، ليحيط عن قلبه هموم الدهر ، حاملاً عصا التسيار ما عن له إذ كان قلبه فارغاً من شجن الأيام ، فلم تحترق - بعد - كبده بنار العشق ، ولم تجر فى أجفانه دموع الشوق . ولم يتمزق ثياب صبره ، ولم يعان بعد للحب أنات . ففى الليل كان يأخذه نوم الخلى ، فيستلقى مستغرقاً على سرير العافية ، ويفتح له الصبح أبواب الأمل فيولى وجهه حيثما يترأى له . فإذا جذبت أمنية عنان قلبه تيسرت له كما يشاء ، وهو قرة عين والده لمكانته ، ومبعث السرور فى قلب والديه لجماله ، ولم يساورهما قط قلق التفكير فيما يببى له القدر . عجب حال ابن آدم ! يعيش مطمئناً إلى هذه الدار موطن الأحزان ، غافلاً عما كتب على جبينه ، وغماً وضع فى طينته من بذور ، وعن غصنه الذى ينمى على الماء والتراب : أتخوفى الفهم ثمرته أم تمر؟

## ( ٥ )

## غرام قيس (١) قبل تعرفه بليلي

من عجنت طينته بالعشق ، وخطت على لوح قلبه كلمته ،  
 فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه ، ولو أمضى عمره في غسله منها  
 ومحوه . وسيتغنى كل لحظة بخليل ، وسيعزف بقيثارته على إثر  
 عشيق ، ويجوس كل مكان ، عارضاً روحه ثمناً لما يريد اقتناؤه ،  
 حتى يقع هو في النهاية أسيراً . وقد كان قيس خارج قياس العقل ،  
 واسمه يحمل على الاعتقاد بأنه مجنون (٢) . فقبل أن يقع أسير ليلي ،  
 كان قلبه ميالاً إلى كل حسناء ، وكانت له راحلة أسفار ، يضرب  
 بها في كل الطرق والديار ؛ شعرها في لون الشفق (٣) حمرة ،  
 معقود الحلقات كشعر زنجي . وكان مثاله — في أشراق وجهه فوق  
 تلك الراحلة الحمراء — مثال هلال مظل من الشفق . شبيه الفلك  
 لاتطمئن به من الرحيل دار . السهل والجبل أمام دوراته سواء .  
 فكان ينساب في الأودية ماء ، ويتسّم قلل الجبال لأعصاراً ،

---

(١) يأخذ المؤلف برواية الأغاني أن قيساً أحب قبل ليلي : أنظر الأغاني ، طبعة  
 دار الكتب ج ٢ ص ١٢ - ١٣ ، ويمهد بذلك التحليل النفسي لما سيلغ الهيام بقيس .  
 والحامي فنان بارع في اختياره للحوادث التي تتقدم بها القصة ، وتضيء الجوانب النفسية  
 لشخصياته ، وهو يفوق في هذا الميدان نظامي .

(٢) يريد المؤلف أن يشتق بطريق التكلف من اسم قيس معنى أنه خارج القياس ،  
 أي مجنون .

(٣) أي أنها من حر النم .

تمتطي راحلته كل يوم منتقباً في كل الديار ، قاصداً كل قبيلة ،  
بأحثاً عن كل غادة جميلة .

و ذات يوم كان يطوف على هذا المنوال ، إذا به يمر بقبيلة من  
القبائل . وبينما يقلب الطرف فيما حوله ، رأى جمعاً من الحسان ،  
مجموعات في حفل كحلقة من النجوم ، وفي وسطهن قمر تبوأ مقعده ،  
قمر يَبْرَ سناه ضوء الشمس ، إذ يغزو بنوره القلوب . فدنا منهن  
محيياً ، وسأل عن اسم ذلك القمر وحسبه ، فقيل له إن اسم تلك  
الحسنة كريمة ، وهي حسية في أصلها نسيية . وبعد أن استجاز  
منها في الجلوس ، أناخ بساحتها جملة وعقله ، ثم جلس يتأمل في  
محيائها ، فأثر ذلك في فؤاده ، وظل يبادهها الابتسامات وعذب  
القول ، ويحادثها في دلال ، وكان الكلام يسيل من شفثتها لؤلؤاً  
ينساب من عقيق رطب . وثنت هي عليه بطيب الخطاب فسقت به  
من كأس شفاهاها الحمر ؛ ففقد قيس على قولها عنان صوابه ،  
وصار ثملاً بدون شراب . وارتويا كلاهما من نفس الكأس . وما  
إن تناولا منه بضع جرع حتى غابا عن أنفسهما . وبقيتا على حالهما تلك  
بعض الوقت ، حتى بدا من بعيد شاب (١) مقبل في قد كالسروة (٢)

---

(١) هو منازل ، كما تروى الأغاني ، وقد ولي قيس عنها وهو ينشد :  
أعقر من جرا كريمة ناقي ووصل مفروش لوصل منازل  
إذا جاء قمقمن الحلى ، ولم أكن إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخل  
متى ما انتقلنا بالسهم نضلته وإن نرم رشقاً عندها فهو ناضل  
الأغاني ج ٣ ، ص ١٣

(٢) جمه سرو ، وهو شجر قويم الساق حسن الهيئة ، وكثيراً ما تشبه به قوائم  
النساء في الأدب المارسي .

فى روضة الحياة ، عليه حلة الصبا ، ممتطياً راحلة عداة ، يتألق وجهه تألق النجم الثاقب . وهشّش له مقبلات عليه ، مرحبات بقدومه . ووسوست الخلاخل فى ساقهن كأنها الجلاجل فى أكف المطربين ، وحين رأى قيس هذا منهن ، نهض مضطرب الفؤاد وجيعه ، وولى هؤلاء الحسان ظهه ، وأخذ بزمام ناقتة فى قبضته . فلما رأى إسراعه بالانصراف ، صحن وجرين فى أثره قائلات : « لاتتعجل هكذا يا قيس فى الانصراف ؛ وعد إلينا عاتباً ، لاتدعنا نحرم جمال طلعتك ؛ واجلس لنروى بالنظر إلى وجهك الجميل . فإنه - وإن لم تتح لنا متعة الحديث معك - قد ربطتنا بك صلة أزلية (١) . فلن تستطيع أن تسحب يدك من عهد الوفاء ، ولا أن تقطع حبل ذلك الولاة » . وعلى الرغم من أنهن جددن فى أثره ، محتملات على رجوعه بمئات الطرائف ، فقد صارت نارهن رماداً (٢) . ولم يكن لأقوالهن من طائل ، ولوى قيس عنهن عنانه ، ممتطياً راحلته ، وأخذ يحدو :

أيها القلب دع عنك أمر كل صديق لا وفاء له ، وعش خلياً ،  
فذلك الإنسان الشبيه بوردة الفجار ذات اللونين ، أى رائحة للوفاء  
ترجو منه ! وماذا أفعل بهؤلاء اللاتي حين وصلت إليهن بقين  
كالجبال ، طاويات أقدامهن فى أذيالهن ، على حين إذ تراءى لهن

---

(١) الحب صلة أزلية بين المحب والمحبيب فى توليد الحب ، انظر كتابي : الحياة العاطفية ، الباب الثالث .

(٢) وفى الأصل صارت نارهن دخاناً .

— ٣٧ —

منى لإقبال ، أدبرن عنى مترنمات بوسوسة حليهن ، فلو أصبحت  
غباراً فحاشا أن يطير بي الهواء لتلك الديار ؛ ولو غدوت سحاباً  
ينثر جوهر مائه ؛ فحاشا أن تنزل منى قطرة على ذلك المكان ،  
ونخير أن تلوذ بالصمت عما جرى ، وأن تنسى كل من ضمنهن  
ذاك الجمع .

(٦)

وقوع قيس عن اختيار في حب (١) ليلي

كالصيد الذاهل

عندما عاد قيس موجع الفؤاد آسياً ، هارباً من شموع الحسان  
 في تلك القبيلة ، كان كل ليلة يبحث عن مصباح يضيئ به أمسياته ،  
 مستخبراً عن الغيد ذوات الحدود كأوراق الورد . وكل امرئ مر  
 به — أيا كانت قبيلته — اطلع منه على حاجته الملحة إلى حب ، إذ  
 كان يقول له : أى خبر لديك عن الفاتنات قصص على كل مالديك  
 من أمرهن . فريوماً على جمع بدياره ، ورأوا منه هذا الشغف ؛  
 فقالوا له : إن في قبيلة كذا غيداء ذات عيون حوراء ، اسمها ليلي  
 وكثير أولئك الأولى وقعوا في حبها . لطيفة الخلد ، تفوق في جمالها  
 الوصف . فاذهب بنفسك لترى ما هي ، ولا تعتمد على أذنك أيها  
 الخبير : وما راء كمن سمعا قيس هذا الخبر ، فنهض لساعته ،  
 وتزيا أحسن لباس ، وردد الآهات مما يعتلج ب صدره من أشواق .  
 وامتنطى ناقته يقطع الطريق نحو الحبيب . يحدوه الأمل إلى ليلي ،  
 حتى أظله حبها . ولما رآه أهلها استقبلوه في مروءة وشهامة ،  
 ووجهوا إليه عبارات الثناء ، وأحلوه في صدر مجلسهم ؛ ولكنه  
 كان يجيل نظره في كل جهة ، فلا يعثر على أثر لمقصده ، حتى  
 جرى في قلبه دم اليأس ، فإذا هو تجاه حبيته ، وقد نم لسمعه عنها

(١) الأغاني ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج ٢ ص ١٠٣ .



وسوسة حليها ، ورنين خلخالها ، فرأى قيس قدماً كالسروة (١) ،  
 في حالة الرشاقة والدلال . أو كأنها حجلة (٢) ، أو تدرج (٣)  
 يخطر في وجهه يفوق الوصف ، ليس به من أصباغ ، ولكنه وردي  
 اللون . لها جبهة — حين تجلوها — لوح من الفضة ؛ لا ، بل قرن  
 البدر التمام ، حاجباها ينفحان العنبر ، أهدابها مصوغة من المسك ،  
 ولكنها سهام تنفذ إلى القلب . وعينان تحسبها بهما ظيماً . تتعلق بها  
 أنظار من يراها فلا يبغى عنها حولا . وشفتان كالمرجان ، ولكنها  
 ليستا من الحجر . لهما لطف الخمر ولون الياقوت . فيها الضيق يطر  
 الشهد ، كأنه في حديقة الخلد نحلة عسل وقعت على أوراق الورد  
 من خدها وقوع الصنّاع ، فلسعتها بحمتها ثم عادت بالشهد . وينفج  
 الفم عن عقد من الجواهر ، لؤلؤه الأسنان ، كأنها براعم بيض  
 بليلة بأنداء الصباح . وذقنها الفضي في جمال التفاح ، فضته عجب  
 فسحر العقول . وبوجهها خال من المسك كأنه حبة صنعت من  
 اللطف . ودون الوجه عنق كأنه كأس فضة . وقبضة يدها ذات  
 أصابع فضية مستديرة . وكل شعرة من غدائرها أحبولة تصيد  
 القلوب .

وما إن أقبلت ليل بهذه الشماثل حتى ولى قلب قيس من مكانه .  
 وطاب منظر كليهما للآخر ، واشتعلت بساحة صدرهما نار الحب .

---

(١) شجرة يشبه بها القوام في الأدب الفارسي .

(٢) طائر .

(٣) الديك البري .

فصوبت لیلی أقواس ذوائها ، و طال باع قیس فی هوسه ذرعاً .  
ورفعت لیلی النقاب عن خديها ، فأسلم قیس صبره وعقله إلى الريح  
وأطلقت لیلی سم الحب مسموماً ، فأرسل قیس على الفور صبيحة  
الهلاك . وافترت شفاه لیلی مبتسمة عن الشهد ، فانهالت من عيون  
قیس درر الدمع . لیلی ندية الجبین بماء الشباب ، وقده طهر قیس  
بماء شبابها صفحات عقله ودينه . فكانت لیلی على رأس الحسن  
والدلال ، وأخذت تلعب برأس قیس دلائل الهيام . وموجز القول  
أنهما تمتعا كلاهما بما لذ وطاب على مائدة الحب . وما أشبههما معاً  
برعمة ورد ذات رأسين ، جمعتهما ألفة مشدودة الأواصر . وبعد أن  
قطفا جنی النظرات ، أخذوا يستمتعان بعذب الحديث ما عن لهما ،  
لا يقصداً إلى قص حقيقة ، لا ولا إلى شكوى من هم قديم أو  
حديث . بل كانت الغاية من الحديث نفس الحديث . فقد كانا  
طليقین من كل أسى ، غافلين عما يزخر به هذا العالم من صنوف  
الهم ، إلاهما واحداً : هو التفكير في أنه عندما ينتهى يوم الوصال  
ويفجؤهما الليل ، كيف يتأى كل منهما عن سلبه روحه ، ومن لهما  
بتحمل البعاد ؟ وقد أفصح كل منهما ، دون أن ينطق ، عما يدور  
في خلده الآخر . وجاشت نفس كل منهما بهذه الخواطر :

« أنتحب أسى مفكراً في مساء هذا اليوم ، ألا فليخلد هذا  
النهار يارب دون ليل ، فاحم يارب هذا النهار من ظلمات الدجى ،  
وليبق مشرقاً حتى يوم الحشر ، ولتصر الليالي نهاراً دائماً » .

— ٤١ —

هكذا فكرا ، ولكن متى غير الفلك من دورته ؟ فما لبثت  
الشمس أن غربت ، بعد أن كانت قد نشرت في المشرق علمها  
الذهبي . فانفصل قيس عن ليلى ، وقد قاسيا ما قاسيا من هذا  
الفراق ، فامتطى قيس راحلته إلى المسكن ، وبقيت ليلى خائرة  
القوى في أرض الوطن .

## (٧)

### ليل الحب (١)

حين رمى المساء من طرف القبة الزرقاء كرة الشمس الذهبية  
بسهمه ، غابت في ظلمات بئر الغرب ، فغشى الكون على الأثر  
ظلام شامل ، واختفى طاووس الشمس من حديقة العالم العتيقة ،  
وأخلى المكان لظلمات كأنها جيش من الغربان ، نشرت أجنحتها  
على قبل السماء ، وانتشر من بيضها على تلك القبة ما اتقدت به آلاف  
مشاعل النور ، فكأنه يبيض مضيء من كافور . وكان قيس نائياً  
عن ليلي ، قد حط رحله في منازل قومه ، فكان مقياً بجسمه فيها ،  
وروحه مع ليلي هدف لسهام الآلام . به عجز السليم ، وقلبه نهب  
الخواطر ، يردد اسم ليلي ودموعه تهيم ، مهيلاً على رأسه عثير  
الهموم . يردد اسم ليلي وآهاته تشق طريقها إلى السماء . ومهما علل  
نفسه بالأمانى ، فقد ضل الحيلة في طلب النوم . ولم يستقم له أمر  
على حيلة ، فظل يرقد ، ويجلس ، وينهض . وما إن يمس جنبه  
سريره حتى يهرب النوم من جفونه البليلة ، حتى لكأن في كل  
خيوط من خيوط فراشه مئات من الأشواك تنفذ في جنبه . فإذا جلس  
رأسه على ركبته ، مستسلماً بضغ لحظات ، تراءت له كل صور  
الحنة . وإذا نهض يدير وجوه الرأى ، أخذ يقفز من مكانه أسى

---

(١) الأغاني ، طبعة دار الكتب ، ج ٢ ص ٤٤ - ٤٥ ، وتزيين الأسواق

مرسلا الصيحات . فى صدره هم أثقل من الجبل ، يتلوى به فى رقصه المكلوم . ولما أعيته الخيل فى الخلاص من الليل ، أرسل الشكاة من طوله قائلاً : يا ليل الهم ما أقسى ما بك من بلاء ، أيها الليل ! بل أيها التنين الأسود ؛ تنتشر مهولاً على الأفق من بعيد ، فتطبق فكيك على الطيب والحبيث . أما وقد انتزعتنى أملى من شفاه الحبيب ، فقد وقعت منك بين فكي تنين . فأين الصبح ليشفينى برقياه من أهوال الليل ؟

هكذا كان شأن قيس من حرقه الفرقة ، منذ المساء حتى مطلع الفجر . وكذلك كان شأن ليلي فى منزلها مكلومة الفؤاد والهة ، تتذكر طيب صحبة قيس ، وترسل مر الشكوى من ألم الفراق . وما كان يعانیه قيس فى بؤسه من ألم كانت تقاسيه ليلي فى بعدها منه . فلم يغمض لها جفن على ذكره ، تطلق الدمع من عيونها قائلة : قيس كالطائر المحلق يخف إلى أى مكان يريد ، أما أنا فكفراش منزلى لا أبرح عنه خطوة ، وليس لى أن أذهب للقائه . وبالقلى من الأسى إذا لم يعد ! ! فالرجال — أينما كانوا — مجدودون أما النساء فهيهيزات الجناح ، فليس من شأن المرأة أن تتردد على بيت الحبيب ، وليست سيدة أمرها . والعشق الذى تطول به أعناق الرجال ، هو محمود من الرجال ، ولكنه من النساء عيب وخطأ ، ولو كان فى قلبه جزء من مائة مما أعانى ؛ فالأمل فى وصاله قليل ، ولكن لم ينقطع وإلا فرحباً بالبلاء الذى حل ، ولا يبرح هذا الخاطر الطريف ذاكرتى .

— ٤٤ —

وما زالت تردد تلك الأنشودة حتى مطلع الفجر ، وقلبا نهب  
لألسنة لهيب الحب .

وموجز القول في أمرهما أنها عاشقان وفيان ، كلاهما مبتلى  
بالفراق ، يقطعان بأرواحهما طريق العشق طوال الليل ، يعتلج الهم  
بقلبهما من التفكير : ماذا يلد، الليل ؟ وماذا يكون إذا أسفر الصبح ؟

## (٨)

## عَقَبَة

حينما أسفر الصبح عن أنفاس كأنفاس عيسى ، ونشر علم  
 غلالته الصفراء ، وحملت أنفاسه مسكا خالصاً بثته في الأشجار  
 الخضر والزهور المفتحة ، وبسط رايته المزركشة ، فنشر في  
 الأرض جواهر الأزهار من صدفية وزرقاء ؛ حينذاك تخلص  
 قيس من فم تنين الليل ، وأمسك عن إرسال الآهات والزفرات ،  
 وصاح للرحيل بناقته الأليفة الأسفار ، وسلك سبيله دون تفكير  
 واع ، مرتلاً في طريقه أناشيد الشوق حتى ساحة خيمة المحبوب ،  
 فكان باب خيمتها له هادياً من ضلال الطريق ، وحارساً لزمّام ناقتة  
 من بعيد . وقبل أن يبصر أثر الخيمة أخذ يناجيها بهذه الكلمات :  
 « يا قبة النور ومطلع الشمس ! في ظلك شمس مخدرة . ليلى نور  
 عيني أنت لها دوني حجاب . إن دموعي رطبة بالدمع كأردافك  
 حين يبللها المطر ، فترحمي لبكائي ونحيبي ، واحسري حجابك عن  
 طلعة حبيبي . أنا منك أيتها الخيمة كأحد أوتادك ، لا يحملني على  
 الانصراف عنك أن يصيب رأسي حجر . وأنا كأحد أطنابك ،  
 مهما حاولوا لي وطبي فلن أبرح مكاني منك ، وكأحد عمدك دائم  
 المقام لا أريم . قلبي ينوء بحمله بلون الحبيب ، فحطى عنه هذا  
 العبء ، وياستار بابها لماذا تحاول جاهداً محاربتني ؟ ولماذا تستر عني  
 حدود حبيتي ؟ وإذا كان جورك علىّ يمزق مني الجيب جفاء ، فإن

يدى متعلقة بأذيال الوفاء لك . لقد مضيت ليلة أمس محترق الفؤاد  
بأكياً ، فيا ويلتى لو مر يومى مثل البارحة . أنا — كما تدرى —  
محترق الكبد عطشاً . وليلي ماء حياتى ؛ فأتح لى أن تجود ليلى على  
شفتى بقطرة تطفىء نار ظمئى . هأنذا من حبها فى نار ، وهى فى  
نشوة الطرب رضية الفؤاد ، هنيئة القلب .

وعلى الرغم من أن قيساً لم يرفع صوته بهذا القول ، فقد سمعت  
ليلى نجواه تلك من خيمتها ، فشبت فى صدرها ناره ، واتجهت إلى  
الباب حيث وجهة زمامه ، فرأت قيساً فوق ناقتة كأنه صبح  
أشرق لوجهها ؛ ونثرت جواهر القول من ياقوت شفاهها ،  
وجادت بشهد الحديث من خلية فيها ، وقالت : « أيتها المتغنى غراماً  
بمحياى ، وفى قلبك لى حرقه الشوق ، قد احتل الألم قلبك ، واتخذ  
من صدرك منزلاً ؛ أو تساورك الظنون أن طائر هذا الألم قد  
عشش بقلبك وحدك ؟ ألا فليبق بستان عيشك ضاحك الحنات ؛  
إن بقلبي أضعاف ما تعاني من ويلات ، ولكنى لست مثلك فى أن  
يباح لى حديث ، أو أن أنقل نحوك قدم المسير . فما تستطيع أن  
تبوح به من أسرار لا أملك أنا سوى دفنه فى سرائرى ، فللعاشق  
أن يدق طبول عشقه ، وأن يمزق من آلامه الثياب ، فى حين على  
محبوبته أن تبقى مؤتررة بلباس الحياء . وللعاشق أن يجلو بشكواه عن  
أسى قلبه ، وعلى من هام بها أن تحفظ السر حيساً فى الفؤاد . وله  
أن يطلق العنان بعيداً لصيحات آلامه ، وعليها أن تظل على الصمت  
صبورة . وله أن يبكى جهرة ، وعليها أن تكتم آلامها المبرحة . وله



أن ينطلق في طريق الطلب ، في حين تظل قعيدة بيتها وقد تصل  
آهات ألمه إلى العيوق ولا تلقى لدى الحبيب جواباً ، وتظل هي  
منطوية تتعلل بأمل الوصال ؛ ولكن من يوقع على قيثارة العشق  
— عاشقاً كان أو معشوقاً — أن يرسل من توقيعه نفس الألحان ، إذ  
كلاهما يشكو بلحن واحد من الفراق ، والعيش على ذكرى  
الحبيب ودعائه .

وحين سمع قيس هذه الأنشودة استخفه طرب العاشقين ووله  
الحبين . ومزق ثيابه على ذوق تلك العبارات ، وسقط على الأرض  
يريد أن يظل دون قدمها كظلها ، وأخذ يفيض إليها بسر ما مضى ،  
ويشرح تباريح الليل الذي قضى . ولكن أصدقاءه جبروا إليه من  
كل صوب ، مرحبين أيما ترحاب ، فأبت تلك الدرة الفريدة إلى  
خدرها ، وأمسك قيس لهذا عن مناجاة روحه ، وعاد محروماً من  
غايته ، جريح القلب مكلوم الفؤاد ، وآب فريسة الهموم والألم .  
وأخذ يردد في نفسه هذه الشكوى :

« ألا أيها الأعوان والخلان ! اتركوني وإياها لحظة ، حتى  
أروى برؤية جمالها ، وأتمتع بلذة وصالها . وأية حال أسوأ من  
مكلوم الفؤاد ، أمضى ليله في أسى الفرقة والانتظار ، يفيض  
ناظراه بدم قلبه ، حتى إذا أسفر الصبح رده الوصال طروباً ،  
ولكنه لم يجد مجالا للنجوى وشرح حاله لدى الحبيب ! بل أقبل  
عليه من بعيد قوم حالوا بينه وبين أعز مقصد لديه ، وعقدوا .

لسانه عن الكلام ، وشدوا وثاق روحه دون الإبانة عن الآلام .  
 فلا رأى أحد أمثال هؤلاء ! ولا أدرك منهم إلا أذبال الخسة يجرونها  
 مدبرين » .

وأمضى قيس يومه على هذه الحال ، فى عجب من الهموم  
 والأهوال ، وانتهى به الليل على هذا المتوال . وفى الصباح شد  
 رحاله إلى منزل الحبيب ، فحث الخطا من جديد فى طريق ليلي .  
 وأبصر بخيمتها خالية من الأغيار ، ليس بساحتها من حط الرحال .  
 فقبل عتبة المكان ، وظل واقفاً وقفة الغلمان . ودعته ليلي من خيمتها  
 وأجلسته مجلس الاحترام . وتمتعا بساعة وصال ، وفضاً المختوم  
 من أسرار العشق . كلاهما معشوق وعاشق ، كالسكر واللين  
 كلاهما لصاحبه موافق . فكهم أمالت ليلي برأسها فى صنوف من  
 الدلال ، وبقي نظر قيس معلقاً بتلك الطاهرة الأذبال . فهذا قيس  
 قد خط عذاره ، ولا تتأمله ليلي إلا وتتأى بها الخواطر عن مذهب  
 العقل . وقد تحل ليلي عقدة من غداثها فيسلم قيس دينه وقلبه . وقد  
 يفر ثغر قيس عن سحر التعبير ، فتجيبه ليلي بشهد القول ، تصوب  
 ليلي إليه نظرات المحب الواله سهاماً ، فيحترق لها صدر قيس  
 ويفيض قلبه سقاهاً .

— ٤٩ —

ومجمل القول أنها صديقان توثقت بينهما أواصر الحب . لتلك  
الصدر في مجلس الدلال ، ولهذا صدق العزم في الصمود لما يلاقى  
المحبون من آلام . وقد أمضيا عمرهما — كما تعلم — في العشق وشئونهِ  
ليلي لا تبالي بنصب الوجد ، وقيس لا يخشى قرحة الملام . ويلي  
كنز راحته وسروره ، بمنأى عن ريح الدهر وخساره .

( ليلي والمجنون )

## (٩)

### الناقصة وفصيلها (١)

العشق — أول العهد به — سرور وطرب ، أنشودته عازبة عن  
الخان الأسى ، لاجال فيه لألم المغرم ، ولاشكوى فيه لجراح اللوم ،  
فهو كنز الراحة والرضا ، ينأى بخواطر صاحبه عن خير الدهر  
وضره ، كالخمر في بدنها ليست إلا سروراً ولذة ، لاثثير اضطراباً ،  
ولإنما تنقص الهم وتزيد المتعة ، وتمحو من القلب غم النهار والليل .  
فلا يستعصى على دوائها ألم ، ولاثثير إذ ذاك غول الخمار في  
الرأس من سقم . وكان قيس طروباً من خمر العشق ، خالى البال  
من نوب الدهر ، لاهم له مطلع كل يوم إلا التفكير في شأنه ،  
فكان يشد رحاله ، ويعقد الأحرام إلى حرم حبيبته . وعندما  
يحدو به الإقبال إلى تلك القبيلة . يخيل إليك لسرعة سيره أنه محمول  
على آلاف الأجنحة في الهواء . يهش فؤاده لروح الوصال . ويسير  
مير الريح بدون عناء . فهو في ذهابه سهم منطلق . لو صادفه في

---

(١) قد تأثر المؤلف في هذا الفصل من قصته بهذه الأبيات لعروة بن حزام :  
هوئى ناقتى خلنى ، وقداى الهوى      وإني وإياها لمختلفان  
هوئى أمأى ، ليس خلنى معرج      وشوقى قلوصى فى الندو يمانى  
هوئى عراقى ، وتثنى زمامها      لبرق إذا لاح النجوم يمانى  
متى تجمعى شوق وشوقك تظلمى      ومالك بالعبء الثقيل يدان  
انظر ذيل الأمالى والنوادر ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٢٦ ، ص ٥٩ .

طريقه من الأشواك والحصى ما يشبه مباحض الجراح ، وجدها  
ألطف من بساط العشب . وحين يرى أمامه التلال يتلو بعضها بعضاً  
كأنها من القبط نار مؤججة ، تبدو له وكأنها قبضة من رمل  
دافئ .

وإذا مزقت كف قدميه قطعاً سهام الأشواك وسيوف الحجارة ،  
بدا له في كل مزقة منها برهان على صدق عزمته . فإذا ما عاد من  
لندن قبله روحه ، فطريقه طويل كطريق الكعبة ، كل خطوة في  
حساب خاطره المصاب ألف فرسخ يعود وعينه تقطران الدمع .  
يجر خطوه ثقيلاً كأنه ماء يصعد . فإذا وضع قدمه في منزله قف  
شعره مما بقلبه من لواعج الأسى . وكما التفت في طريقه إلى الأمام  
مرة ، التفت إلى الخلف مائة مرة ، لعل آيياً يحمل من خلته بعض  
الطيب ، ويفضى إليه بنجر عن ذلك القمر الحبيب . فهو في طريقه  
إليها كسيل ينحدر من قلة ، وفي إياه كأنه الجبل مقلًا . وهو في  
ذهابه كالريح ، وفي أوبته كالماء الراكد .

وفي ذات يوم كان جسمه واهناً من الحمى ، فلم تسعفه قدمه  
بالذهاب ، فاستعان بمطية هي ناقة ذات جنين ، لاقرار لها بلونه ،  
فلو حيل بينها وبينه وهنت قواها عن السير . ففصل قيس الناقة من  
رضيعها ، وجد بها في طريق من لديها قلبه . وحين قطع بضعة أميال  
من الطريق ، استغرق في تفكيره في ليلي ، فأحست الناقة بضعف  
القيادة ، وثنت عنانها آية إلى رضيعها . ولما أدرك قيس أنها تقطع

الطريق إلى ولدها ، وعرف ما عرف من أمرها ، وأنها ذاهبة به إلى غير وجهته ، ردها إلى مقصده ، حادياً بأنغام الشوق . وبعد مسافة أخرى من الطريق وجدت الراحلة نفسها نائمة عن ولدها ، فرجعت في نفسها وله الحنين . وغاب قيس عن وعيه مرة أخرى ، وطارت به عنه سورة العشق ، وشعرت الناقة أن قيساً عنها لاه ، فرجعت في طريقها من جديد . فلما أفاق قيس أعادها إلى الطريق مرة أخرى . وضاق قيس بأمرها ذرعاً ، إذ تكررت الواقعة أربع مرات . وأدرك قيساً حزن عميق على أثر الترداد بينه وبين الناقة ، فأبرز من صدره هذا السر الدفين قائلاً :

إن ذلك الكنز الذى أحث الخطى قدماً إليه هو أمانى ، وذاك الفصيل مثار غم الناقة ومبعث راحتها قد تركته وراءها . فإذا سارت في نحو مقصدي ، فهي دون مقصدها فريسة التباريح ، وإذا تبعتها لغايتها ، شرق بغصصه ذلك القلب الجريح . فصحبتنا على هذا المتوال من المحال ، ورضانا كليتنا خيال . فخير ، إذن ، أن أحل عقدة القلب وأتركها ، ليتبع كلانا الطريق الذى يحلو له .

هكذا قال ، وحل الرجل عن الناقة ، ففك رويداً رويداً وثاق قلبها . فعادت لعظنها ، وسلك هو وحده إلى ديار الحبيب . وبينما هو منطلق في طريقه تغنى منشداً :

« تعلق بمن يهواك ، ودع جانباً أمر من ينأى عنك . ودم على طريق الوفاء ، وأغلق دونك باب الجفاء . ومن امتنع عن صحبتك

فى طريق ، فامح من طويتك كل أثر له . وإذا دفعك الحب إلى  
سلوك الطريق ، فحسبك خيال ليلى من رفيق . فاذا كر ليلى وول  
وجهك شطرها ، وانشد الراحة فى حماها . فليس محموداً من عالمك  
سواها . وغيرها على قلبك غمة . فاقطع عما عداها جبل الوصال .  
وأناً بجانبك عن ذميم الخلال » .

وصاغ من هذا القول أنشودة تغنى بها ، راقصاً فى مسيره على  
حسب عادته كل يوم حتى منزل من هام بها . وهناك رأى بعينه  
ما رأى ، وسمع من الأسرار ما سمع . وحين أقبل الليل عاد من  
ذاك المقام ، طيب الخاطر بما حظى من الوصال . عاد كثيراً وقد  
ذهب طروباً . ألا فليكن هذا حال العاشقين !!

## (١٠)

### برهان المحبة (١)

من خط عنوان صحيفة هذه الآلام ، سطر قائلا هذا الكلام :  
أرادت ليلي أن تسبر غور حب قيس ، وأن تقف على مايفعل  
الأسى بقلبه إن مالت إلى غيره .

و ذات يوم اجتمع حسان الحى من غيد وشبان ، من كل  
فاتنة حين تضحك لفتى ترده عبداً دون بيع أو شراء ، وكل شاب  
لو ابتسم لفتاة أتت إليه خادماً طيعاً . وبينما هم على هذه الحال ، إذ  
طلع عليهم قيس المفضل . وعلى وجهه من غبار الطريق ، شجى  
الفؤاد من فراق الصديق . فقبل الأرض وحيا ، وخص بالتحية  
ليلى ، لكنها لم تلق بالا إليه ، ولم تشغل فى هذا الجمع به ، بل  
أرسلت ذوائبها دلالات ، وقطبت حاجبها متغاضية . وأخذت تبسم  
لمن عداه ، ونخص بشهد حديثها سواه ، تدبر عنه وجهها إلى من  
فى الجمع ، رقيقة الحواشى مع الحضور ، خشنة معه . فإذا وقع

---

(١) الخواطر التى ينظمها الشاعر فى هذا الفصل تدور حول رواية الأغاني  
( طبعة دار الكتب ج ٢ ص ١٤ ، ٣١ ، ٤٦ ) أن ليلي أرادت أن تمتحن قيساً  
فى حبه ، فأسرت كلاماً إلى غيره بمشهد منه ، معرضة عنه ، فامتقع وجهه ، واشتد  
عليه ذلك ، فأنشدت :

كلانا مظهر للناس بغضا      وكل عند صاحبه مكين  
تبلغنا العيون بما أردنا      وفى القلبين ثم هوى دفين



نظر قيس على وجنتيها ، ثنت في صددود عنه عطفيها . وإذا جرى  
لسانه بكلام ألفت بسمعها إلى غيره . ولما رأى قيس من ليلي هذا  
الإعراض تبدلت حاله ، وحلت زهرة غصن أمله الأملود ،  
فصارت ورود وجنتيه صفراً ، وصب من ناظره الياقوت الرطب  
من الدمع ، فسال جواهر فوق صفحة الذهب من محياه . ورفع  
النقاب عن وجهه بؤسه ، مردداً ألحان شكوى تنفذ إلى أعماق  
القلوب ، قائلاً : أين من أمرى رونقه القديم وجناه ؟ وأين حرمتي  
لديك ومكانتي ياليلاً ؟ فما أطيب العهد الذي كانت ليلي تراني فيه  
بعين المحب ، هاجرة من أجلى صحبة الأغيار . كانت معي وكانت  
جليستي ، وكانت لاتضمن على بعد بحديثها . وكان من دأبي فيما  
مضى أن أسأله العفو عن المذنبين ، فمن لي — ولاذنب لي — بمن  
يطلب منها لي الغفران ؟ وحتى لو لم أجد شفيعاً إليها ، فحسبي دماء  
الدموع من شفيع .

فلما رأت ليلي ما عليه من هيام ، وسمعت ألحان أغنيته النافذة  
إلى القلب ، أقبلت عليه ورفعت له عن وجهها النقاب . وتبسّطت  
معه في الحديث ، وضحكت إليه ، وتلطفت له وقالت : ياملاك  
العشاق ، ويافريسة الآلام ! كلانا للآخر صديق حميم ، من بلاء  
العشق في انتخاب وأنين . ونحن فرد واحد في الحب والوداد .  
فلنا كلينا نفس الشائن في فيض الخواطر وفيض صفاء القلوب .  
فإذا كنت قد غبست في وجهك مقطبة الحبين ، فلاتظن أن ذلك

عن حفيظة لك أسرها ، فتلك العقد في غصون بحياى إنما كانت  
لكى تعقد عنا ألسنة الناس . فعشقتك الذى هو خبر كنز للروح ،  
باق كالكنز نجى عن العيون .

فلما سمع هذه البشرى قيس غاب على قولها عن وعيه ، ووقع  
على الأرض كالظل مغشياً عليه ، فالت ليل على ظله هيفاء ممشوقة  
القوام كاحدى شجر السرو . وطالت به الإغماء قبل أن يتحرك ،  
حتى ظن أنه قد رقد رقدة الموت . ورشوا على وجهه من ماء  
عيونهم ، غل هذا الماء يذود عن عينيه النوم . ثم انفرط عقد الجمع  
وأسرع ، إلى الإنصراف ذوو الوسامة من الحضور ، فتيانا وفتيات  
وجروا مسرعين يقعون فى عدوهم وينهضون وخشية أن يتهموا  
بقتله ولوا هاربين . ولم يبق من الجمع غير قيس وليل . فبقى نائماً  
وعلى رأسه ليل ، كأنها القمر والثريا . وظل كالمحتضر من حرقة  
الهوى ، واهن القوى عن تحمل العيش مع محن الشوق ، حتى فتح  
جفنيه حين ولى النهار ، فوقع ناظراه على جمال ليل ، وكانت  
تبكى من ناظرها دماً يسيل مدراراً ، وسألته قائلة : يا فريداً فى  
الحبين ، ويا حديث مجمع العاشقين ! من أين لك هذه الإغماء ؟  
ومن ذا سفاك هذه الخمرة التى غبت بها عن الأحياء ؟ فأجاب :  
من كفك تناولتها ، وقد سقيتنيها على عمد . فقد صددت عني  
بوجهك أولاً ، وأمسكت عن الكلام معي فمأ مقولا . على أنك  
كنت تصافحين الآخرين ، وتقبلين عليهم بمحيك : وكلما أقبلت

عليك أشحت عني ، حتى رددتني أحقر الأدلاء . وأخيراً عدت  
بلطفك إلى ، وأريتني اللحم من وجوه الدلال . وعهدى بك تمتعيني  
من خمر وصالك بالدرد والصفاء ، ولم تكوني لتضني علي بجرعة ،  
وقد صغت من بيانك سلافا يطيح بالعقول ، فثملت بها كل الثمل  
أيتها الفاتنة ، فإذا سقطت دون وعي فما لي حيلة ، فلست إلا  
آدمياً وما أنا بحجر صلد .

ولما سمعت ليلي منه قضته ، قالت في عناية وتدلل : يامراد  
روحي وقوة جسمي الواهي ! إن الألم الذي تعاني ، واوعج  
القلب التي تقاسي ، لهي دون ما في فؤادي من تباريح تعجز الوصف  
فعاد قيس على ذوق هذه الكلمات مسروراً ، وانقلب إلى  
قبيلته جذلاً مقرر العين .

## (١١)

## عهد الوفاء (١)

رأس الفاتنات الغيد في كل الآفاق ، الفريدة في الحسن  
 كأقواس حاجبها ، إذا برزت فهي دنيا من الدلال ، وإذا احتجبت  
 فهي خلف ستار الأسرار ، ربحان حديقة الأمانى ، وأوراق ورد  
 بيع الحياة ، ملازمة مصلاها ، شأن الزاهدين . وهي مثار العرب  
 وفتنة العجم ، لها من حفيف الوشاح ووسوسة الخلل ، موسيقى  
 وجد وطرب ، ومن قلادة عنقها وحلية أذن ، شرك العقل وخدعة  
 القواد . تلك صورة ليلي الفاتنة . ولما رأت في قيس الوفاء وعرفان  
 الحميل فاض عن القياس عشقها له ، ولم يخالجها في تغانيه في حبها  
 أدنى شك ، ولم تكن بحاجة في هذا إلى دليل .

وعندما عاد إليها قيس في يوم آخر ، كانت قد امتلأت جوانب  
 روحها شوقاً إليه ، وقفز قلبها من مكانه ببسمة الرضا له ، وفدته  
 بالروح لقاء وفائه ، ونأت معه عن الجفوة والإعراض ، وتحدثت  
 عن عقد عهد الوفاء . ولكي ترضيه ما استطاعت ، قالت له هذا  
 العهد الوثيق : قسماً بذات الله سبحانه ، مدير الأفلاك في مداراتها ،

---

(١) في الأغاني حديث ذلك العهد الذي أعطته ليلي قيساً ، إذ قالت له بعد أن خبرت  
 حبه لها : « أعطى الله عهداً لا أجالس بعد يومى هذا رجلاً سواك حتى أذوق الموت  
 إلا أن أكرهه على ذلك » : الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٤٦ .

ومضى هذا السقف الرفيع بنور القمر ومصابيح النجوم ، وكل ما تبدى منه من طرائف العضلات كان غاية من اجتهدوا في حلها فعجزوا دون الغاية ؛ قسما بذوى الأبصار النيرة التي تكشف بأشعة نظراتها عن مخبآت الحقيقة في لوح الوجود ، لتصل بأصحابها إلى كنه كمال الله ؛ قسما بصدور العارفين القادرين على معرفة الأشياء ، الواقفين على كنوز الخليقة ، ورموز الحقيقة ، من لا يستعصى عليهم حل العضلات ؛ قسما بكل غريب مهجور ، نأت به الدار عن الحبيب ، لا أمل له في ليل همومه ، ولا شفاه تسوق له خبراً طيباً ، قد عانى ضربات سيف الهجران ، وتجرع كأس الهموم ، قسما بكل حبيب فاتن الحسن ، شبيه القمر جمالا والخور فتنة ؛ لأربطن قلبي لقيس بحب كحبي لنفسى ، وأقطعن صلتى بسواه ولأبذلن الروح دون عرضه لثلاث يمس بسوء . قسما بكل ما يستصوب الخلف به من عاقل ، أن يظل حبي لك — ما اتسع به المجال — مستعصياً على كل نسيان ، وأن يظل ذكرك أنيس روحي ، ماسيح لي القدر بالعيش ؛ وإن ضحيت بالهموم من أجلك في هذا العالم ، وظللت محرومة من نعيم الدارين ، وإن آتني منه آلاف الأعباء ، فلن أصل بغيرك حبل . ولو منحني الجد الخيرة فلتكن أنت حظي من العالم . ولن أجلس أو أقف مع أى خبء لا يستقيم لك معه أمر . فلا صاحبنى شيء بدونك ، حتى نفسى : ولا كان لي عيش بدونك . وإلى أن ألقى الوفاة سأحمو من لوح وجودى مشاغل الكونين . وبهذا العهد الذى أرتبط به معك قد

قطعت كل عهد مع من عداك . فلا يكن مظلماً بحر الوفاء ، وكفاني ما فيه ذخيرة لقيامتي .

وبعد أن أحكمت ليلي وثاق العهد ، جاست به طريقاً مظلم الأرجاء ، وفصلت ما بينها وبين القريب والبعيد ، وتركت كل حمل ذلك العبء ، وولت وجهها عن الخلق جميعاً مقبلة على ذلك الحبيب . وحلت جيدها بقلادة الصديق ، وصحبت أذيالها عن الأغيار .

وعندما وصل قيس من طريقه غدوة ، عقل ناقته ببابها ، وقص عليها عناء الليل ، وبسط حلاوة الوصال نهاراً وشكاية البعاد ليلاً وبقي آمناً منفرداً بها حتى المساء . ولما رأى قيس مدى جهدها في الوصال ، وبرها بالعهد ، زاد وسواس حبه ؛ وعاقبة الوسواس الجنون . فصار مجنوناً خليع العذار ، مشتهراً باللقب في كل مكان ، وبه معروفاً حتى نهاية أجله . واستبدله في كتاب الدهر من اسمه قيس . فإذا خطر في محفل نادوه بالمجنون . وكان يطيب خاطراً بهذا اللقب وكان لحنه على اسمه حلواً لا تبلى جدته .

وفي باب الطرائف والملح أى إنسان أفضل ممن أسام سرح العشق ؟ وأى اسم خير من اسم العاشق ؟ نعم ؛ اهجر — أى جأى ! — كل عمل لاطائل تحته ، لتحظى باسم العاشق .

## (١٢)

## قبيلة قيس تكشف المكنون من حبه

من جميع أمور هذا العالم ليس هناك ما هو أفضل من أمر  
العاشق ؛ فقد باع متاع العقل ، وصار طروباً لسماع الألحان ،  
لا يقر له قرار . فحاله حال مجنون : حيناً يقبع في غار الهم ، وحيناً  
يتسم قلة الجليل . وهو أمين خزان الإفلاس ، وهو رهين أسى  
خواطر الوسواس . يقنع في القفر بظل الطلح ، هائم في هذا العالم  
وادي الأذلاء . وهو رفيق المترنمين بألحان الأسى ، صديق الأحرار  
الزاهدين : سيمر الظباء في الصحراء ، ونجي البلابل في هيامها . قد  
أنهك الهوى قواه ، وبليت في طريق الحب نعلاه . قد حطم على  
العقل زجاج وكره الهش ، واطرح ظهر ياحب شراك العقل .  
رفيق قطعان حمر الوحش وأسراب الظباء ، وكأنه واحد من قبائل  
الجن .

وتلك حال المجنون أسير ليلي ، برحت به جذبة العشق من ليلي .  
واطرح وراءه قواعد العقل ، لا يجد من راحة على سريريه بيئاتاً ،  
ولا يراه أحد لانهاراً ولا ليلاً ، مزق حبل كل وصال ، وطوى  
كشاحاً عن الناس . فإذا لمح من بعيد صديقاً هرب منه ونأى . وإذا  
تقدم إليه أحد أقاربه نحاه عنه بعيداً . وحين رآه القوم على هذه

الحال ، أطلقوا ألسنتهم فيه بالطعن قائلين : ماذا نفره منا ، وأى ملال أصابه من قومه ؟ لقد سل سيفاً وقطع به رحمتنا دون رحمة .

وذهبوا إليه ، وضربوا حوله حلقة كهالة القمر ، وبحثوا عن دليل على حاله ، وجسوا نبضه . وتجاه صمته ربطوا عن الكلام لسانهم . فلم يحل عقدة عن السر ، ولم يضرب نغمة على وتر .

وكان له صديق في تلك القبيلة ، له عيله أياد جميلة . حلوا الشمائل ، فصيح اللسان ، ضارب على أوتار العشق بأطيب الألحان فقالوا له : على الرغم مما بذلنا في معرفة حال قيس ، قد ظل كاليراعة لاتسلك الأنفاس في عقدها . وفي زفراته آلام دفينه . فانفت فيه من روح وفائك ، علك تجد صدى لمسعاك .

فتعقب ذلك الصديق أثره بضعة أيام بغية الوقوف على حاله ، وأخيراً قال له : أخى ! يكاد ينفطر لما أنت فيه من غم قلبي ، وتكاد لما تعاني من هم تحترق روحي ، ويلتهم لهيب الأسى مخ عظامي . فلم قطعت دوني حبل الوفاء ؟ ولم الهرب من صحبتي ؟ وقد كنا فيما مضى أخلص الأصدقاء ، أليفين لانفترق كالألف واللام ؛ فاشرح ، منصفاً ، ما فعلت بهذه الصداقة ؟ وكيف أضعت قاعدة الوفاء ؟ واجلس لحظة نتحدث معاً عن هذا السر ، ونستعيد ما مضى من حال . فإذا لم يبح الصديق بالسر ، فقد تجردت طويته من طيب الصداقة . وفي خلوات الأصدقاء المخلصين يبين مهندس الصداقة عن سر بنائها .



فلما سمع قيس منه ذلك اللحن أخذ يتوجع توجع العاشقين ، وقال : أى صديق الحميم ! وموضع سرى ! إن أمرى صعب المركب ، وأنا منه فى خطر الهلاك . فليس هو مجرد شجى فادح الثقل ، بل إنه لأثقل مائة مرة من الجبل . وإذا لم يزح عن كاهلى هذا العبء ، فأنا ، لاشك ، قاضٍ نحى .

فسأله : أى حمل هذا ؟ وأى حبيب أثقل به فؤادك ؟ فأجاب : « ليلى » ؛ وسقط مغشياً عليه على نطق اسم تلك الحسناء ، فتعظمت عن الرؤية عيناه ، وعن السمع أذناه ، وعن الحديث شفتاه ، ونفص يده من الكونين وقتاً طويلاً ، بقى فيه بين الحى والميت . ولما وقف ذلك الصديق على حاله ، ورأى ما وصل إليه من كمال العشق والوفاء ، على أى أمر أمره وأى حمل حمله ! كما اكتشف اسم عشيقته ، وعرف من هى . وقد تأثر من أجله أبلغ تأثر ، ولكنه أفضى للآخرين بسرّه ، ومقصوده أن المطبين يتيسر لهم — إذا وقفوا على سر الداء — تشخيص الدواء .

### (١٣)

#### نصيحة والد قيس له (١)

حين علم والده المسكين بخبره ، لوى عنانه نحوه في سرعة الريح ، واحتضنه إليه وقلبه يغلى بحبه الأبوى ، وقال له : ياروح والدك ! على أية حال أنت ؟ ولم ألقيت بنفسك في الوبال ؟ خبرت أن قد سلبت عذراء من إحدى القبائل قلبك . وأنا معك على وفاق في أنك في طريق طالما سلكه غيرك ، إذ العشق إحساس نبيل . ولكن ليس كل إنسان أهلاً لأن ينال حبنا . ولا يلقى أن يجتذب قلوبنا كل منظر جميل ، بل يجب أن تكون المحبوبة من طينة طيبة ، ولا ينبغي أن يكون العشق لمن لم يطب أصله . وليلى — وإن تراءت لعينك عزيزة القدر — ليست بالنسبة لك إلا أقل الحوارى شأناً . ولا يصح في مذهب العقول أن يشغف المرء بكل جارية : فأنت شبيه « الخضر » من عليّة القوم ، وهى في النسب من خضراء الدمن . والعالم كله دون أقدام « الخضر » ، وأين من مكانته خضر الدمن ؟ فبالله إلا

---

(١) معظم خواطر المؤلف في هذا الفصل لها أصل فيما روى من أخبار قيس ، فقد كان أهل ليلى دون أهله ، وكان بين الحين عداوة ، وطالما وجه النصح إلى قيس بالسلو عنها ، كما روى في شعره :

لقد لائى في حب ليلى أقاربى      أخى وابن عمى وابن خالى وخاليتى  
يقولون ليلى أهل بيت عداوة      بنفسى ليلى من عدو وماليتى

الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٣٨ .

رددت عنها قلبك ، وقطعت منها حبل أملك . وهى كالحسك الخفاف ،  
وأنت وردة ، وقدك شجرة سرورٍ نضرة . وهى غراب وأنت  
تدرج مدل بجمالك . وأين من الحسك الورد والسرو ! وأين من  
الغراب التدرج ! ولا ينبغي أن تجعل نصيبك من حديقة النساء إحدى  
الشقائق تكوى بنارها قلبك ، فالحديقة مليئة بالورود والرياحين ،  
فتفتح قلبك بالرياحان ، واقطف من الورد . وخذ من الورود المئات ،  
واجمعها فى يدك طاقة فحتام يبقى قلبك إذن معلقاً بوردة واحدة ؟

ومن المقرر المعلوم كذلك أن حى ليلى معنا فى نزاع دائم ،  
ولا يلتقى بنا إلا للزوال ، فنحن معاً كالماء والنار . كل منا يلوى  
عنانة عن الآخر . ولنا فى ميدان الوغى جولات خضب كل منا  
فيها بدم الآخر سيوفه . فخبرنى : أى خير يرجى فى صداقة من  
يتحدى بالعداوة ؟

فقال المحبون لوالده بعد سماعه هذه النصائح : أيها الناصح  
الشفيق ! لقد نقش على صفحة قلبي الفطن كل ما قلت من لطيف  
الحكم ، ومن در النصائح المثقوب ، ولن أتوجه إليك فى ذلك  
بعتاب ، ولكن عندى لكل ما قلت جواب :

قلت : إنك مفتون بالغرام ، وقد شحب لونك من جذبة  
العشق . نعم ، فأنا لا أعيش إلا للحب ، وهو شغلى فى هذا العالم .  
وحاشا أن أكبح جوادى عن هذا الطريق ، وإذا لم أحي للعشق  
فلا حييت ! ومن لا يمارس طريق العشق فهو فى مذهبي لا يساوى

حبة شعير : وفي العشق خلاص قلب المرء من دوران الدهر (١)  
المديل .

وقلت : لا يليق الهيام بحسنة لم يطب أصلها ، والحسان طينتهن  
جميعاً من الماء والتراب ، إذا صفا القلب منهن فقد طاب (٢) الأصل  
فصدرهن جميعاً الحسن الأزلى (٣) ، ووصلهن هو العيش الخالص .  
وهن مرآة ذى الجلال (٤) ، وعنوان صحيفة الجمال . وإذا لم يشرق  
ذلك النور الإلهي في طينة الجسم ، فلا يغترن مخلوق بمظهر الحسن  
الذي لا طعم له ولا سلطان على القلب . لا ، ولا ينقص الحسن إذا  
ذاك الجسم ولا يسمو بالروح .

وقلت : ليلي سامية الحسن ولكنها دوننا في النسب . وما يفعل  
العاشق بالنسب ؟ والعشق لا يستعر من شيء . وكل من وقع صريع  
العشق فهو ابن القلب ، وليد العشق ، قد قطع نسبته بالماء والطين ،  
إو صار مرعاه روضة الروح والقلب ؛ ولن يعرف لنفسه أباً ولا أمّاً ،  
وقد تحرر من العيوب بل ومن الفضائل أيضاً .

وقلت : أئن عنانك عن هواها ، وافرغ خواطرك من وفائها .

(١) يفكر المؤلف في الحب الصوفي ، راجع المقدمة ص ٥ - ٦ ، وكذا الفصل  
الأول من هذه الترجمة .

(٢) أي لا بد مع الحسن في المظهر من جمال المخبر ، إذ الجمال من أوصاف الروح ،  
وهذا رأى أفلاطون راجع كتابي : الحياة العاطفية ، الفصل الثاني من الباب الثالث .

(٣) راجع المقدمة ص ٥ .

(٤) المقدمة ص ٥ - ٦ ، وللإستزادة راجع كتابي السابق الذكر .

وليس من شأنى ترك هموم العشق ، وليس لى فى الأمر من اختيار  
فقد كتبت على صفحة روحى بضعة الحروف التى تكون الوفاء .  
فهى جرحت بأظفارى الروح ، فأنى لى بمحو كلمة الوفاء ؟ ومن  
ومن الخطأ محاولة محوما خط على قلوبنا من حروف هى الصواب .

وقلت : لاينبغى أن يقتصر المرء من نصيبه فى حديقة الدهر على  
وردة وكفى . وليلى التى نسميها طيبى ، حسبى من هذا البستان .  
فهى روحى وأنا لها جسم . وهى وجودى وهى حسبى . فإذا نأى  
كلانا عن الآخر فلا أمل لنا فى هذا العالم . يطيب سروراً خاطر  
كل منا بحبيبه ، فلا كان لنا فى هذا الوجود سرور سوى ذاك  
السرور !

وقلت : إن لنا مع هذه القبيلة آلافاً من صنوف المكر والحيلة .  
وما شأنى أنا وإلحن الآخرين ، وكل صدرى جراح من طغيان  
الحب ؟ فإذا أرسلت ليلى من أجلى زفرة حب ، فكيف أشعر  
بالبغض لقبيلتها ؟ وإنى لضائق الدرع بكل ما فى العالم ، وفى حرب  
مع من عداها ، وإذا لحقها من صلحى مع نفسى ضيق ، فسأشن  
بنفسى على نفسى الحرب .

وحين رأى الوالد المسكين قيساً على هذا الحال ، وسمع منه  
عبارات عشقه ، علم أن أمره شديد ، وأن ركه فى طريق الفناء ،  
وأمسك بلسانه عن سوق النصائح . وتركه فاصماً عنه عرى وصاله .  
وفوض — من فرط رفقته به — أمره لعناية الله .

## (١٤)

### نصيحة العامريين لوالد قيس بتزويجه بأخرى (١)

عندما شق قيس عصا الطاعة (٢) ، ولم يعد على نصيحة والده إلى المنزل ، مثل أعيان القبيلة أمام ذلك الشيخ ، وقالوا عن حسن رأى وتدبير : أيها العامرى وأنت للكون عمار ، وملكك بك معمور وأنت فيه سعيد الطالع ؛ ولذلك نور أبصارنا ، وهو راحة قلبك المجهود . وهو قرّة عيوننا ، وأرضنا به بستان موقوف . نحن بمثابة الحبة السوداء في نار حبه ، فحتى متى نرضى أن يبتقى في تلك النار . وما دامت طينته من الحب والوفاء ، فذلك مقدر عليه . وإذا أريد القيام بشرط الولاء ، لمن يقع في مثل ذلك البلاء ، فطريق الخلاص إما في سفر ، وإما بحب غادة أخرى . وإنه لصغير السن فلا يصلح للسفر ، وماله به يدان . فخير أن نقرنه في عقد نكاح بغادة أخرى قد شهرت في العالم بجهاها الفتان ؛ وأن نكل إلى همّها أمر صلاحه . فربما تسلى بها وفرغ من هيامه بليلى . فيشمر في خدمتها عن ساعد جده ، ويقصر لسانه عن قصة ليلى .

فراق في خاطر الأب الشيخ ما أبدى هؤلاء العقلاء من لطيف

---

(١) قارن هذا الفصل بما في الأغاني طبعة دار الكتاب المصرية ج ٢ ص ٤٢

— ٤٤ ، ٨٢ .

(٢) في الأصل حيناً مزق الجيب والذليل .

التدبير ؛ فدعا قيساً ، وأتوا به وأجلسوه في حضرته . وقال له .  
يامن بك أنا سعيد الحد ، وأنت لعيني إنسانها . فبفضلك ترى  
عيناي ، وبك يشتد ساعدي ، منك يستمد طبعي السرور ،  
وينشرح صدري ؛ والعالم من فراقك مختلط المعالم . فعد إلى مسكنك  
كالطائر إلى عشه . وإذا لم تجد في المنزل القرار ، يبحث لك عن  
قرينة حسناء تشاركك الدار ؛ حتى تطيب بدلاها صحبتك ، وتثني  
عنانك عن الضلال . فحين تضع في المنزل قدمك فتستقبل هي  
قدمك ، كما تقبل لمقدمك عتبة الدار . وإذا خرجت متهادياً في  
خطوك ، مرغت رأسها على قدميك وعلى أذياك . ولعمرك الذي  
خلت صفحة عيشه من موائد الهموم غادة هيفاء في الحجاب ،  
تخجل القمر جلالاً ، نقية اللون كالدر المكنون . فيها كحقة الجوهر ،  
ضيق يفوق الوصف . عذب حديثها أخ الشهد ، وينفج مرقد قدها  
الأهيف به وح العبر . تشع النور على العالم . وإذا بدت قامتها قامت  
قيامه الناس ، وقد طبقت سمعتها الآفاق ، وثروتها كثروتك تعد  
بالآف ، يخرج من حساب العقل مالها ، وأكثر من مالها جاهها . وهي  
في الحسب نذك ، وفي الأصل والنسب كفؤك ، فلن يعلق بأذياك  
من الاقتران بها عار ، ولن يرمى الطاعنون بسببها منزلك بأحجار  
سبابهم ، وبالله خسارة أن لم يجد بعد مثل هاتين الجوهرتين النقيتين  
سعادة الوصال والصحية . وأريد أن تكون لك قرينة ، وستكون  
طيبة الخاطر على حبك وبغضك . وستزف إليك درة نيرة غير

مثقوبة . فدوما معاً صديقين كالقلب والرو ، مثل اللوزة .  
قشرة واحدة ولب ذو شقين . وكونا صاحبين رقيقين ، في أمان  
من كيد الحسود وطعنات الواشين .

وعندما سمع قيس هذا الحديث انفجرت شفتاه عن شهد القول ،  
وفاض من فمه جواهر الكلم ، كما فاضت عيونه بجواهر الدمع .  
وقال لوالده وهو يبكي : يا أصل وجودى ، ومن تراب أقدامه  
لرأسى تاج ، ومن طينتي من صنيعة ، ورحى الصافية من فضل  
تنشئته ، أنا في هذا الدبر كعيسى بن مريم ، في طريق التجريد (١)  
طلق المسير . أنا مثل الشمس منفرد من هذا وذاك ، مقطوع الصلة  
بالنساء والرجال . لى قلب نافر من الدنيا . وخير لمصاب بالبلاء  
مثلى أن يبقى مجرداً من الزواج ما عاش تحت قبة السماء . وما أنا إلا  
مجنون (٢) مثالى الغاية ، وما المجنون مثلى والزواج ؟ وقد ألقيت عن

---

(١) يتكلم المجنون هنا وفي الفصل السابق بلسان الصوفية . والتجريد عندهم معان  
كثيرة على حسب المقام ، فمنها تجريد النفس عن الميل إلى شهوات الدنيا ودعوات  
الهوى ، ومنها التجريد عن الفتور في السير والالتفاف إلى الغير ، ومنها تجريد النفس  
عن رؤية تأثير الكائنات ونسب الأفعال إلى المخلوقات ومنها التجريد بمعنى العزوبة  
وهو المراد .

راجع : الكشخاوى جامع الأصول ص ٢١٤ - وكتابى : الحياة العاطفية ،  
ص ١٩١ - ١٩٢ هذه المعانى الصوفية .

(٢) يقصد بالمجنون هنا التسمى بالروح في سبيل القربى عن طريق الوجد والدهش  
يجان بمعانيها الصوفية . مرجع الكشخاوى السابق ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .



كاهلى الخاص بى ، فلماذا أشغل بعبء الآخرين ؟ ولا أهل لرفقتى  
سوى نفسى ، فكفانى بوحدتى رقيقاً .

فلما وعى الأب المسكين طرفة جوابه ، غاب عن وعيه . ثم  
قال له : إنما أقصد من جعلك رب أسرة إلى نجاتك ، فتخلص  
بذلك من ليلى وعشقها . فوثق صلتك بحبيب آخر ، يرحل من  
قلبك طارق عشق ليلى . فكما أن الحذاء الواحد لا يسع غير قدم  
واحدة ، فليس فى القلب مكان لقلبين وليس فى البستان مأوى  
لخصمين ، فإذا أقبل الصقر رحل الغراب .

فأجاب قيس : أبى ! وما حيلتى فى الأمر ؟ وماذا يفعل من  
فقد القلب بدلال الحب ؟ هيهات أن أقطع صلتى بليلى ! . هيهات  
أن يميل القلب حب ليلى ! فهى نقش على فص خاتم قلبى ، وهى  
بذرة منبتها فؤادى . وليلى الروح وأنا لها جسم ، وليلى طائر وأنا  
للطائر العش . ومادامت الروح فى البدن ، فأنا لليلى وليلى لى .

ولقد طوفت فى العالم ، ورأيت كل ساكنيه . وكل شىء قابل  
للغناء ، وإذا نظرت إليه بعين الاعتبار وجدت له بديلاً ، إلا ليلى  
حين لا أملكها ، فليس لها من بديل . فلو اخترت بديلاً لمن لا  
بديل له ، فلن أجنى من وراد ذلك غير خلل فى الدين والقلب .

فلما رأى والد قيس أن ابنه لن يتخلص بحال من ربة حبه ،  
أخذ يدعو له عن طيب خاطر ، راضياً بما ساق له القدر من بلاء .

## (١٥)

### الوشاية (١)

- متى استقامت أوتار عود العشق وأطلقت أنغامها بدون مضرب  
الفتنة والوشاية ؟ وكيف تطلق ألحان قيثارة دون أن تنالها غمزات  
يد اللاعب ؟

فقد ألم فضولي متدبج للعيوب بقصة قيس وابنة عمه التي جرت  
في مجلس الأحباب والمحارم ، ووقف فيها على بؤس قيس وسوء  
حاله ، فأسرع إلى ليلي يحمل إليها الخبر قائلاً :

قد بردت حرارة عشقك في قلب قيس ، واتجه هواه إلى سواك ،  
وسوف يطرب بوصالها . وليس في شرعة الإنصاف الوفاء لغير  
ذوى الولاء ؛ وما جزاء الخفاء غير الخفاء . وقد تحول عنك نظره  
وانطفأت من قلبه تلك الجذوة . وحدث الأمر الجلل ، ونفق  
الحمار في الطريق وسقط الحمل . وقد أتى إليه والده وأخذ بيده ،  
وعقد نكاحه على ابنة عمه . فأصر في أنت كذلك عنه أنظارك ،  
واختار حبيبا تعقدين به روابط هواك ، ليتحمل من صمم فؤاده  
عنك الآلام ، ويقوم لك بما قصر عنه سواه (١) .

---

(١) تكثر في أشعار المجنون في الأدب العربي شكلية من الرشاة ، راجع مثلا  
شرح ديوان المجنون لمحمود كامل فريد ص ١٧١ - ١٧٢ .  
(٢) هنا في المخطوطات التي راجعناها تقديم وتأخير في الأبيات ولكنها تختلف  
فيما بينها زيادة ونقصاً .

فلما سمعت ليلي هذه القصة ، ملأ عليها الهم جوانب نفسها ،  
وخارت قواها فلم تحرك يدا ولا رجلا ، وشربت المثالة من دن  
الخمير . وقالت : أيها الحبيب الغادر ، ماذا أتيت ! وما فعلت  
بقلب العاشق المبتلى ؟ — واستمرت تخاطب قيسا خطاب الغائب :  
لقد غررت بي في الصفقة فجريت وراء قمحك ولم تبغني غير الشعر  
وما هكذا يفعل الأصدقاء ، وليس هذا شأن الحبين . تعلقت بمن  
هي أجمل مني ، واستراح خاطر ك إلى سوى . فقد أحسنت ، إذن  
وأحسنت ! وبارك لك الله ! . ولتبق النار التي أشعلتها بصدري  
عالية اللهب ، ولتضيء تلك النار مجالس أنسك . أريتني في البدء  
قعجاً حتى قوى عقد أمل ، ثم نكثت العهد غير حافل بليلي وما بها .  
لقد وضعت لي أولاً من وفائك أحبولة ، ثم ما لبثت — حين  
استرحت إلى — أن أدبر عني ريح إقبالك . جرى ريحك بها تشهي  
فلن يبالى الريح بما أضرم في قلبي من نار .

وظلت ليلي هكذا محترقة الفؤاد ، حتى أسفر الليل البهيم عن  
الضباح ، وأخذ قيس طريقه إليها كعادته كل يوم ، فقالت ليلي  
لحرسها في غضب العاتب : شددوا الحراسة ، وأرهبوه بالسيف  
والسنان ، ولا تخلو له الطريق إلى الحرم ، حتى يَمْضِي لسبيله ،  
ويذهب في أعقاب صديقه . فلا يليق بمثله أن يلج لنا حرماً ،  
وليس هو بأهل للقائنا . فهو في الليل مع الأخريات وفي النهار معنا ،  
ولم يكن معنا نقي السريرة .

ولما رأى المحنون هذا الحفاء ، اخذ يصيح هنا وهناك . وابتعد  
باكياً منتحباً ، ولوى مكروباً عنان راحلته دون حرم منزلها ،  
قائلاً : واحسرتنا ! وما أعظم آلامى ! وما أنا إلا تراب فى طريق  
الخوف والرجاء . قد أضحى حبيبى صديقاً لحسادى . وما أنا إلا  
فريسة هم لا أستحقه .

ولما لم يجد من الصباح جدوى ، سجد لله مردداً فى سجوده :  
حاشا يارب أن يقع لإنسان فى بلاء مثل بلائى ، أسيراً فى أجولة  
الشقاء ، محروماً من حبيبته ، مردداً أسى الحسرة فى نفسه . حق لى  
الآن أن يسيل دمعى دماً ، إذ يصيح هذا القمر أنيس الآخرين —  
وفى كل لحظة كنت أعذى أملى وأنا أعذ إليها السير ، ولم يدر فى  
خلدى أنى ارتكبت ذنباً . ولم يكن لى من رفيق فى الطريق إليها غير  
دموعى وآهاتى ، مقدما بين يدى الأعذار لما لم ارتكب من جرم .  
ومن يكن جرمه مثل جرمى فكفى ذلك الحرم دليلاً على براءته ؛  
وحاشا لو امتلأ الفلك سحبا ، وأمطرت فوق رأسى سيوفاً ، أن أقطع  
من حبيبى جبل الوصال ، أو أن أطرق باب حبيب آخر . وحين  
أصير إلى باطن الأرض ، وأخلص من دنيا الجسم ، ستبقى روحى  
مصابة دون الأرواح ، تبثه نغمات الشوق ، وسأمزق عن قالب  
جسمى الكفن ، طالباً النجدة والغوث ، وسأسلك طريق الوفاء  
لها حتى الحشر ، وأموت كل لحظة على غبار أقدامها .

هكذا كان يتغنى المحنون ، بتلك الأغنية اللطيفة كالدر المكنون ،

فمن بعيد سمعه صديق له عهد بالعشق وحرقاته ، فعاد وأخبر بما رأى  
 ليلي وأخذت تقطر عيناها دموع الدم ، وتوثق عهد العشق من جديد  
 وندمت على فعلتها تلك . وتغنت كذلك بهذه الأنشودة الآخذة  
 بالقلوب : من يلق بسمعه إلى الحاسدين فقد نسي عهد الوفاء .  
 فالحاسد ينترع من النفس الحبيبة هيامها بأجبابها الخالص . فيارب  
 لا كان الحاسد إلا مثقل العبء وكاسد التجارة . وبعداً للحاسد من  
 بيننا ، ولنعمة عنا كوارث الدهر ، وليقطع منه عرق الوتين ،  
 لأنه قطع نظري عن مشاهدة وجهك . قدقلت لنفسي : سأحاول  
 الصبر على نأيك ، وأتجرع كأس سم الفراق . ولكن أى مجال  
 للصبر حين يبرح الشوق ؟ وصبرى بدونك كالسحاب الأسحم  
 يصبب الدموع فى آهات برقه المتوالية . فانهض ماثلاً إلى ، فإنى على  
 قلق بدونك ، خجولة من فعلتى ؛ حتى أقدم إليك الروح عن عفة  
 وطهر ، وأقبل يدك طالبة الصفح .

عندما نظمت ليلي فى سلك القول هذه اللآلىء النيرة ، وتفتح  
 قلبها عن برعمة الألم ، غطت القلم فى دم القلب السائل من العين ،  
 وخطت به فوق رقعة من الورق ، وطوتها وأعطتها رسولاً ،  
 ليسلمها إلى رأس العاشقين . وعندما قرأ المحنون الخطاب ، مشى  
 إليها على رأسه كقلمها ، وعقد الإحرام لحرم خيمتها ، ومثل على  
 قدمه من جديد كأنه عمود خيمتها . وكان فى الطريق خفوق القلب  
 من هم الوسوس ، وقطع كذلك طريقه حتى وصل .

## (١٦)

## بذر الحج

عندما انقضّ باز الفجر على عش غراب الليل (١) ، وصوب  
 سهامه إليه ، طار ذلك الغراب عن عشه . وحين انجلى غراب الليل  
 اسرع قيس يقطع بمقراض قدميه حاشية الطريق . وما إن قطع منه  
 قليلا حتى برزت فجأة لعينه نخلة خضراء نضرة كنخيل سيناء (٢) ،  
 ففتح عليها باصرته ، فطار عنها غراب متألق النظرات كأنه دخان  
 مصباح ، وتلتصع عيناه كأنها نجان في ليل جهنم ، أو كأنها شرارتان  
 في فحمة . عليه خلعة عباسية المظهر ، مجد في السير كأنه ساع في  
 إثر الليل . وأخذ الغراب يصيح صيحات موزونة عميقة ، وذلك  
 لدى العرب فال ميمون ، فطرب لأصواته قلب الجنون . فرقص  
 شوقاً إلى طلبته ، قائلاً في نفسه : فألى اليوم طيب ، وسأنال فيه  
 نصيبي من الوصال . وعلى لله أن أحج ماشياً ، بل ليس بكثير أن  
 أزيد مائة حجة ، إذا سمحت لي عن طيب خاطر بمحضرها تلك  
 الفاتنة شبيهة القمر . ولما قطع طريقه ، وصل إلى الحى ، ووضع  
 قدمه في حرم الحبيب ، فسمحت له بالدخول ، وأجلسته في مقعد  
 القبول . وفضا نخموم رسالات الخواطر ، ونشرا مطوى السرائر

---

(١) من المألوف في الفارسية تشبيه الليل بالغراب ، وفي الأصل الغريبان .

(٢) يستلهم المؤلف هذا التشبيه من قصة موسى في مناجاته الله في طور سيناء .

فأنا تكلمنا عن جور الفراق ، وآنا عن كروب الاشتياق . وصارا على  
الصحبة وفيين ، وفي مباهج العشق متجاوبين . ليلي مستوية على  
سرير الملك ، والمجنون يردد الصيحات طالباً الإنصاف . ليلي  
ورأسها في الأفلاك شرفاً ، والمجنون يمرغ في الأرض خد التوسل .  
ليلي تنثر من فمها الشهد ، والمجنون يفيض من دموعه الدر . ليلي  
تسترسل نظراتها دلالة على دلال ، والمجنون تجيش في طويته الأسرار  
هياما . فأين من ليلي نور الصباح وضاء ! وأين من دموع قيس  
هميان السحاب دافقاً ! وأين من جماها القمر يضيء الكون ! وأين  
من حرقه قيس النار الملتبئة ! فأعظم بمنطقها مصباح القلوب !  
والمجنون محترق بنار ذلك المصباح الذي يلذب القلوب ؛ فما أشبه  
ليلي بوردة على رأس جبل ، وفي صدر المجنون من الهم مثل الجبل ،  
ليلي في ذوائبها كالمسك الخالص ، والمجنون تهيم عيناه . ليلي وردة  
مغسولة بماء الورد ، والمجنون أمامها كالعشب الخاف في خلال  
السراب . ليلي في سرور بنفسها معجبة ، والمجنون صريع على  
بساط الآلام . وأمضى العاشقان معاً يوماً رضيين بعد هجر ،  
وأفضيا بكل مألديهما من سر ، وثقبا كل ما عندهما من لطائف درر  
الحديث . ولم يبق لديهما من ألم إلا باحابه ، ولم يتركا برعمة إلا وقد  
تفتحت في بستان صحبتها . وأراد المجنون وداع تلك الفاتنة ، فنهض  
قائلاً :

يا كعبة القاصد المشتاق ، وقبة الحسان من كل الآفاق . حريم

حيثك حديقة الحرم ، والمقيمون به كزوار الحر . جداتل شعرك  
 عقد ذوى التيجان ، ونفح عطرك وله المشتاقين ، وخلخالك  
 الذهبى تاج الرءوس ، وسلسال شفاهلك يغار منه الكوثر . وكل  
 شعرة من غدائرك كالليل البهيم مثار وله ألف مجنون مثلى . وحين  
 يفتر ثغرك مبتسما فأى سوق لبائع الشهد ! قد عقدت الإحرام  
 لبابك فجراً وأنا رضى الطبع جذلان ، فقلت : إذا تيسر لى اليوم  
 السجود على تراب ذلك الباب ، فعلى لله حجة وطواف . والآن  
 وقد نلت مقصودى ، وتمتعت من وجهك بما أشتهى ، فأذنى لى . أن  
 أشد الرحال إلى البيت الحرام . فإذا امتدبى الأجل أبت ، وسأذهب  
 وأعود راجلا . وإن تمزق جيب العمر فلا حيلة فيما يشاء الله .

وكأنما قفت غدائر ليلى على رأسها حين سمعت قوله . وقالت :  
 يامن منهجك طريق الصدق ، إنما حجبك لى وحجى إليك . ولأن  
 يضىء محيانا نور التلاق ، خير من أن يحترق قلبانا بنار الفراق .  
 وكيف لى بالصبر يوماً على فراقك ؟ ! وستطيب نفسك بقضاء  
 المناسك ، فى حين أظل أرسل الزافرات فى مقام الحداد . فأجابه :  
 فى عناية الله ، وأسأله أن يلهمك وإياى الصبر على محنة الفراق ،  
 لتلتاقى من جديد .

هكذا قال ، وصب من ناظريه سيلا من الدم ، وودعها هامى  
 العينين .



## (١٧)

## الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلي

شرط العهد الوفاء ، وبذل الجهد فيه ولاء . وسفر يقوم به ذو محتد رفيع طرفة من طرف الوفاء بالوعد ، ذلك أن الجهد هو الذى يخرج المرء من عهدة العهد . وقد أخذ الجنون طريقه إلى الكعبة ، باذلاً فى الوفاء جهده . خرج من منزل الحبيبة مضطرباً مبلبل الخاطر . وأخذ يقطع البادية حاث الخطى . وورمت قدماه على حرارة الرمال ووهج الأحجار ، فشئى يطلع . وتشققت عقبا قدميه من عناد السير ، حتى صارت شقوقها كفروج أصابع قبضة اليد . وصارت كفا قدميه حيث مشى كنعلين بهما آلاف مسامير من الأشواك . وتراءى على ساقيه آلاف الرسوم من آثار الحجارة . وكان يضطره الألم إلى أن ينتحى ناحية من وسط الطريق . وكم خط على صفحة الرمال بهذه الرسوم آثار عنائه . فأنأ كانت تبدو قدمه بجانبه من شدة ما أصابها ككبير حداد . وأحياناً يسير الهوينى فى طريقه كناقعة معقولة . ريثة من عطشه السراب ، وهو كليل من ورم قدميه . خبز به خمير من القمر والشمس (١) ، وماؤه رشح الكبد . ونومه لمام كما يسقط لإعياء المنهكون ، فاقد الإحساس فى

---

(١) أى لم يعلم شيئاً .

ظل شجر الطلح . وكانت الأشواك في قدميه تجذب ألاماً عروق الجسم  
 كأنها خطاطيف . وكان رفيقه - في كل مرحلة - الثعابين والنمل  
 وصحبه في طريقه الظباء وحر الوحش ، وخلانه في سفره الجن  
 والحيوان ، كأنه ملك وهؤلاء رعيته . وفي كل معرس له كان  
 يخط كلمة على الكثبان بيده . ثم يصب فوقها فيضاً من دم جفونه  
 حتى تصير في لون الزنجرف (١) . وكان قصاد الكعبة يطلقون بعد  
 الميقات أحياناً أصواتهم بالتلبية ، فكان يتحاشى هو من ترديد  
 التلبية . وإنما كان يردد بدلها اسم ليلي . وعندما أبصر من بعيد سواد  
 الكعبة ، وامتلأ سواد عينيه نوراً ، تذكر جمال ليلي ، فأطلق من  
 حرقة الشوق صيحة ، ثم بدأ بالطواف حول البيت . ولم يجد السبيل  
 إلى وصال قبر الحبيب ، فكان يطلق شعلة الآهات من فراق وجه  
 الحبيب . ودق على باب البيت حلقة الشوق ، وفي رقبة روحه من  
 حلقة حبه طوق . وهو في حلقة غمه مجهود يبحث عن مخرج ؛  
 وبينما يصب دم القلب دموعاً من ناظريه ، تعلق بأستار الكعبة  
 قائلاً : ياربة الخدر ، يامزهوة الحجاب ، ويا حلالة عقد حلقات  
 الأسرار . مكانك بين أندية العرب ، وبك كسدت سوق كل  
 العجم . تحت كل حجر في باديتك سقطت رؤوس آلاف الأبطال .  
 معدنك دواء في المسكن ؛ ونظرة منك قاصمة إلى الأبد قلب الواله  
 والرمل من حرم منزلك كحل يرد النور إلى عين الزمان . من

---

(١) الزنجرف : صبغة قرمزية .

سجيتي الهذيان ، ومن شيمتك السر ؛ فكوني لي ملاذاً حتى لا يهتك  
 لي حجاب ، وكوني لي شهيداً على أئي تبت ؛ وقد تبت من كل  
 ذنب ، وأنبت عما كان مني من سوء الفعل ، وقد مضيت جياتي بباب  
 المعشوق الأزلى (١) ، الذى يتجلى لنواظر من جن جنونهم من  
 العشق ؛ وكنت وفياً لما عاهدته عليه . وأنا نادم من كل ما وقع  
 لى من تنص لهذا العهد . يامن يولى وجوههم إليك العجم والعرب ،  
 وأرواحهم جميعاً سكرى من الشوق إليك ، اصرف وجهى عن كل  
 شىء ، واغسل صحائفى من كل كلام ، إلا من هوى وجه ليلى ،  
 ومن نداءات الشوق إليها . فليلى ملاذ أمل روحى ، وكنز عيشى  
 الخالد . منها تستمد عيني نورها ، ومنها يجد قلبي المضنى روح  
 القرار . هى ملكة ولاية الجمال ، وروح جسم العشق ، غاية كل  
 محب . ومادامت ملكة لى فأنا عبد ، ومادامت هى الروح فأنا بها  
 حى . وليلى مصباح الحياة ، وباكورة يانع الثمار فى بستان الأمل .  
 فكل من لم يحى بها فهو ميت ، وكل من لم يعره منها حرارة الشوق  
 فهو بارد القلب . ولو أن العالم كله على رأى واحد ، وخرج عن  
 قاعدة الوفاء لها ، فحاشا أن أعيرهم أذنًا ، وحاشا أن أنساها لحظة .  
 وعندما قالوا : إن المجنون خرج قاصداً الحج ، عارى الرأس ،

---

(١) يمثل المجنون فى خطوره الصوفى الذى تختلط أفكاره فى الجمال الإنسانى  
 بوجوده بالجمال الأزلى ، فليل فى ذهنه طريق للقربى ، راجع المقدمة ؛ وانظر كذا  
 الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحياة العاطفية .

— ٨٢ —

حافى القلمين ، نعى الخبر إلى أبيه ، فأسرع كالريح في أثره ،  
فكان قرينه في الطواف واختبأ يصغى إلى دعائه . ولما سمع شكواه  
ودعائه ، وأصغى إلى عهد حبه ووفائه ، غسل يده من الطمع في  
نجاته ، واجتهد في إرضائه في كل الأمور ، وحمله في إيايه في محمل  
للطف وهودج العناية ، وقفل عائداً به إلى حى ليلاه .

## (١٨)

## منع ليلي من ملاقة المجنون

وقع مغنى الحجاز على قيثارته هذا اللحن الطيب النغاث فقال :  
 لما عاد المجنون من الكعبة أكثر شوقا مما كان ، حط رحله  
 بديار ليلي ، ووجد جبل الوصال متينا بينها ، وكثيراً ما تردد ذهاباً  
 وجيئة ، واتخذ التردد عليها مهنة له ، وظل دائم البحث عن وصالها  
 فحين كانت الشمس تبرز بقرنها ، كان يجرى حثيثاً فى جادة  
 الطلب ، مجدداً عهد الوفاء ، سالكا الطريق إلى بيت الحبيبة ،  
 تدار بينها الكأس المترعة بخمر الطرب طوال النهار حتى الليل .  
 وعندما ينشر الليل علم ظلمته الأسود ، ينسحب من هناك إلى وادى  
 الهموم . وكان مقامه ليلاً فى كوخ الأسى ، حيث كانت الدعة  
 عليه حراماً ؛ إذ بالرغم من غيبة الحبيبة عن ناظره ، كان يناجيها ،  
 يقول لها ويستمتع منها . ودام أمره على هذا النحور ردحا من الزمن ،  
 يسلم الروح فى اليوم مائة مرة .

وانتشرت الواقعة فى الأفواه ، وعلم بها أهل ليلي ، ولاكت  
 آل السوء من المرائين هذه القصة ، وبنوا فيما بينهم حديثها ، ثم  
 نقلوها إلى أم ليلي وأبيها . وذات ليلة أجلس والدان ابنتهما فى ركن  
 خلوة ، وتحادثا إليها فى حذب وحب حديثاً كله درر ، قائلين :  
 يا لإنسان العين وراحة القلب ، ليزل عنك أسى جراح القلب ،

ومهما بدا القدر مسدلا الستار على الأسرار ، فما أقساه في تمزيق الستار . وقد يبدأ في نسج السدل ، فلا يلبث أن يمزقه إرباً . وفي كل مساء يلتحف الليل ببرده كالمسك ، وإذا الفجر يضحك من تمزيقها . ولاتليث الزهرة المستورة بنقاب برعمها أن تفتح عنها نقابها أنسام الصباح . وتستتر الحبة تحت التراب ، ولا تبقى طويلا حتى يتمزق عنها ذلك السر . وما يتحدث الناس به عن قيس وعنك إنما قصدهم به لك سوء . فمن ذلك ما يلوكون من قصة منتشرة بينهم ، لا يريدون من ورائها غير تدنيس عرضك . قد سمع صبا السحر من البلب غناه هائما بالوردة في نقابها ، فر بأنفاسه عليها فزق سترها ، ثم أسلمها إلى الهجر . وقد صار حديثك — منذ انتشر — سمر الأوباش . فاقطعي دونه ألسنتهم ، ومزق أوراق ظنونهم . وحين يهي أس الحائط من الرطوبة فقد يتقوس إذا دامت حاله ، وإذا لم يعرض أمره على معارى صار أعلاه أسفله . فأطفئي النار على عتبة البيت قبل أن تصل بقاياها إلى السقف ؛ إذ حين تصل الشعلة إلى السقف لن يخدم أوراها مهما عملت الحيلة . فانتزعي قلبك من قيس عامر ، واقطعي أملك من صحبته . فليس من رأى قيس أن ينصرف عن بابك ، فأنت الكعبة وقيس جبل أبي قبيس فلا تلق إليه بالاليزاح عن كاهلك هذا العبء . ولا تحملى لقب صديق حقلك منه غبار العار . ولا تحمدي عاقبة حمل هذا العبء ، وانفضي أذيال هذا الغبار ، وابقى محجوبة بستر العفاف ، ولا تسمحي له

بدخول البيت مرة أخرى . فذات الخلد والنقاب برعمه ورد م  
تفتتح بعد ، طيبة المقام في طرف الحديقة ، غير ممتنة بالعرض في  
والميادين ؛ وأما حين تكشف عن وجهها النقاب ، فهي كوردة  
تفتحت ، فصارت غرض البلب في تغريدها بنعرة الشوق والعشق ،  
ثم تقطف من منبتها وتوضع في طاقة محاطة بأعواد العشب ، ويدار  
بها على المحال والميادين العامة ، فيذهب رواؤها وتذبل نضرتها .  
ومها طهرت أذيالك ، ولم ينلها سوء من طعنات حسادك ، فلماذا  
تصيرين غرضا للظنون ، ومضغة في الأفواه ؟ ومن خلصت رأسه  
من الأوجاع فقد برأ من الانحراف مزاجه . وللتخلص من آلام الرأس  
الذي يجلبه عليك عصبية القوم ، خير من لف الرأس بعصابة اتقاء  
صداع الرأس .

أعارت ليل أذنها لها ، وصدرها من نار حب قيس يغلى  
غليانا . فهي مع قيس على حرب ، ونفسها بدون قيس ضائعة الذرع  
وهما يتالان منه بكلامهما ، وهي تدعو له بروحها بينهما . وهما مع  
قيس كالماء والنار ، وهي معه كاللبن والشهد . وهما منصرفان إلى  
النصيحة بظاهر القول ، وهي في طوية فؤادها فريسة الحب .

وعندما أخذ قيس طريقه لزيارة من هامت بها روحه ، على  
عادته كل يوم ، التقى في الطريق بشيخة عجوز (١) كأنها حمار

---

(١) في الأغاني ج ٢ ص ٤٥ أنه التقى بجارية عسراء فتطير منها ، وفي النص  
الفارسي لا يعرف أكان من لقيه قيس رجلا أم جارية ، وقد حملنا المعنى الفارسى على  
أصل النص العربي .

مسن ، مقوس الظهر . وما أشد شبه وجهها لصلابته وخشونته  
بسلاحفة . وقد عرى رأسها من الشعر ، لكثرة ما انتابه من حوادث  
الدهر ، حتى غدا كاليقطينة ، ليست عليه عصابة جميلة . وجسمها  
عار من المنزر . لها شفتان عابستان ، وفها خال من الأسنان . ولها  
عين كالفتح وليس لها سواها ، فلاريب في أنها بعورها الدجال .  
ووقع في قلب قيس فأل سيء من هذه الصورة القبيحة ذات الشكل  
الخفيف ، وقال في نفسه : كيف يرجى ربح الخير لمن وقع نظره  
أول ما وقع على هذه الصورة ؟

وبينا المسكين مبطل الخاطر ، إذ به مع رفيقته شبيهه القمر على  
شرعة الحب . فأخبرته الخبر ، وشرحت له مسلك والديها المشين .  
وقالت له : انظر إلى ما يعترض طريقى من عقبات ، وأية طعنة  
تعرض لها فؤادى المصاب . فبقلي من هيامه بك جراح ، وفراقك  
طعنة في تلك الجراح . ويحترق قلبي على فراقك ليلة واحدة ، كما  
يحترق شمع المحفل ، فقل لى بربك كيف تكون الحال لو امتد به  
الفراق شهراً أو سنة ؟ ! . وفى مقدمك لزيارتى مائة بلاء ، وإذا  
لم يلحق بى أذى منها فأنا على وجل من أن ينالك بأذى امرؤ سوء .

وسمع الجنون قولها فزق ثيابه جزعا ، وغلت روحه من شدة  
وقع ما جرى . وأخذ يردد هذا اللحن : أى قلبي ! ارض بعد  
ذلك نفسك على الصبر ؛ وأنا عن كل شيء سوى الصبر ، ولا عليك  
إذا ردك الحبيب ، فلن يحين اليوم الذى يألف فيه قلبي سواه .



فالهجر عن رغبة من الحبيب هو الوصال ، بل هو من وصال أطيب  
ومن يرح به الشوق للقاء الحبيب بدون رضا منه ، فليس صادقا  
في دعوى العشق ، وليس بأهل لأن يحمل لقب العاشق . فالعاشق  
من تجرد عن نفسه ، وأقفل أمامها باب الشهوات ، وهو الذى  
يسلك وادى اليأس ، قد خلا من الغم ، وفرغ من السرور . فهو  
خلى من الأمل ، وفى أمن من الخوف . قد ركن بنفسه إلى التسليم .  
لا يعرفه أسى لما يقاسى من محن ، وهو بكل ما يحدث جدمسرور .

## (١٩)

## عقاب (١) والد ليلي لها حين علم بملقاتها المجنون

لما حرم المجنون زيارة النهار نزولا على حكم آسرة قلبه ، كان فريسة الهموم طول النهار حتى الليل . وكم بلغت روحه التراقى . فإذا جن المساء اتخذ من الليل لباسا ليذهب في طريق الطلب ، وجعل ديار الحبيب له مبيتاً ، وقر قراره هناك طوال الليل . وكلما وجد مجالا للحديث تحدث - كما تسمح الحال - عن تباريح فراق النهار وكم كان يحكى عما يلتب به صدره من الشوق ، وعلى الرغم مما كان يعاني من غصص الهجر ، كان طيب الخاطر بما يبذل من جهد .

و ذات ليلة كان هذان الحبيبان الطاهرا الذليل ، الطيبا السمعة في عالم العشق ، يتجاذبان مختليين أطراف الحديث ، فربهما حدث من أهل الحى ، من ذوى القلوب الميتة ، ومن يسيئون الظن بدلال العشق ، فرأى هذين البائسين الحريحي الفؤاد فى خلوتها ، فأخذه الحسد على طيب صحبتها ، وأساء بهما الظنون . وحققاً لا يأتى الحبيث بالطيب ، وكل حامللة تلد من جنسها . وينضج الإناء بما فيه إن خلا وإن خمرأ .

---

(١) قد أخذ المؤلف معنى هذا الفصل من قول قيس .

أمضوبة ليل على أن أزورها ومتخذة ذنباً لها أن ترانها ؟  
(شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٧٨ ، وتزيين الأسواق ص ٦٣ ) .

وَمَوْجِرُ الْقَوْلِ أَنْ مَا رَأَى مِنْ قَطْرَةٍ دَمَعٍ عَلَى خَدِّ لَيْلَى بَالِغٍ فِيهِ  
فَجَعَلَهُ سَيْلًا هَامِيًا . وَمَرَّ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي بِوَالِدِهَا عَلَى انْفِرَادٍ ، فَأَخَذَ  
يَقْصُ عَلَيْهِ مِنْ خَيَالِهِ ، وَأَشْعَلَ نَارَ الْغَضَبِ فِي هَشِيمِ حَصِيدِهِ .  
وَسَرَّعَانَ مَا أَكَلَتْ النَّارُ هَذَا الْحَصِيدَ ، فَأَقْبَلَ عَلَى لَيْلَى بِنَارِ غَضَبِهِ ،  
وَأَلْقَى عَلَى سِرِّ أَمْسِيَّاتِهَا مَعَ قَيْسٍ ضَوْءَ الْإِبَانَةِ . وَبَسَطَ إِلَيْهَا كَفَّ  
التَّأْدِيبِ ، وَصَفَعَ وَرْدَةَ خَدِّهَا صَفْعَةً آتَمَهَا ، فَصَارَ الْخَدُّ فِي لَوْنِ  
السَّنِيلِ الْوَفْرِ الَّذِي عَانَى قَسْوَةَ السَّيْلِ ؛ وَصَارَ أَزْرَقَ ذَلِكَ الْخَدُّ ، بَعْدَ  
أَنْ كَانَ فِي لَوْنِ الشَّقَائِقِ . وَنَالَهَا بِضَرْبَةِ عَصَا لَيْلَى عَلَى قَامَتِهَا ،  
فَتَرَأَى بِهَا مَا يَشْبَهُ الْوَرْدَ عَلَى قَامَةِ كَشَجَرَةِ الْوَرْدِ ، وَكَانَتْ لَيْلَى  
تَرْدُدُ فِي كُلِّ لَحْظَةِ التَّوْبَةِ ، وَهِيَ تَعْنِي التَّوْبَةَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ  
عَشَقِ قَيْسٍ . وَكَانَتْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ تَصْبِحُ مُنْتَحَبَةً ، لَا مِنْ الضَّرْبِ  
بَلْ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ . وَكَانَتْ جَفْوَتُهَا تَرِيْقُ دِمَاءً وَلَكِنْ مِنْ جَوَى  
الْبَعَادِ .

ثُمَّ حَلَفَ وَالِدُهَا بِجَلَالِ اللَّهِ الَّذِي تَخَرَّ مِنْ هَيْبَتِهِ الْأَفْلَاكُ مَجْدًا ،  
وَتَشَرَّقَ لَوَامِعُ كَمَالِهِ فِي يَدَائِعِ جِوَالِهِ ، مِنْ يَطْلُعُ الْمُقْرِبِينَ إِلَى حَضْرَتِهِ  
عَلَى أَسْرَارِ صِفَاتِ ذَاتِهِ : أَنَّى سَأَحْمِلُ شِكَاكِي أَمَامَ الْخَلِيفَةِ مِنْ تَطَاوُلِ  
قَيْسٍ ، وَمَا يَجْرِهِ عَلَى مِنْ ضَبِيقِ دَائِمٍ ، إِذْ يَلْجُ أَطْرَافُ حَرِيمِي  
صَبَاحًا حِينًا وَمَسَاءً حِينًا ، وَيَضِيعُ مِثَالُ الْأَشْرَاقِ مِنَ الْحَيْلِ وَالْكَيْدِ  
لِيَصِيدَ غَزَا إِلَى الْمَلِيحِ . فَإِذَا أَنْصَفَنِي الْخَلِيفَةُ فِيهَا ، وَإِلَّا فَلَنْ أَصْبِرَ عَلَى  
عَلَى الضَّمِيمِ ، وَسَأَتَصَدَّى لَهُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْلُكُهُ فَأَنْزَلُهُ ،

— ٩٠ —

فأحكم حوله حلقة بالسيف والرمح ، فاما ابتعد عن الطريق وإما  
خاطر بأجله .

وعلم المجنون بالحديث في نفس اليوم ، فاحترق فؤاده ،  
وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وبرحت به آلام المهجر وغصبه  
فامتنع عن البحث والطلب ، ومحا من لوح قلبه حروف الأمل  
فاعتزل ، وكف عن حث خطاه للذهاب إليها سرّاً أو علانية . ولم  
يفعل هذا خوفاً على نفسه ، بل حذار أن ينال حبيبته من جور  
والدها سواء .

## (٢٠)

### الجارة الأرملة (١)

كانت لليلي الفاتنة جارة ليست من قبيلتها ، مكلمة الفؤاد من  
كرب الاغتراب ، مهمومة الفكر لمحنها بالترمل ، فقد خلفها زوجها  
وحيدة مع يتيمين بقيا لها منه . فكانوا معاً غرباء مهجورين ،  
يقاسون آلام الجوع والعري . وعندما حرم المجنون كنز الوصال ،  
صار من الأرملة كالبحر يأوى إلى بومة ، واتخذ من منزلها الخزين  
مأوى يقوم فيه بخدمتها . وكان يرى هذين اليتيمين فيمسح بيد  
الشفقة على رأسيهما . وكان يضع سرّاً في أيديهما كل ما يقع في  
حوزته من فضة وذهب . وحين ضاع من يده ظل الحبيبة ،  
استعاض عنها بجارتها ، شأن الظمان المكروب في البادية حين يمس  
بشفتيه الرمال الندية ، طالباً في طراوتها عوضاً عن الماء حين يعز  
الماء وتشتد به الحمى ولهب القيظ .

وكان من دأبه ترك كل قيل وقال ، سوى السؤال عن آسرة  
فؤاده وحبيبة روحه . فكان يقول : كيف هي ؟ وما حالها ؟

---

(١) خبر تردد قيس على جارة ليلى الأرملة المذكور في تزوين الأسواق للأنطاكي  
ص ٥٧ - وفيه أن والد ليلى فطن للحيلة فنع الأرملة من استقبال قيس ، فأند قيس  
في ذلك :

أجارتنا إنا غريان ههنا وكل غريب للغريب نسيب  
تجرئى عنك خفية كاشح إذا قال شرأ أو أخيف ليب

ومن ذا الذى يتمتع بجبالها ؟ ومع من عقدت الوصال ؟ ومع من تمارس آيات الدلال ؟ أولها آخر مثل أم لا ؟ ولا زالت أنظارها إلى أم لا ؟ ومن ذا الذى وقع قلبه فى أحابيل غداثها ؟ ومن الذى يستقبل محراب جفونها ؟ وفى فم من تصب الشهب من شفاهها الياقوتية التى تخلط بسماها بالعتاب ؟ وبأذن من تعلق نظم اللؤلؤ من قولها ؟ إلى لمحترق شوقاً إليها حتى أحظى برؤية محياها . وإلى لصريع لوعة النأى ، فحتام أبقي خدن الفراق ؟ ويحظى غيرى بمجالستها ودلالها ، وبحسبي أنا أن أجلس بمنزلك كى أرى من بعيد ربها وطللها .

وما إن فرغ من قوله حتى خر على الأرض ، تهيم بدم الدموع عيناه همياناً استنفد به كل ما فيهما من قدرة على البكاء ؛ وخارت قواه ، فخرّ مغشياً عليه ، لا يشعر بشيء فى هذا العالم . فكانت الأرملة ترش على وجهه الماء ، وتغسل عن ناظريه كحُلّ الإغماء . وعندما كانت تصحو عيناه من الغفوة ، كان يشرع فى الانصراف . ولم يكن له هم غير هذا النوع من الطلب ، إذ كان محروماً من رؤية حبيبة روحه . ولكن القدر بحمته القاسية — وذاك دأبه دائماً — كان يهيء له طعنة أخرى ، ليثني زمامه عن المراد . فقد سعى الوشاة بليلى إلى أبيها ، وتكلموا فى أمر ذهابه ومجيئه ، ونسجوا حول ذلك الأقاصيص ؛ ثم انصرفوا ؛ فأخذ والد ليلى يغلى غيظاً ، ويصيح من فعلة الأرملة المنكرة ؛ وقال لها :

أيها الخسيسة الحقيرة ! ما هذه الدناءة ؟ وما هذا العمل الذميمة في حقى ؟ ! لماذا تفسحين الطريق فى دارك لمن شهزبى ، وسببى العار ، ورمى جامى شرفى بالأحجار ؟ وإذا طرق بابك مرة أخرى فأويته استرضاء له ، فاعلمى عن يقين أن هذا لن يبقى سرّاً .

وعلى سماع لومه ارتعدت المسكينة خوفاً شديداً فى الماء . وحين رأت المجنون فى المرة التالية مقبلاً من بعيد موله القلب صاحت به : أيها الابن السعيد الحمد ! أنت لا ترضى بأذى لمسكينة مثلى ، فلا تلج لى منزلاً ، ولا تضع قدمك من بعد فى ساحتى . ليلى صديق لك ، وهى على حبك مقيمة ، ولكن أباهاً يسرّ لك الضغينة . وهو أمير قبيلة ، وأنا مسكينة ؛ فأين أنا من صولته ؟ ولا أخشى على حياتى فحسب ، ولكن أخاف بخاصة عليك . فاحرص كذاك على ألا يلحقنى ضرر ، وقد أخبرتك بالصدق ، فحذار أن تريق دمك .

واضطرب المجنون لسماع هذا الحديث ، وهمس باكياً بهذا القول : ما هذا العمل أيها الأم الشفيق ؟ إن قلبى جم التآثر لإشفاقك على ؛ فكلانا غريب هذه الديار ، وليس أحداً بغريب عن الآخر . وماذا علينا إذا أسدى كل منا للآخر يداً ؟ وأى ملام فيما تقطر به قلوبنا من دم الأذى ؟ ! كل غريب عانى آلام الاغتراب فغريب عنه أذى الغرباء ، إذ هم فى كتاب الأنساب أقارب ، بعضهم من بعض ، وقد أثبتوا على صفحاته نسبهم ، فلا ينال من نسبهم بعد ذلك أن يمزقوا صفحات ذلك الكتاب . كنت فى منزلك أولى وجهى

شطر ليلي قانعا ، والآن وقد صرفت وجهك عني ، فإنني أدعو لك  
 دعاء منبعثاً من الروح والقلب . وهأنذا غريق في مستنقع الورطة ،  
 أحزم راحلتي عن دارك . وقد أقبلت مسروراً ، وهأنذا أعود  
 مهموماً . وهكذا أمضي لشأني ، ولكن لي عندك رجاء : إذا وقع  
 نظرك على ليلي أن تذكرها باغترابي ومحنة حرمانني ، وأن تُرددي  
 بلساني لها الدعاء ، وتتمني لها باسعي البقاء . وإن تحسب يوماً لي بغيتي  
 فقد حلت عقدتي ، وإلا فسأقضي من الفراق ، لأتعلق بأذيالها في  
 الدار الآخرة يوم التلاق .

قال هذه الطرفة وأخذ في السير ، مولياً وجهه بدون رفيق شطر  
 الصحراء .



## (٢١)

## شكوى والد ليلي إلى الخليفة (١)

قد منع والدُ ليلي الحليل الشأن ، الخطير في كل الأمور ،  
 المحنون الواله القلب من زيارة تلك الحسناء الفاتنة القسمات . وبوقوع  
 حادثة الأرملة حقاً عليه العمل بالقسم الذي كان قد عقده من قبل ،  
 وبمقتضاه نهض ليضع رحله بباب الخليفة ، وشرح — على ما هو  
 معهود — قصته كما هي ، قائلا : في قبيلة بني عامر شاب عنيد  
 الطبع ، نظام لقصائد الغزل ، متم خدّاع ، يمزق ستار السمعة  
 بنفاقه . وهو براء من مراسم الآداب ، قد أعطى نفسه لقب المحنون  
 خليع العذار ، صناع في توقييع ألحان الحب . وعندي درة يتيمة  
 كأنها لإحدى الحور ، محجوبة عن أنظار حوادث الزمان ، طيبة  
 النفس في ستر خدرها ، مسدل نقابها على فائن قسماتها . لم يروجهما  
 أحد سوى المرأة ، ولم يمس شعرها غير المشط . وما إن تكلم في  
 أمر عشقها هذا الشاب الطائش الرأي ، المفضوح أمره والممزق  
 ستره ، حتى تلقّف العالم صدى حديثه . فليس من مجتمع يخلو من  
 التغنى بهذه القصة . وإن اسمها المستسر كالروح في الجسم ، وهو  
 في صدرى بمنزلة الروح ، بعد أن تغنى به غزلا ، امتلأت به

---

(١) في الأغاني أن أهل ليل شكوا قيساً إلى الخليفة فأهدر دمه لم (ج ٢ ص ٢٦)

وقد أفاد الجاهلي من هذا الخبر في نظم هذا الفصل .

الأفواه في أرجاء الأرض . وقد أبلى هذا الشاب بذهابه ومجيئه عتبة بيتي ، يدخل الدار دون أن يطرق الباب ، فإذا كسرت رجله سعى على رأسه . فإن أحكمت رتاج الباب أقبل من السطح . وإذا طاردته صباحاً طرق زائراً ليلاً . وقد ضاقت به نفس الحار ذرعاً لألم ما عانى منه . ومن يسعفني غيرك ؟ فأنشدك الله أن تنقذني ، وتعطف برعايتي ، فتكتب كلمات في رسالة إلى أمير تلك الولاية ؛ ليتصرف بما يقضى به كرمه ، ويحرّرني من ربة هذا الأمر .

وعلم الخليفة تفصيل حاله . وأعطى الأمر على وفق ما طلب . وقرأ أمير الولاية أمر الخليفة ، فتوجه في ركبه إلى قيس وقومه ، ونشر بساط الغدالة ، ودعا رؤساء عامر . وجلس قيس مع أبيه ، وأحاط بها أعيان القبيلة في شكل حلقة . وأخرج الأمير منشور الخليفة وهذا مضمونه : على قيس المحنون ، الذي يفتخر بعشق ليلي ويشبب بها ، ألا يتجاوز حدود الإنصاف ، وليشتغل من الآن فصاعداً بحال نفسه . وليلزم ديار قومه ، ولا يتغن بالغزل في ليلي ، ولا يسوقن راحلته في طلبها . وليقصر خطوه عن السعي وراءها ، وليربط لسانه عن القيل والقال في عرضها ، وعليه ألا يعرّس في حرم دارها ، وألا يشترك في اجتماع مع بنى حبيها ، وألا ينشد أغنية على لسانها ، وألا ينسخ القصص حول أطلالها ، وألا يبني على عتبة بيته يقص على الحاميع قصتها ، وألا يضيوع الجاهل باحراق عود وجودها ، وألا يتغنى بها غناء الثمل ؛ وإذا وقع منه ما يخالف ذلك ،

فهو مستحق للهلاك . ومن يقتله عمداً ، ويرأى قارورة جسمه بالأحجار  
فليس عليه من دية ولا قصاص ، ولا يحكم عليه بعقاب عام أو خاص .  
ولما رأى القوم الواقعة ، وعلموا مضمون منشور الخليفة ،  
تطاولوا على قيس ، وصوبوا إليه — مفتحة عيونهم — نظرات  
الإشفاق ، وقالوا : قد سبرت غور الأمر بعد أن سمعت منشور  
الخليفة ، فليس بعد من مجال للكلام ، وليس من قول أسمى من  
هذه الأقوال ، فإن لم تستقم على هذه النصائح قدمك ، فدمك مثل  
مالك مباح . فارع جانب والديك ، وعد عن ذميت خلتك . فلو أن  
ليلي ووالدها قتلاك لطل دمك . ومالنا والصراع ؟ وما لنا والبحث  
عن النزاع والأحقاد ؟

وسمع المجنون هذه النصائح ، فصباح صبيحة العاشقين ، وهبت  
جفونه بهاطل من دم القلب ، انتشر على صفيحة وجهه الممتقع ،  
ووقع على أرض الذلة والهوان ، وغاص في هوة المهانة والحقار ،  
يتلوى تلوى السليم ، ويرعش كطائر يختصر . قد طار عقله من  
رأسه ، وذهبت روحه من جسمه ، وغاب عن نفسه كالمصروع .  
وحوله من الخلق حلقة محكمة ، قائمين عليه في مآتمه . ووقف  
الحاكم مكروباً وقفة القاتل . وأخذت صبيغة سلطانه لوناً آخر ،  
ووهن دستور حكومته ، واحى أثر منشور الخليفة . إذ سبيل سلطانه  
على ذوى العقول . وليس من تكليف على غير العقلاء ، وما المجنون  
بأهل للتشريع . وطال بقيس المقام على حاله ، صريعاً على الثرى ،

وجهه إلى الأرض . ولما أفاق من إغاءته ، جرى في هوسه إلى  
أنشودة ، وردّد بمضرب العشق على أوتار قيثارته هذه الألحان ،  
قائلا : نحن الكرام المسافرون في طريق العشق ، ونحن غرض  
لغارات جيوش العشق . وليس لنا أمر سوى العشق ، فما بنا خوف  
من الخليفة . وإن يد الخليفة لتقصّر عنا ، إذوصلنا إلى مكانة قيّد  
فيها العشق أقدامنا ، واستعصم حمامنا بعش يستعصى على باز الخليفة .  
نحن طير عشنا في سدرّة المنتهى ، ويسمو بنا موطننا عن الأرض ،  
ويطيب لنا فيه المقام . وأية قوة نحفل بها لتلك الشراك التي ينسجها  
العنكبوت !! أو حين تغزو روحى ، وتحتل مكانها من قلبي ،  
يقولون لى : سر في طريق الخليفة ! واترك من أجله تلك العروس  
الجلوة ! هيهات ! أى مكان لهذا الخيال ! فهجرى إياها محال ،  
وإني لأمحي فيها كما يمحي الظل في النور ، وبعيد عن التصور أن  
أكون بعيداً من نفسى .

## (٢٢)

## والد المجنون يخطب ليلى له (١)

ماشطةُ هذه القصة ، المدلة بنفسها ، هكذا جَلَّتْ عروسها  
قائلة :

خَرَّ قيس طريقاً تحت أقدام جيش المموم ، صامداً في مسيل  
البلاء كالجلبل ، مضطرباً تدور به الرأس في كل متجه ، كأنه  
دوامة إعصار في الصحراء تدور بها الريح . وظل نائياً عن حى ليلى  
وقلبه ملئ بالشوق إليها . وضاق به نفسه ، وأظلمت الدنيا في  
عينيه ، وصار على شفا الهلاك من النأى ، لا يقرله في مكان قرار ،  
بل كان دائم التنقل في كل لحظة من مكان إلى مكان . يقطع الأودية  
المحرقة الرمال ، تظأ قدماء نارها وشررها ، يرمى بظله على الرمال  
كأنه سماب ، وينشد القرار على حد السيف . وإذا جاز أن يحيا على  
الغم بائس ، فكيف له بالعيش على لظى الجمر وحد السيف ؟ !  
وأبنا ملح سواداً جرى إليه جرى الدمع إلى سواد عينيه ، مستخبراً  
منه عن ليلى ، مردداً اسمها وقلبه نهب الوجد . فإذا حدثه عنها بضع  
كلمات تكحل بتراب أقدامه ، وإلا سحب عنه أذياله ، وقطع معه  
سلك حديثه .

---

(١) لأجل خطبة ليلى لقيس ورفض والدها تزويجه إياها ، راجع الأغاني ، طبعة

دار الكتب المصرية ، ج ٢ ص ١٥ ، ٢١ .

وما إن استمرت حاله على هذا النهج ردحا من الزمن ، حتى قطع كل صلة له بالعقل ، واشتد به الشوق وشن الحرب على صبره وصار منكس العلم كالقلم ، فأعمل الحيلة ، وسلك شعاب الفكر . ثم سار شطر قبيلته ، باحثاً من بين رجالها عن رجل شبيه بالروح المشرقة الجوانب بمصباح العقل . وقال له : لى لديك أمل أرجو أن تسعى فى تحقيقه : أن تحمل منى إلى أبى السلام ، وأن تبلغه منى هذه الرسالة :

يا من بفضل رعايته نموت كنخلة ناضرة توج رأسها الثمر .  
 فطينة زهرتى من صنيع يدك ، ومضمون مافى قلبى من خط بنائك .  
 وما لى من شمائل إنما مردها إلى فضائلك ، وهى كل مالى من فضائل فأنت حلية بستان عيشى ، وأنت النور لسراج حياتى . وقد رأيت منك من البشائر ما تلا بعضها بعضاً . ولى فيك الآن رجاء : هو أن تأتبنى البشرى بتحقيق أمل آخر : لىلى مراد الروح وسعادتى الدائمة وقد صانوها فى خدرها عزيزة ، كأنما أرادوا أن يقوها الحسد من نظرائى . وهأنذا على شفا الهلاك من فراقها ، فقلبى اليوم مكوم وصدرى محترق ، إذ بسوى بابها لأيطيب لى مقام . وويل لى ثم ويل لى إن لم يتيسر لى ذلك المقام . وموجز القول : مل أن تستجيب لمطلبى ، وأن تنظر لما أنا فيه من آلام ، وأن تطبئى مما أعانى من سقام انصح والدها ألا يسر لى الضغينة ، فالعالم لا يعدل مثل هذا العناء . وليضع فى عنق طوق صنيعه . وليرفع رأسى بأن أكون له عبداً ،

وأصير له صهراً ، بل أقل خدمه شأناً . وقد قلت لى إن نسبك عال  
وينال من قدرك مصاهرته . وقد احترقت وجدا ؛ فما جدوى  
النسب ؟ وماذا وراء النسب غير محن الليل والنهار ؟ مل أن يبدو  
خيبي طيباً فى ناظريك ، وأن يعمر قلبك بحبي ، إذ لم يبد لى منك  
حتى الآن سوى الجسدة على ، كأن ليس لى لديك من حب  
أبوى . فاصنع للنصيحة القائلة : ارحم ترحم ؛ فتمنى منك العطف  
الذى تشمل به ذوى رحلك . كن رحيماً فالمرءة فى الرحمة ؛ وهذه  
روحى تكاد تزهق من ظلمك . وليست غايى من هذا سوى النجاة  
بنفسى ، فأى مكان لهوى النفس فى المقام الذى أنا فيه ؟ وإنما هذا  
ديدن طينتى الطاهرة ، وطبعى البرىء من الأدران . وقد احترقت  
زوحى بحب ليلى ، فجنى حصادى منها حرقة الروح . ولم أجده  
العاطفة لدى سواها ، ولذا لن أحول نظرى عنها . وأى بكاء تجود  
به عينا مثلى ، الفريد الطبع المبلبل الخاطر ! هذا ؛ ولم أضع أولاً  
ولا آخراً قدما فى جادة الطلب من أجل امرأة ، وحسبى أن أنظر  
لها أحيانا عن بعد ، وستنبوأ هى صدر عرش اللطف والدلائ ،  
كريمة مرفوعة الرأس ، وأما أنا فبقاى حيث تضع نعليها ، وسأكون  
دون قدميها مهيناً ذليلاً .

نهض هذا الصديق الكامل الخلق ، النزيه الشائل باكيا من  
محضر قيس ؛ وأخبر أشراف القبيلة بما تم من أمر والده . فانفقوا  
فيما بينهم ، وحلفوا على ما انفقوا عليه ، وتوجهوا بعد ذلك إلى أبيه

ونفثوا - على وجل - كتاب كروبه . ونقلوا كلمات قيس إلى أبيه ، وعرضوا عليه درر قوله . وعلم الأب إلى أية حال وصل الأمر بابنه ، فوضع يده على جبينه وبكى ، إذ انتهى سكين الأسى من قيس إلى العظم ، وبلغت المحنة بقلبه المدى . وقال الأب : كيف لي أن أطيب خاطرا بما يعانى من آلام ؟ ! وخير أن أثمر عن مساعد الجلد ، ناشداً الشفاء لما به من داء ، باذلاً من الجهد كل ما يستطيع ، واضعاً في كفه زمام المقصود ، سأجعله ثملاً من جام المراد .

وأعدت الرحال للذهاب ، ونهض معه من القبيلة جمع من الصحاب . وسلکوا جميعاً الطريق ، تهيم عيونهم من الدمع سيولا : الشيوخ في تضرع الشفاء ، والعقلاء في تواضع المطيعين ، حتى وصلوا إلى الوادى حيث ضربت خيمة ليلي ، فأقى والدها على ماله من مكانة معروفة ، ومد بساط الضيافة ، وجرى الخدم من كل الأطراف يجرون أبسطة الموائد . وقد أخذوا يتجاذبون على الطعام أطراف الحديث الطريف ، يحكون من القصص ما طابت به خواطرهم . وقد طرقت كل منهم باب حديث طريف ، كاشفاً القناع عما في ضميره ، وقاد من كل جانب جنينة ، موارياً في قوله عن القصد . وقالوا : من دأب هذه الدنيا أن اليد الواحدة لا تأتى منها على الصدى حتى تساعد اليد الأخرى ، وخبرنى كيف يكون الميزان ميزاناً ما لم تستقيم ذراعاها ؟ والحميل مقبور مادام فرداً ،



ومراته أن يصير ذا زوج . وألق بنظرة على البساتين ، فهما كانت  
الوردة جميلة فهي وحيدة معزولة ، فإذا انتظمت في سلك الحضرة ،  
صارت لعينيك أطيّب منظرآ .

ثم تسابقت ألسنتهم في الثناء على رب البيت : أنت من أقتلع  
جنود البخل ، وهذا الخي حتى بسخائك . وفي خدرك قمر مجلود ،  
إذ عين رعايتك عليه مبسوطة ، وهي نقية الجوهر كلؤلؤة لم تسلك ،  
عذراء كبر عمة لما تتفتح . وهي بدر ؛ ومن الأسى أن يتنقب وجه  
البدر بسحاب . فتعطف على ظلمة الليل ، واكشف السحاب عن  
وجه ذلك البدر . إنها فريدة ، وسنهدبها آخر إذا أردت أن تزوجها  
وقيس ذو فضل ، وهو مشتاق لأن يشرف إذ يصير من غلمانك .  
وهو في أصله ونسبه وحيد الدهر ، وفي فضله وأدبه مضرب الأمثال .  
فلا تحرمه هذا المراد ، وقد قدمناه لك صهرآ وابناً ، فلتقبله بحضرتك  
غلاما ، فتبدل علقم ريقة شهدآ . فهي من الخور وهو من الملائكة ،  
فجوهرها قدسى الخلقة . وغير محمود أن يظل ملك مهجوراً من  
الخور كأنه شيطان . وهما جوهرتان كلاهما للآخر كفاء وهما نجان  
يجذب كليهما لأخيه الشوق . ومكان الجوهريتين علبة واحدة ، ومقام  
النجمين برج واحد . وقد قلنا ما يقتضيه الوفاء والعطف ، على أنك  
— بعد — تعلمه .

## (٢٣)

## رفض والد ليلي خطبة قيس

كان والد ليلي غريباً عن منهج الإنسانية وتقاليدها ، قد ضل طريق المروعة ، كأنما ركب في جسمه عوضاً من قلبه حجر ، بل بينه وبين القلب آلاف الفراسخ . وهو مطمور المقام في بئر الغفلة ، سريع الخطى في ركوب طريق الضلالة ، غريق ظلمات دخيلته ، في لجة السواد من قدمه حتى ذؤابة رأسه ، ناء عن شرعه الإنصاف ، موقوف على جهل جبلته ، فارغ البال من معاني العشق والدلال ، مستريح الخاطر من التباريح التي تصهر الروح ، لم يعان للمحبة لوعة ، ولم يذق للمحن جرعة . فهو مشئت شمل الحبين ، وموهن عزم العاشقين . أى أن الراعى لأمر ليلي قد اضطرب به أمر ليلي . وعلى الرغم من أنه والدها نسبا ، فقد خرج من نطاق أبوته مسلكتاً . فليس بين جنبيه لها رحمة الأبوة ، وقد جلب عليها مئات المحن والغم . وعندما سمع رغبة قبيلة قيس ، لوى عن مرادهم عنانه ، وقطب حاجبيه ، وعقد مئات العقد غضباً على جبينه . وكيف يكون حال امرئ حين يقطب الحبين ، إذا كان هو لئ ابئسم جرح ببسمته القلوب !! لقد قال :

ياله من خيال غير صائب ، واهن كبيت العنكبوت ، لو طلب مني أولاً هذا الأمر ، لكان عين الصواب والعقل . أما اليوم فقد

امتلاً حيز الزمان بصدى هذه الأنشودة ، ولم تبق أذن في العالم لم  
تصنع لرجع هذه الألحان ، وغدت القصة حديث الأطفال ، ويردها  
القوم في عقر دارهم ، ويحتسى الداعرون في مجالسهم على أنغام  
ألحانها كئوس الخمر . ويحذر الناصحون الداعون لكريم الخلق من  
أمثال حالتنا ، وأى عارٍ آلم من هذا العار ؟ ! إن هذا لأسوأ ما يتصور  
حدوثه ، حاشا أن أقبل مثل هذا الرأي ، أو أن أنسج حيلة من نظم  
الشعر !! وها هي ذى النار تفيض بالأنوار على الجبل الشامخ في  
ليلة حالكة ، فكيف يستطيع إخفاؤها في الهشيم ؟ وكيف يستنغ  
ذوو الألباب مثل هذا الهوس ؟ وأنى للزجاجة التى تكسرت قطعاً على  
حجر أن تستعيد سيرتها بمحض الرغبة ؟ وكيف تعود سليمة على  
ما كانت عليه ؟ فإليكم عني ، وأقفلوا باب هذا الحديث . فقد  
تدنست أذيالي بهذا العار ، وثقل به كاهلي ، فلا تجلبوا على عاراً آخر  
بل دعوني وشأني . ولماذا آتى عملاً مشيناً ؟ وكيف أحمل — عبثاً —  
هذا العبء ؟ وكيف أعهد بعيني إلى لئيم وضع قذى الأشواك في  
عيني ؟ وكيف أقبل أن أسلم قلبي إلى من يصوب سهامه إلى قلبي ؟  
والذى شأنه تصويب السهام يستطيع تسديد الضربات وحمل أعلام  
التشهير . وإني لأشتكى الآن من ضربة واحدة ، فلا أستطيع أن  
أسلمه ظهري ليشوده بحمله . والسالك يمضي لغايته خفيف العبء .  
وليس هناك من عبء أثقل من العار . فلا تفدحوني ظالمين بهذا الحمل  
ولا تقصموا هذا الظهر المقوس .

وظل العامريون جالسين ، وامتألت آذانهم بهذا الرقص ؛ ثم فضوا أخيراً خاتم الصمت ، وأخذوا من جديد فى تنميق الكلام . وقالوا : ختام الحديث عن العار ؟ وإلام هذا الافتخار الذى لا مكان له ؟ فقيس ذو خلق كريم لم يتجاوز نطاقه ، ولم يتعد حدود الفضيلة . وحذار أن تعد الحب الذى أصيب به من عيوبه ! وليس من مجال للقليل والقال فى عشقه ، إذ العشق دليل على طهارة طينته ؛ فأنى لقلب لم تتطهر سريرته من الشهوات أن يحترق بنار العشق ؟ وليس من عار فى نقاء السريرة ، ولا منه غبار على محيا الفخار . وقد قلت : إن ليلى بما يحاك حولها من قصص قد جللت بالعار بين بنى عصرها وأى مجال للعار وقد أضحت من عشقها طيبة السمعة ذائعة الصيت ؟ وإنما دليل عفتها وجهاها وجده بها وحاله معها . فلو كانت المعشوقة غير جميلة لم يقع المعشوق فى طريقها ذليلاً . وإذا كان الحميل ولم يكن طاهر الحبيب ، كان فى وصاله مظنة عيب ، فسرعان ما تنطفئ نار حبه ويموت عشقه من قلب الهائم به . وهذا هو مجال الافتخار فأخبرنا عن العشق ماذا فيه من عار ؟ فهما قال قيس فى ليلى فهو شاهد على جمالها . ومهما كثر عدد الدلائل فلن يتجاوزوا مجال القول . ودلال الجمال ذو قلب ، فلا عيب فى دخيلته ولا عار عليه . وإنما يظل فى المقام المعوج ذلك المعوج المسلك الخبيث الطبع ، المريض الدخيلة .

وحينما سمع والد ليلى هذه العبارات الصائبة ، كان كالحاهل

الذى تؤله الحقيقة ، وانسد عليه طريق الجواب ، فأطلق للسانه العنان بالحلف ، وقال : قسما بالله الذى لا يخلو منه مكان ، ليس له مكان والعالم به معمور الجوانب . وليس العالم منه خالياً ، إذ هو ملء الأرواح . وكل ذرة - وإن لم تكن فارغة منه - ليس لها به علم ؛ قسما بالمرسلين من الأنبياء ، وهم الصف الأول من ثابتى الأقدام ، من مارسوا الحكمة ولقنوها ، وهم النافذة البصيرة ، مؤسسو بناء المعارف ، ومحطمو قوى أهل السوء ، ومن ينهض بهم كسيرو الجناح ، وتتحطم بهم شوكة أهل السوء ؛ وأقسم كذلك بأبناء الكعبة مسكناً ، الذين يطلقون من جعبة الكعبة سهام نظراتهم فإذا لكل سهم ألف فريسة خرجت فى مصيدها عما ألف من التدبير إذ هم جميعاً من صيد الحرم ، وتقصر مع ذلك دونهم ألسنة الأفكار لأن طلبتم بجهودكم شعرة واحدة من ليلى لقيس ، وأعطيتمنى ثمناً لها العالمين ، فلن تعودوا فى هذا الأمر بغير الخيبة والفشل . ولشعرة منها خير من ألف مجنون . فليدم له جنونه ببعده منها . وبحسب المجنون الذى يطلب منى الإنصاف ، طالباً ليلى مراداً له ، أن يسلم الروح ، وأن يبلغ غايته بموته من فراقها . فلا تعيدوا على هذا الكلام : ولا تنشدوا تحقيق أملىكم فى هذا الشأن .

وحين سمعوا منه هذا الجواب ، بسطوا ألسنتهم بما لا طائل تحته من العتاب ، ورجعوا إلى منزلهم بائسين ، وأرسلوا إلى قيس صديقه الوفى ، وأفضوا إليه بكل ما جرى ، وأسروا إليه بما تفتح من ورد

أقوالهم ، ففقد كل أمل في الوصال ، وفقد قلبه والراحة والقرار ،  
وأسال دماء الدموع ، ورقد في وحل دموعه ، مردداً هذا القول  
من صدر مليء بالحسرات :

ليلي الروح وأنا لها جسم ، فيارب بروحها المشرقة إلا قضيت  
على من قضى علينا بالفراق ؛ ألا فليكن له الموت في كل نفس من  
أنفاسه ، ولا تزدهر له حياة ؛ وهذا الإنسان الذي فطر قلبي ،  
وردني نائياً عن ديار حبيبي ، لتنفطر - مثل قلبي - روحه ،  
وليضل به السبيل في كل البلاد . وهذا الأمرد المتنمر الطبع الذي  
قدفني من بعيد بحجر الفراق ، لتمزق عقبا قدميه على الأحجار ،  
وليلتهم رأسه نمر . فقد رمى على قلبي ما يشبه الخاتم ، فضاقت به  
على أرجاء العالم الفسيح ، وهو الذي تركني من الدهر في مضيق  
هذا الدور ، فأصبحت كحجر في فص خاتم الجور ، ألا فلتزع  
أظافره من الأصابع ، ولتقصر يده عن حك ظهره الأجرب (١) .

---

(١) قارن هذه المعاني بما روى للمجنون من شعر يدعو به على والد ليلي ، ومنه :  
ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى شقيت ولا هنت من عيشك الخفضا  
شقيت كما أشقيتني وتركني أهي مع الهلاك لا أطمع الغمضا  
كأن فؤادي في محالب طائر إذا ذكرت ليل يشد بها قبضا  
كأن فجاء الأرض حلقة خاتم على ، فا تردد طولا ولا عرضاً  
انظر شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٢٩ - ١٣٠ والأغاني ج ٢  
ص ٢٩ - ٩٣ .

## (٢٤)

### نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلي

جامع لطائف هذه الصحائف ، قد أستخرج هذه النافجة من  
معدنها من فراء الظبية ، فقال :

ظل المحنون نائياً عن ليلي ، غريق الأنظار في دم الدموع ،  
وتبدلت حاله من اليأس من مطالعة جمالها سيرة أخرى . فشدد رحله  
بعيداً من الحى ، ونفض عن أردانه غبار موطنه . وصار مثل  
غزال الصحراء ، وحجل الوادى ، يضرب في صخر جبل  
اليأس ، صبوراً على كل أذى ، نفوراً من كل من يرى من الناس .  
ولم يكذبى له فوق بساط الغبراء غير الأنس بظباء الصحراء . وفى  
الليالى حين يذوق طيف الكرى ، كان يلتحف ستار الظلام ،  
ويجعل من عجيذة حمر الوحش وسادته ، ومن جلود الغزلان  
الجافة سريريه ، وكان ينهض كل صباح من نومه فيملاً الأرض  
دموعاً ، ويروى من دموعه التى تفيض من كنوس عينيه فى لون  
الورد ، وندماؤه فى مجلس شرايه الغزلان .

وذات يوم كان عارى الجسم كالقلم نحافة ، قد اتخذ من  
الرمال صفحة يخط عليها بإصبعه : ليلي ، ليلي . وفى ذاكرته  
ذؤابتها كلامين فى لون المسك ، وهو ينظر بعينية لإسيما حين  
يكتب اسمها ، وينثر فى عزلته من دم قلبه دموعاً سائلة من جفونه

تشبه النقط ، ينثرها على الرمل ليكل بها كتابة الاسم (١) .  
وبعد أن يكتب اسمها على الرمال ، ويخلطه برشح دم كبده المقروحة ،  
يمحوه بمسيل من أهدابه ، ويحن جنونه مما يعتلج بقلبه من آلام .  
ثم يأخذ من جديد في كتابة هذا الاسم الجميل ، ويطيب خاطراً  
بنصيبه من ذلك . هكذا كان يحيا ، وهكذا كان يقضى  
أيامه .

وفجأة انجلى غبار الطريق عن جميع أقبلوا ينشدون الراحة  
على مقربة منه ، واستووا على مرتفع ممتطين صهوات ركائبهم ؛  
مهنهم الصيد فى الجبال والوديان ، من بينهم من اسمه نوفل (٢) ،  
كالشمس وحيد دهره ، يده فى الجود كالبحر ، حلال العقد  
بينان كرمه ؛ كالشمس فى النهار ينثر الذهب نهاراً ، وكالفلك  
يفيض بالجواهر صباحاً . وهو فى النظم على النجم كالثرى ، وفى  
السجع لطيف الطبع مهيا . خبير بمجالس الأنس مع اللواتى ريق  
شفاههن خمر ، لطيف المحضر مع ذوى القلوب المكروبة  
ضيقاً . فى ميدان الوغى ليث ، وفى حسم أمور الملك سيف ،  
مرفوع الرأس بتاج الملك ، سنى بكنز نواله .

---

(١) يتخيل الشاعر أن قيساً حين كان يكتب اسم ليلي كان يرسم فى الوقت نفسه  
ذوائب شعرها الملتوية كأنها اللامات ، ثم يضع نقط الاسم من دم دموعه ؛ وفى الأغاني  
أن الحنون كثير ما كان يرى بخط يده على الرمال : الأغاني ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ .  
(٢) قارن ما يحكيه الشاعر عن توسط نوفل فى أمر قيس بما ورد فى الأغاني ،  
طبعة دار الكتب ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .



وهبط نوفل من فوق جواد كريم ، كما تنفصل عن الغصن  
 الشجرة ؛ واستوى قائماً أمام المحنون ، وفتح معه أبواب الحديث .  
 وقرأ الاسم الذى كان لمحنون يكتبه ويتلوه ، فكشف عن مكتون  
 سره ، وعلم أنه اسم عشيقته ذات الدلال . وعندما رأى ماهو عليه  
 من حداد وأسى ، وأبصر دموعه وآهاته ، أدركته الرحمة  
 بحاله ، فبكى إشفاقاً وقال : أيها الجالس على عرش مملكة  
 الصحراء ، وأيها الكاتب وصفحاته رمال الصحراء : كم  
 تسرف فى استنابات بذور الخيال ! وكم تتبع طريق الهوس حين تخط  
 الاسم على الرمال . فارجع عن وسوسة هذا الخيال ، واربأ  
 بنفسك عن تعذيبها وراء محال . إذا لا ينجح على الخيال أمر ،  
 وما عن طريقه يأتيك معانقاً الحبيب . ولن يسعى إليك طبعاً أملك ،  
 بتلك الكلمة التى تخطها بإصبعك ؛ وهذه الرمال التى تصبغها  
 بالدم لن تستخرج منها جوهرة ، بل حجراً . فالبث معى قليلا ،  
 واصحبني لتكون رفيق وجليسى فى منزلى . ودع عنك ماأنت  
 عليه من عرى ، وألبس حلة رجل كريم . ولم يطب لك - بعد -  
 طعام ولا نوم ، فتم وأطعم مثل الآخرين ، ليعود لك مأوك  
 ورونقك ، وتستقيم قناتك بعد تقوس ، فتصير أهلاً لوصال  
 ذلك البدر ، ولائقاً بصحبة طلبة الفؤاد . وكأنك الآن أخ الجن ،  
 لا طعام ولا نوم ، فكيف أجعل منك قريباً لإحدى الحور ؟ !  
 يمينا بمن هو دائماً قسم العقلاء ، إذا أستمعت لقولى فأنا  
 عند كلمتى لك . وسأبذل فى الأمر جهدى مااستطعت ، حتى

يطيب ريقك بذلك الشهد ، فأجعل من ساعدك حائل لهذه  
الحسنة .

وإذا صعب أمر كان المسعى إليه إما بالبكاء توسلا ، وإما  
بالذهب ، وإما بالقوة (١) . ولا يليق التوسل بالبكاء من ذوى  
الكرامة ، فهو غير جميل بمثلك . ومهما أنفق من ذهب فسايدله  
حتى أسعدك حالا . وإذا لم يستقم الأمر بالذهب فلا عليك ،  
إذ هذا مجال قوى السواعد . وسأحل العقدة التى تقف فى  
طريقك بطرف السنان ، فإذا كلت رعوس السنان بترتها بحد  
السيف .

وسمع المجنون من كلام نوفل حديث السحر ، فرق به من  
خيالات الجنون ، وآب إلى طريق الرشد ، وحمد مسلك العقل .  
وأضحى مع الآخرين رفيق نوفل فى الطريق ، حتى وصل نعيمه ،  
فغسل جسمه ، وحلق شعره ، وارثدى حلة ، وتعطر . فكان  
شبيها بنبت السوسن ينبعث الطيب ، وقد نفص عنه الغبار . ولما  
وضع عمامته كما يفعل العرب ، تبدى كغصن متوج بزهرة  
السوسن . وكان نوفل يرتجل معه الشعر ، يحثان الخطى فى سرور .  
وكلما وجد نوفل تعلقة ، ردد ألقانه بأغنية جديدة ؛ ثملا بالضرب

---

(١) فى الأصل جناس فى الألفاظ لا يمكن ترجمته بين الكلمات الفارسية الثلاث :  
زار (انتخاب) وزر (ذهب) وزور (قوة) وإليك بيت الشعر الفارسى :  
كارى . كه زساخن بود دور سازند بزارى أوزر وزور

فى عرض الصحراء . وقد بالغ فى إرضاء قيس ، فكان حيناً  
يساجله الغزل والنسيب ، وحيناً يتحدث معه عن الحبيب . وما إن  
مر بعض الوقت على هذا النسق ، حتى صار المجنون أكثر رونقاً  
من سالف عهده ، فعاد لقدمه رواؤه ، وصار نضراً كورق  
الورد المونق . وكان فى لحيته القصيرة ومنطقه الفصيح ينثر عذب  
القول فى مجالس نوفل . تتألق وجنتاه فى اختيال الطاووس ، تغار  
منهما شقائق الربيع . وقد بدأ المجنون فى لطف ملك . قد أضاء  
جسمه شعاع الروح . وصار قيس — المجنون بعد أن فارق الاضطراب  
رأسه — متزناً رصيناً . وموجز القول أنه أصبح فى حالة هو بها  
أهل لليلى . وصار كما تشتهى ليلى ، بحيث تعزف عن الخمر بخمر  
حبه . وأبصر نوفل هذا التطور ، وقاده بحكمته إلى الطريق ، حتى  
وصل إلى حى ليلى ، وأرسل إلى والدها قولاً فيه طلاوة ،  
فأقبل الوالد للقائه بصحبته أعيان قبيلته ، فاحتفى به نوفل كل  
الاحتفاء ، وأنزله من نفسه أكرم منزلة . وسنحت له الفرصة  
للإكلام حين جلسوا على الموائد ، ومد الخوان . فأفاضوا فى  
مئات القصص بين قديم وحديث . ثم تخلص من ذلك إلى الغرض  
فقال : إن قيساً الطيب الصلبة منا بمنزلة الابن ؛ وهو خير من  
عنهم يتحدث ، وفيه كل الفضائل التى عنها تبحث . وأريد أن  
توليه شرفاً يسمويه درجة أخرى بن ذوى الفضل . فاشمله بنظرك ،  
وانغمره بعطفك ، ومد له بسبب إلى أصلك . وانظر ماتريد من مال  
وذهب ، فما تشاء منهما قت على قدمى أمامك ، وصبيته تحت  
( ٨٢ - ليل والمجنون )

قديمك . ونكون معاً حلفاء أوداء ، فى صفاء قلوب على دين الولاء  
وعقب على قوله مرة تلو أخرى ذلك المر الجواب الخشن الخطاب .  
وكلما قدم نوفل سبباً ، قدم والد ليلي تعلقة عنه . وحاوره نوفل  
فى إجابته وغلبت حجته ، وكان الآخر يرد عليه . ويستدرك على  
قوله ؛ وغلى صدر نوفل غضباً لفرط ما أبدى الوالد من تعلات ؛  
وضرب نوفل على صدره حاداً فى قوله كالصمصام ، وتوعد بلغة  
السيف قائلاً :

أيها الهاذى فى قوله ! ادع حادى ناقتك ليعود بك إلى صحرائك ،  
فإن أشفق بسبب خطلك أن تعود راجلاً بلا إبل . انهض وليأخذك  
الوجل على حالك ، ولتشغل بالك بالخوف على آلك ، إذ سأزحف  
عليكم بحيش كنوازل الدهر يبينكم بالسوء ؛ ليس بالبحر ،  
ولكنه بحر فى إثارة الرعب ، أمواجه السيوف والخناجر  
البتارة . وفى هذا البحر سيغرق قومك فى الدماء من أخمص قدمهم  
حتى مفرق الرأس ، أو فهينى تلك الجوهرة النقية ، يكن لك على  
ألف منة ، وترفع رأسى بذلك حتى عنان السماء ؛ وسأولم لعرسها  
كالعيد ، وتأتى لها يوم الزفاف جموع الحور من الغيسد ، تسعى  
على بساطها تقبلها ؛

وأجابه والد ليلي : أيها الملك ! أصرف عنانك عن هذا  
الطريق ، فهما كنا غير ضارين بالحرب ، فلن نضيق بها ذرعاً  
إلى هذا الحد ، وفى اليوم الذى تدق فيه طببل الوغى ،

وتنفخ في النفير ، سنخوضها مسرعين في الخطى . فإذا أحرزنا عليك النصر كان ذلك اليوم عيداً مجدوداً ، وتخلصنا من عذاب قبضتك ، ونجونا من أهوال عقابك . وإذا واتاك الظفر ، ونكس منا علم النصر ، فسأنطلق كالبرق صوب منزلى ، وأشق الصدر من جوهرتى النقية بضربة سيف ، وأودعها الثرى مضرجة بدمائها ، وأوارى جسم هذه العروس مقرها من القبر ، مكفنة في الدماء ، ومجلوة إلى الضريح ؛ وأعيش في دار المموم مستريحاً من سمعة العروس وعار الصهر ، ولمواراة هذه الحساء التراب خير من وقوعها بين يدى ملوث الشائل . ولإيداع هذه الجوهرة تحت حجر القبر خير من هبوب رائحة الدنس من دنى الخلق .

ولما وعى نوفل مأفضى والد ليلى به أخيراً من حديث أوماً بطرفه إلى قيس : أن ألق بسمعك .

وأبان قيس عن خلقه الفاضل ، وأبدى من الشجاعة في المعركة بينهما ، وافترقه عن صحر الحديث ، فقال : ياذا الحديث السوء ! يامنكر الصوت ! إن الريح التى تهب من تحت أقدام الجهل تثير الغبار في ناظرة العقل . والكلمة التى يخطها غير العالم بها فى الكتاب تسود وجه كاتبها . ونوفل لا يتكلم عن جهل ، وإنما يرسل النكتة الحلوة السهلة . وكان مايقوله لب لاقر فيه ، وكل مايتلفظ به بديع طيب ؛ فلا تطو صحائف حكمة ، ولا تن صفحة القلب عن صائب درسه ، فهو فيض نسيم اللطف ، وليس

هو بملك مغرظ . والحكمة التي تخرج من قلب ملك نور ينعكس من دارة القمر ؛ فن نأى عن ذلك النور بقى مطمئناً في الديجور .  
وليلي عذب ماء حياتي ، وأنا المحترق الظامء الروح . فهلا أقبلت بوجهها على الظامء إلى ماء وصلها ! فإن في تراب قدمها قوة لمن أثقلت رءوسهم الآلام . وليلي وردة على شط ينبوع ، وحسبي من الوردة ماتنفج من عطر . ألا فليبق القلب كالبيتاني لتلك الوردة ، يحاذر أن تخرج من حديقها . وليلي في مقام الروح مصباح ، ولى من هذا المصباح حرقة الصدر ، ألا فلتدم لى منه يارب حرقة الآلام .

وعلى نطق اسم ليلي تجهمت وجوه أولئك الذين أعماهم الحسد ، فأطلقوا في وجهه صيحة قائلين : أيها الغر : علق لسانك في سقف حلقك عن نطق هذا الاسم ، فسبيله غير ميسرة لك ، فأى جدوى ، إذن ، لك منه ؟ فلتقطع دونه لسانك ، ولا تهذ بالنطق به مرة أخرى . ولا تدنسه بنشره بين الناس ، وإذا لم تمسك عنه بمنطقك لأنك فقدت العقل ، فسئطع منك اللسان ونفصل بين روحك والجسد .

وانقطع أمل الجنون على سماع هذه الكلمات ، فتوجه باكياً إلى نوفل قائلاً : يامرهم الروح ودواء الألم ! أطلب لى من هؤلاء العنيدين أن يتركوا ذيدنهم في حملتهم على ريثما يضع الطائر منقاره في ماء النهر مرة أخرى ، فيفتحوا لى باب الرحمة كى أرى

محيا ذلك الحبيب ، وأنظر إليه مرة من بعيد ، ويكون لى مما يعلق  
 تخيلى من تلك النظرة ذخيرتى طوال العمر فى ليلالى الخالكة ،  
 وأياى السود .

فقالوا له : دع هذا الخيال ، ولا تتعلق بأسباب الحال ،  
 وإن رؤيتك إياها ، أيها المخبول ، لكالماء لمن أصيب بالكلب .  
 فانهض وأصرف نفسك عن هذا المطلب ، ودع من رؤيته رهينة  
 بموتك . وإذا ظلمت على حياتك قرين الأسى فت فراقاً فى مقام  
 أساك .

فلم يصل المحنون إلى غايته بعون الصديق . ولم يبلغ أمله  
 مدى حياته . وحينذاك ، قال لنوفل : أيها الجائر والذى وعده  
 سراب كله . قد قلت لى إن آلام قلبى إلى ذهاب ، قلت ولم تف  
 بما قلت ، ولكن لا عليك ! فهذا خطي ، إذ هذا النور يفيض  
 على من هو غير أعمى . قد رفع نحسى علما ، وانتكس علم سعدك .  
 وأين أنا من قصص أرباب العشق ؟ وخير لى - إذ لم تنجح حيلتك -  
 حياة الجبل والمحنون .

وما إن نطق بهذه الكلمات حتى نهض من مكانه ، راقصاً  
 على توقيع كلامه ، ورمى بعامته كالزهرة ، كما يرمى الغصن  
 بأوراقه فى الحريف ، فاقد الأمل ، تعتلج بالألم دخيلة قلبه ،  
 يضرب رأسه بقبضة يده ، كأنه شجرة ساج ، يشرب بكاء الخلق  
 وهو يحثو على رأسه التراب . والناس من حوله يضربون بالأحجار

الصدور ، عجز بيده صدره الضائق . وقد استخفه الطرب ،  
فمضى هامساً بهذا اللحن :

ليلي على عرش الطرب والدلال ، والمجنون أسير أسى الأشواق .  
وليلي عنانها بيد الأبعاد ، وقيس جلساؤه همر الوحش . ليلي مع  
هذا وذاك طلقة الحيا ، والمجنون يعدو في الصحراء مع  
الطباء . وليلي مطمئنة الدار بين قومها ، والمجنون في شعاب الجبال  
مع الغزلان . وليلي تشنف آذانها بالألحان ، والمجنون لا يصغي  
إلا لصفير الأفاعي والنسور . وليلي قر داره قصرها ، والمجنون  
سيمين كهوف الأسى . حقاً لكل أمرىء شأن ، ولكل أسد  
مرعى ، والحظ لا يشتري بدرهم ، وليوان الجنان لا يجلب  
انتزاعاً . والخير أن نجيا على سوء العيش وطيبه ، ولكل أمرىء  
ما قسم له . ومادام الورد قد أعوز ، فالنقنع بالشوك ، ولننعمش في  
الأشواك حتى الموت .



(٢٥)

## إعصار في الصحراء

مطلق ريحان حريم هذا البستان قد نشر هذا النسيم الطيب الروح فقال : إن ذلك الشبيه بشقائق النعمان ، المكتوى الفؤاد الولهان ، حين آب من صحبة نوفل وصحبه ، صار طليقاً من كل المجتمعات ، هائماً على وجهه في الجبال والوديان . فأينما كان يلمح من بعيد إنساناً كان يهرب منه ، شأن الأطباء وحمير الوحش .

و ذات يوم زاد به الحال (١) والوجد ، وكان في بعض جبال نجد . فامتطى صخرة على قمة الجبل ، ونظر في كل الجهات ، توقعت نظرة منه على ديار ليلي ، فجرى دمه على الجبل سيلا ، وقد استقر شوقه في دخيلته كالجبل ، وتحطمت قارورة صبره تحطياً . وكان يتوق إلى رؤية أمرىء يقبل من ديارها ، ليحمل إلى قلبه القرار ، ويشرح له من أهوالها وأحوالها ، ويصف له ربوعها وأطلالها . وفجأة انجلى غبار الطريق عن سواد رأى فيه عمود إعصار ، وقد حمل من تراب أرض الحبيب ، فانعقد على وجهه من ذلك الغبار نقاب ، وخر ساجداً على الأرض ، وانطلق لسانه بهذا القول مرجحاً بمقدمه : أي هذا الذي تدور على

---

(١) الحال ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل كحزن أو خوف ، وللوجد معان كثيرة عند الصوفية ، منها أنه لب متأجج من نار الحب ينبعث منه لطلب الفضائل الخلقية والكالات الإنسية : أنظر الكشخانوى : جامع الأصول ص ٨٥ ، ٢٠٨

- ١٢٠ -

تنفسك في رقصة الصوفى ، تقطع طريقك في غير عسر ، تجوب  
السهول والوديان ، لاتقر لحظتين في مكان ؛ سواء أمام أقدامك  
الهضاب والسهول ، تنطلق فيها سهل المسير ، وتلتوى على نفسك  
كالتنين ولست بتنين ، ورأسك في السماء كالتنين ؛ تجول في  
الهواء جولانا . قائم كنخلة تتطاول على القصور ، ولا يرى لك  
من فروع ولا جذور . ولو كنت قد نبت في بستان ، لدنا  
جناك وانتشرت منك الأوراق ؛ ومحال أن يكون طريقك بدون  
غبار ، أو يقر لك في مكان قرار : سامق الأشجار منك صرعى ،  
ترمى بها من عل ، على حين ترفع العثير والأشواك ؛ تلتوى  
كالدخان ، وأى دخان ! هو دخان من سواد وزرقة . أجدت  
نقوش مبنك وسقفك ، كأنك عمود في قصر إرم . تبدو الدنيا بك  
سفينة أنت لها شراع ، أو كأنك صاريها ذو الشراع الدائم  
الدوران ، تقلب على ذلك المسكن سافله ، وتدمر مثاث الألوف  
من البيادر .

قلبي اليوم جذلان ، وصدرى منشرح بمقدمك خير مقدم .  
قد اتجه بك دليلك صوبى ، فروحى فدى لثراب أقدامك . مررت  
بى كرمأ ، ورددت إلى ما عذب عنى من سكىنة . قد تزود رحلك  
من ديار الحبيب ، ولذا أشم منك طيب المسك التتارى . ومن  
ذلك التراب عطر محملك ، كالمسك القطيف من جلود الغزلان .  
فصب على مفرق من غبار أعتاب الحبيب ، وضع منه كحلا  
لعيني الرطبتين بالدموع . ينفع بالمسك ماتحمل من أشواك وعثير

فهى ربحان رطب وعود ند جاف . وبذلك العود تتقد عالياً  
نارى ، ويستروح قلبى منها الرقية . أفض إلى بكل مالديك . وقل  
لى من أخبار ذلك العالم الذى منه نجمت . وكيف حال قلبها بدونى ؟  
أما أنا فقلبى بدونها يدى حزناً ، ولم يعبر النسيان ذكرها ، ولم  
أفتر عن ترديد اسمها . مع أنى لم أمر قط ببالها ، ولم يتحرك  
بحديثى لسانها . وهيات ! ! أى مكان لهذا السؤال ؟ ! إني  
متعلق من هوسى بمحال . وكيف يتوجع ذو عرش من أجل  
سائل ؟ وكيف يلتقى القمر بالا إلى السها ؟ خبرنى من الذى يرافق فى  
الليل كلابها ، فيمرغ رأسه على أعتابها ؟ — وبينما هى تردد على  
فراشها طيب الألحان ، أظل على سرير الهموم أتوسد الأحجار !  
وهى تسلم جنبها إلى لين المضجع ، وأنا طريح الغراء ، ذليل الوجه  
على الثرى ! — وينبلج الصبح فتغسل وجهها كالشقائق بماء  
الورد ؛ فن هو أول ساع إليها ؟ ومن الذى يفتح ناظره على رؤية  
محياتها ؟ ومن الذى أخذ مكانى على دمنها باكياً على الطلل ؟  
ومن الذى يدور من بعيد حول نخيمها ليظفر برؤيتها ؟ ومن  
ذا يتمتع مسروراً بدلالها ؟ ومن ذا يبكى بين المتوهلين فى عشقها ؟  
ومن الذى يسرع إلى التقاط شهد الحديث حين تنثره من شفاهها ؟  
ومن الذى تلفحه أحياناً نار الشوق من بعادها ؟ ومن الذى يحث  
خطاه فى طريق الطلب ؟ ومن الذى يضع فى ركاب الجهد قدمه  
نهاراً ؟ ومن الذى يبق من مسيل جفونه من أجلها فى وحل ؟  
ومن يمضى أمسياته بدارها ؟ ومن الذى يقيم دون أقدامها ؟ أمجلوة

على كل الوجوه محجوبة غنى ! قريبة من القوم وأنا منها ناء !  
وأنت ريح خفيف المسير وأنا التراب ، وأنت صرصر وأنا العشب  
الخاف ؛ فحين تأخذ طريقك إليها ، احملني بيد لطفك إلى منزلها  
مع ماتحمل من غبار ، وارفعني كالعشب الخاف إلى رأس  
طريقها ، لأرى مرة أخرى جميل مجيها . وإن لم أكن لذلك  
أهلاً ، فدعني غريباً مريضاً ؛ ولكن اشرح لها سقامي ،  
وردد على سمعها ماترى من آهاتي ، إذ أمل روحي أن ترى هي  
مأثر من دموع الدم .

ولا يقع في ظنك أني منذ تأيتُ عنك كنتُ صبوراً ، فقد  
تمزق إربا قلبي ، ولكن ماذا أفعل وما الحيلة ؟ ! وكل  
جسم بعيد من روحه مكتوي بحرقه الفراق ، وليست وحدته عن  
صبر ، وبوده ألا يفترق من روحه ، لكن ماذا يفعل ، وماذا  
يستطيع ؟ ! قد تعلمت كل حيلة ، ولكن لم أفد لا من صلح  
ولا من حرب .

وحين لايسعف القدر ، لاجدوى من جهد شاب ولا من  
حنكة شيخ . فأننا من الآن نهب لواعج الأسى ، أسقط إعياء في  
المساء فاقد القوى ، وأقوم بالأسمار بين الموت والحياة . وأعلم  
أنك مثلي تعانين ، وأن كل حيلة في أمري خارجة عن طوقك .  
ولكن لي عليك إذا بلغ أجلى منتهاه ، على قدم جبل أو جانب  
من غاز ، أن تذكريني بعد مماتي .

هكذا أعرب عن آلامه . وحين طوى كوكب النهار  
أطناب خيمته الذهبية ، وضربت القبة السماوية سرادقها الأسود  
كخيمة أعرابي ، وضع المسكين رأسه على حجر ، وامد على  
سرير من الحسل ، فاقد الشعور ، لم تنهأ عينه بنوم طوال الليل ،  
ولكنه بقي فاقد الوعي ؛ وهكذا كان ينام (١) .

---

(١) يقع أحياناً في كلام المجنون تكرار لنفس المعاني ، وأحياناً ما يقع في اعتقاد  
التناقض في خواطره ، ولعل المؤلف يقصد بذلك إلى تصويره بصورة من من اختلطت  
خواطره لاختلاط فكره ، وقد نقلنا النص على ما هو عليه كما تقضى أمانة الترجمة .  
هذا ؛ والمجنون في نومه لا يندش الراحة ، ولكنه مشغول بما يعاني من وجد . والفرق  
بين نومه ويقظته أنه في نومه يفقد الشعور والوعي بما حوله ، ولكن وعيه الباطني يظل  
غير مفقود . قارن هذا بما يحكيه الجاني عن نوم بعض الصوفية الذين بلغوا في قريهم  
من الله درجة قصر عنها سواهم : انظر الجاني : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية  
بجامعة القاهرة ، ورقة ٢٠٤ .

(٢٦)

## الظبية (١)

عندما كسا الصبحُ وجه الأرض من خيوط الغزالة (٢) غلالة من الذهب ، ونفض عن الفلك ينبوع قار الدجنة ، فاسترسلت من قرن الشمس قطرات النور حلوة وضاعة ، حينذاك فتحت المجنون ناظريه من غيبوبة نومه على مابه من بلاء ، وخف نسيطاً من فوق الأشواك والأحجار ، حتى لكأنه شرارة انبجست من الصخر . وهبط من الجبل إلى السهل ، ثم أخذ يدور في السهل كالإعصار ، ينظر إلى قطعان الحيوان ، مرسلًا من صدره توجعات الأسيان . وكان يحسد الطير والوحش (٣) ، وترسل عيناه الدموع قائلاً في نفسه : لكل مفارق خلاص من فرقته ، أما أنا فأسير لاخلص لي . ولكل حي رفيق هو أنيس وحدته ، فهو على قرار في طعامه ونومه ، ماعداى ، فأنا بمعزل من الأليف ، ضال في وادى الفراق ، لا طعام لي ولا نوم . وإن الجبل لينوء بما أحمل من عبء . وبينهما ينقل على هذا التخيل الخطو ، إذ به

(١) في أخبار المجنون أنه كثيراً ما كان يفدى الظباء حين تقع في أشراك الصيد ،

راجع مثلاً : الأغاني طبعة دار الكتب المصرية ، ص ٧٣-٧٤ ، ٨١-٨٢ .

(٢) الغزالة : الشمس وهي نفس الكلمة في النص الفارسي .

(٣) المعنى هنا مأخوذ من قول أبي صخر الهذلي :

لقد تركتني أحسد الوحوش أن أرى ألقين منها لا يروعهما الذعر

(ديوان الحماسة ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ج ٢ ص ٦١) .

يرى من بعيد شبكة نصبت حيث يسرح الغزلان ، وقد  
وقع في ربقها غزالة . وأصلت الصياد السفاك على رأسها سيفاً  
حاداً ذا بريق كبير عينية . والغزالة ترتعد جزعاً أن يسرع  
الصياد بفصل رأسها عن الجسد . فأطلق المجنون على رؤيتها صيحة ،  
ليأخذ على القاتل حتى يصل إليه . ثم أخذ بيده وأهاب  
به ، قائلاً : الانصاف والعدالة من جورك ، فاتق الله إن كنت  
ترجو منه خلافاً ، وكف يدك عنها ابتغاء مرضاته . واحملها  
بيد اللطف ، وأبعد سيفك عن عنقها وقيدك من ساقها .  
فساقها قلم خير زائى ينشق رأسه حين تعدو ، وهى تخط على  
صفحة الأرض بأربعة أقلام . وما من شك فى أن هناك سبعة أقلام  
وقليل ما بين الأربعة والسبعة . فلا تكسر هذه الأقلام بقيد  
الإسار ، فإنه لا يجوز عمداً تحطيم الأقلام . ولا يليق بحال أن  
يسام مثل هذا مقود العسف . فهذا ظلم لدى العقول النيرة ،  
فاجعل من قولى حلية بلعيد المعرفة . واصرف عنانك عن هذه  
المظلمة ، وخلص عنقك من ربة العهدة . وانظر إليها إن كنت  
ذا عينين ، وتأملها من رأسها إلى القدم . فمن الجور أن يطفأ النور  
من عينيها اللتين غنيتا بالكحل الإلهى عن كحل المروء ، فتحرمها  
ذلك النور . أترى ذلك الجيد الحالى على عطله ، الذى لم يمسه  
سهم صائد ، أليس أهلاً لقلائد الذهب ؟ فيا ذا القلب الفولاذى !  
أى مكان فيه للسيف ! وهذا الصدر النقى كصفحة من القصة ،

شبيه قلبي ، ليس أهلاً أن ينفطر ! وإن صدرها لطاهر الطوية  
من ضغائن الناس ، فأى ضغينة لها في صدرك ؟ ! فخذ  
مكانك إلى جانبها في لطف ، وحررها من يد عسفك . والخنجر  
قلم في قبضتك ، فلا تكتب به على لوح الظهر ، ولا تحمد القيد  
لمثل هذا الأسير ، واتركه ، مترفقاً به ، حرّاً من القيد . ألا ترى  
جيدها وظهرها ؟ آيتان من آيات الجمال والدلال ! فانزع أسنان  
الطمع من عجيزتها . فن مد يده حول الفخذ استهدف أن يأني  
بأمر (١) . وكيف تكون الحال إذا تمزق فراؤه الذي ينفج - مثل  
نافجته - المسك ؟ ولأن تطعم معدتك الحشعة التراب خير من أن  
تغذيها بقطعة من ذاك اللحم .

وصاغ المجنون من أقواله للصيد شبكة ليصيده بها ، فوقع  
الصيد في قيده كما كان الصيد أسيراً له من قبل . وذاب شمع  
قلبه رقة ، فرمى بسيفه من يده . لكنه ظل يفكر في هم عياله ،  
ولا زالت الظبية أسيرة قيده . ولم يكن على جسم المجنون حلة ،  
ولا على رأسه عمامة ، فتحير مفكراً فيما يمنحه الصيد . فخف إلى  
قطيع أبيه ، وأخذ منه شاة لم يمسها من الذئب سوء ، ثقيلة العجز ،  
ذات إلية جميلة المنظر ، قد أكتنزت شحاً من رأسها حتى القدم .  
وأحضرها ، وأعطاهها الصيد . وبسط عنده له قاتلاً : إن هذا  
الصيد الذي هممت به شبيه ليلى جيداً وعيناً . ولن أقومه أو أساوم

---

(١) أى أن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه .



فيه ، فكل شعرة منه تقدر بشاة . فلا يقع في ظنك أن هذا تمن له . وإنما حملته لك فداء . فامنحنى رسن الظبية ، إذ هي في يدي خير حالا ، لأدين لها بالخضوع مكان ليلى ، وأطلقها فداء لليلى .

وحين تسلم المحنون قيادها قبلها مائة قبلة في عينها النجلاوين وحل عن عنقها رسن الصوف ، وطوق جيدها من ساعديه بطوق من ذهب ، وكحل بتراب أقدامها عينيه ، وغسل وجنتيها بدموعه ، قائلاً : يا من جيدك كجيد الحبيب ، وعيناك عيناها ، غنيتان بألوان الفن ، لو أن ساقك ، لما ذات الساق الدقيق ، كان من ذهب ، وممتلئاً كساقها ، لقلت بلسان الصدق مؤكدا : إنك أنت هي وهي أنت . مادام حبيبي ينعم بالسلام ، فظلي طليقة من سيف الخوف ، وأرعى حول ديار الحبيب ، واقطني السوسن ، واطعمي الخزامى . وعندما ترعين الخزامى حول ديارها ، رددى مثلى الدعاء لها : ليدم ذلك المحيا ندياً كالخزامى ، ولتدم ذائعة صيتها بالحياء والعفة ! ! وعندما ترعين السوسن في المروج القريبة منها ، فليدركك الشجن لذكرى طيب غداؤها تنفح مسكا ، ولترددى : ألا لا ير إنسان تلك السوسنة الندية ! ولا يقطف امرؤ من بستانها غصناً ! .

وانطلقت الظبية ، وجدّة على أثرها كأنه أحد أطلأها (١) وتابعها حتى ديار الحبيب ، وأخذ مكانه هناك دون صخرة من

---

(١) الطلا بفتح الطاء : ولد الظبية ، جمه : أطلأ .

— ١٢٨ —

الصخور ، وانصرفت الغزالة ترعى فى المروج . فكان ذاكئذ  
من فراق الحبيب ، وهذه تطوف فى المروج حول ديار الحبيب ،  
حتى غابت الشمس ، وأقبل القمر ؛ ثم أغار الليل بدجنته ، فلم  
يعد أحدهما يرى الآخر ، واستلقى كلاهما على العراء ينشد الراحة .

## (٢٧)

### لقاء مع راعي ليلي

حين انبلج الصبح ، وبدت الشمس وكأنها أمل من لا أمل لهم ، تنثر عن إبريقها خيوط الذهب ، وتصب من حقنها جواهر الضوء . دار المجنون - وقلبه نهب لألف يأس - في الجبال والوديان ، يردد اسم ليلي ، رفيقه في طريقه دموعه وآهاته . وأينما رأى أثر مسافر طار إليه من بعيد كالريح ، وخف إليه كنسيم الصبا ، جاعلا من غبار قدمه كحلا لناظريه ، يستخبره عن أحوال ليلي ، وملء قلبه نار ليلي . وفجأة أقبل قطيع من الطريق على رأسه راع مرح ، يحدث في مجالى الطرب ، عليه عباءة صوف سوداء ؛ شبيه موسى : في كفه عصا هي في عين الذئب ثعبان (١) مبين . فألقى بنفسه دونه ، كأنه ظل وقع دون قدميه ، وقال : له لئامن قلبي وروحي فداك ! ! ضوء بصرى فداء لغبار أقدامك ! إني لأجد منك ريح الصداقة ؛ فن أنت ؟ ومن أين أنت آت ؟ وأى أثر يحمل هذا القطيع الحسن المنظر من معز وضأن الذى حف بك من أمام ومن خلف ؟ ومن منزل من قد أتى ؟ فإني أشم منه ريح المسك والعنبر . ولمن ذلك المراح الذى فيه يبيت ؟ .

---

(١) في الأصل أزدها وهو التين .

فقال الراعى : أنا راعى ليلي ، وقد ربيت على موائد ليلي ،  
ومن هذا القطيع خير جودها ، وهو ثروتها النامية . وتلك  
السمات برؤس القطيع وأذانه من صنع لمدها ، وهو يأوى في الليل  
إلى مسكنها ، فذلك الطيب هو من عطر أذيالها . فأينما خطرت في  
غداثرها المتهدلة ، وجرت أذيال الدلال ، فإنها تنشر على أثرها  
رائحة المسك ، ويفيض من طيب روحها ريح العنبر .

وسمع المجنون وصف حبيته ، فتمرغ في وحل دم دموعه ،  
ووقع على الأرض فاقد الوعي ، فلم تعد ترى عيناه ، ولم  
يستطع لسانه كلاماً ، وبقي على الأرض طويلاً فاقد الرشد ، وظل  
على حالة ردحاً من الزمن . وأخيراً عاد إلى رشده ، فأقبل على  
الراعى باكية يقول : أيها الأمين المدل بدار الحبيبة ! ويامن تبيت  
كلباً حارساً على عتبة دارها ! ماذا لديك اليوم من أخبارها ؟ بنى  
في صدق عن كل ماعندك من أحوالها . إن صدرى مليء بالغم  
حتى الشفاه ؛ فبالله إلا جادت على شفاهك .

فأجاب الراعى : في الحى فرصة طيبة لك الآن حول خيمتها  
إنسان . وهى وحدها فيها كالهلال في دارته . وقد شد رجال القبيلة  
رحالهم وخرجوا من عرصة الحى ، يتصيدون غفلات بعض  
القوافل ، فهم لهم منذ الغداة كامنون ، ليغيروا عليهم دون  
أن يأخذوا حذرهم في الحراسة .

وسمع المجنون هذه البشارة . فاشتد به القلق ، وشن عليه صبره

الضائع غارة ، وقال للراعى : أيها الراعى الحميد الخلق ، من على بعطفك ، واستجب لرجائى ، وامنحنى هذه العباءة القديمة ، يكن لك على ألف منة . فهى سوداء ، وهى أليق بى ، أنا المحروم من حبيبى القديم . فأعطينها ، لعلى أدق بها ، خفية ، طبول الطرب ؛ على الرغم من أنه لايقع فى حيز الإمكان إخفاء طبل تحت عباءة .

قال هذا القول وأرتدى العباءة ، ومضى فى طريقه يبحث بالشوق ، وغشى الحى فى طلب ليلى : مردداً فى نفسه صيحات الوجد . وكلما تقدم خطوة فى الطريق كان يغيب قليلا عن وعيه . فلما وقعت عيناه على منزلها تقوض كيانه عن رأسه وأطلق من قلبه المكروب صيحة ، ثم خر على الأرض كأنه للظل . وسمعت ليلى صيحته فعرفته ، وخرجت إليه ؛ وبصر بها المجنون مقبلة من باب خيمتها ، فخرج من نطاق عقله . وعلى رأسه جلست تصوب إليه من عيونها قاتل النظرات ، وترسل من نرجس ناظرها سهام الفتنة . وصبت على محياه من ماء الدموع ؛ وليس بماء ولكنه من الدم . فأفاق من نومه الثقيل ، وترددت فيه أنفاس الحياة على ماء نرجسها . وجلس ينظر إليها ويحادثها . وظلا يتناجيان ويشرحان همومهما ، فاشتكى المجنون إليها من أهوال السفر ، وصاغت ليلى درر الكلم فيما تعانى من أسى الإقامة ، وقرأ عليها حديث الجبال والوديان ، وثنت هى بشرح قصص العزلة واليأس . وكان

يصف لها ما يرسل من آهات ، فترسل الدموع تعسل خلدودها .  
 قال لها : بدون محياك أظل كالمحتضر . فأجابه : آلامى أشد  
 تباريح . وقال : إن قلبي قد تناثر مزقاً ؛ فأجابت : هكذا  
 الدهر ، فما الحيلة ؟ ! وقال : لقد سئمت العيش وضقت ذرعاً  
 بنفسى . فأجابت : إن موتى قد أطل حينه صائلاً . وقال لها :  
 قد صهر الهجر روحى ؛ فأجابت : فى الوصال الدواء . وقال  
 لها : أنا بدونك فريسة الجوى . فأجابت : وأنا من أساك على  
 شرف الهلاك . وقال : قلبي جريح الهموم . فأجابت : جراحى  
 أشد عمقاً . وقال لها : لن أبرح هذا الحى . فقالت : إذن  
 فتخل عن روحك . وقال : طال أصطلائي بالنار . فأجابت :  
 أنخذ الصبر ديدناً . وقال : روحى فداؤك من حيية . فأجابت :  
 عيوني تمطر الدموع . وقال : ليس من طبعى الصبر . فقالت :  
 وليس لنا سواه من دواء . وقال لها : ما أطيب النجاء .  
 فقالت : ما أشد محنة الفراق !! وشكا المحنون من ذوى الحقد  
 والضغينة ، فدعت عليهم بالويل والثبور . وقال لها : قد فطر  
 الأسى قلبي شطرين ، فأجابت : وما الأسى بالقياس إلى كرم  
 الله !! .

وعندما أفرغا كل ماعندهما من قول وفضا مالديهما من  
 أسرار ، التهم نار الخوف قلب ليلى ، خشية أن يقدم فجأة من  
 الطريق هؤلاء القوم الذين ضؤل حظهم من العقل والدين ،

— ١٣٣ —

فيعجلوا بخاتمة هذا الولهان ، شاهرين عليه سيف الظلم ، حيث  
لايسرع لنجاته أحد ، فقالت له : أيها الفرد بين العاشقين !  
وذا المروءة في وفائك ! أسرع بالانصراف ، فسيف القدر مصلت  
على رأسينا كلينا ٥

فوقفنا معاً للوداع ، وأسالنا من جفونهما أنهار الدم ، ثم انصرف  
إلى العراء يضرب من جبل إلى جبل ، وبقيت هي في مكانها  
كأنها من الهم جبل ٥

نعم ؛ هذا ديدن الدهر الغادر ، فأقصر عن طلب الراحة  
في هذه الدار ؛ فقد تعاني فيها قرناً من البلاء والكروب ،  
لكي تجلس لحظة كالمستريح ، ولا تكاد تدفئ مكانك بالجلوس ،  
حتى يتعجلك الدهر في غير استحياء ، ويأخذ بيدك مهيباً بك أن  
أسرع بالانصراف ، ويقرع قدمك أن لئد بالفرار .

(٢٨)

## المجنون وكثير أمام الخليفة (١)

كان كثيرٌ مشرق الديباجة في القول بين فصحاء العرب ، وكان في سماء النظم نجماً نيراً ، وكان هائماً بعزة التي يحسدها لحماها الحور العين ، وتمحو بجمالها رونق فائنات الصين . وكان هيامه بها يفوق القياس ، مثل قيس في هيامه بليلي . ولما تفتحت على نسيمها زهور فصاحت ، قال في هواها ما قال ، وشعره في طلاوته مدين لذلك الهوى . نعم ، ملح الفصاحة من العشق ، ونور فلك البلاغة من العشق . فمن حرقه القلب يكتسب القول قوة وحرارة ، ومن شعله العشق يضيء الفلك .

وذات يوم دعا الخليفة كثيرًا ، وأجلسه على مائدة كرمه ، وقال له : على مائدتي خذ مكانك اليوم ، وأضيء بنار عزة مجلس القوم ، فرفع كثيرٌ صوته بلحن للذكرى حبيبته ، وأطلق من عينيه مسيل الدموع . فصسير — من دمعه ونظمه — أذباله مليئة بالعقيق ، والمجلس مليئاً بالدر . ورأى الخليفة منه هذا الأسى والألم ، فسأله قائلاً : أيها الفتى ، أعلم أنك رأيت كثيراً من العشاق ، فهل رأيت بينهم لك شبيهاً ؟ فأجاب كثير :

---

(١) لهذا اللقاء أصل تاريخي بين كثير وعبد الملك بن مروان وسؤال الخليفة له عن قيس ، فيما يرويه : ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ٣٢٣ .



نعم ، ذهبت فى سابق العهد إلى ديار عزة ، والقلب جريح الأسى ،  
 فوقعت فى طريقى على واد أصابنى فيه الخوف ، فضاع من  
 يدى الزمام ، وسرت يومين أو ثلاثة بلا نوم ولا طعام ، ، ولم  
 أستشرف (١) فيها ماء ولا خبزاً ، وإذا بى أمام أمرىء مضطرب  
 الحال ، مقوس الظهر كالهلال ، ذى كبـد دامية من قرحها  
 كنافجة المسك ، يبس جلده على جسمه من الغم ، وقد نصب  
 للصيد شبكة . فذهبت إليه ، وقرأته السلام ، وخاطبته فى أدب ،  
 سائلاً إياه بعض الخبز والماء . فأجاب : إني بعيد من أهل الحى  
 وبى نفور من أهل الحى موتى القلوب . وليس معى من طعام  
 ولا شراب ، فطعمى العشب ، وشرابى من السرب (٢) . ولكن  
 أجلس لحظة فرما فتح لنا باب الرزق ، فيقع فى شباكنا  
 صيد ، ويزول عنا هذا العناء . فانتحيت منه ناحية ،  
 وعلقت أنظارى على طريق الأمل ، وإذا ظبية رشيقة تقع  
 أسيرة قيد الشبكة وحلقاتها ، ظبية لا تحاكيها رسوم مصور ، بدبعة  
 الشكل جميلة المنظر . فى عيون تفوق عيون الغزلان ، سوداء  
 بلا كحل ، ثملة بلا قدح . يسكر من يراها بنحمر عينيها ،  
 وتقع ظباء العيون من النساء صيداً لناظريها . ذات قرون مفتولة

---

(١) حرفياً لم أر من بعيد .

(٢) فى الأصل سراب ومن معانيها بالفارسية الينبوع أو الماء الجارى ، وفى  
 القاموس العربى السرب بالتحريك : الماء السائل ، ولعلها معربة عن الفارسية : سرباب  
 أو سراب .

من العنبر ، يتراءى من بينها شعرها الساحر ، لم ير أحد مثله  
غصوناً بلا ورق ، حتى لكأنها نبات من المسك . وفي سرتها  
نافجة جميلة المنظر . ولها من قرون ناصيتها قوة تنمو ، كل  
عقدة من عقد قرونها طعمة تجذب قلب ألف صائد . ليس لها  
عقد ولا وشاح ، فعنقها ساذج كدورق الحمر . ذات عين  
فاتنة ينبجس منها دلال يكاد يقطع عقد وثاقها ، وفراء صدرها  
وبطنها في لون الكافور ، ونافجة سرتها كحجزة (١) إحدى  
الخور . وعجيزتها كزهره النسرين في حديقة جسمها ، لم تبُل  
بحرقة الشقائق (٢) . ولم يوضع على ظهرها من حمل سوى الغبار ،  
وقد تربت بين الخضرة والماء ، في مأمن من يد القصاب . قدمها  
قلم مارس الخط ، غير أنه لم يجر رأسه إلا على صفحات المروج  
الخضر .

فلما رآها قيس وقعت في شبكته ، خف إليها ، وعانقها  
معانقة الحبيب ، وقبل عينها ، وأخذ ينفذ عنها الغبار ،  
وأشد مائة بيت في وصفها ، وخلص أقدامها من حلقة الشبكة ،  
وتركها تذهب إلى المرعى . ولكن الظبية حيناً أطلقت من  
إسارها لم تهرب ، بل ظلت قائمة بين يديه ، فأطلق صوته قائلاً :

---

(١) الحجزة : معقل الإزار ، وهذا المعنى هو المراد هنا من كلمة : نيفة ، في  
النص الفارسي .

(٢) يكثر في الأدب الفارسي تعليل حمرة الشقائق بحرقة الفراق أو الحب .

فى عينيك مائة المشابه من عيني ليلي ، فعودى ، ولا تخشى  
شيئاً ، فأنا صديقك من دون الناس . وحسبك مثلى صديقاً . وما  
دام فى العالم إنسان كريم ، فدومى وليلي طليقتين من الغم .

وما إن فرغ من قوله ، حتى وقع فى الشبكة صيد آخر يفوق  
الأول جمالا ، فأنتهى منه كما انتهى من الأول . ثم وضع يده على  
صيد ثالث ، فجرى على نفس القاعدة ، وهكذا سلك أربع  
مرات أو خمساً ، لم يشعر فيها بجهد .

ولم يبق لى على الجوع من طاقة ، فقلت له : هيا فأطفيء نار  
الجوع ، وإلا فلماذا تنصب شباكك للصيد ؟ ! ولم تطلق الصيد  
بعد الظفر به ؟ ! وأنا ضيفك ، وفى حاجة إلى طعام ، فلماذا  
تضيعه عبثاً ؟ !

فقال : إياك وهذا الهوس ! وعد — مثلى — إلى العقل  
والرزانة ! ! إني أصيده لأنه مثل ليلي ، وعندى لمثلها ميل عظيم .  
أقبل فى محبتها قدمه ، وأستعيض عن ناظرها بناظره ، وأحى  
به موات الأمل ، ثم أطلقه فداء لها . وشئ يحمل لى مثل  
هذا الأمل ، خبرنى : كيف أقوى على ذبحه ؟ وشئ شبيه  
بالحبيب . كيف تكون لى طاقة بأكله ؟ وإلا فإني لهذا الصيد  
أشد حاجة منك ، فلم أطعم شيئاً من رطب أو يابس إلا أعواد  
العشب ، لاشئ آخر :

— ١٣٨ —

وبينما يتحدث إذا ظبية أخرى تقع في شبكته ، فقلت في نفسي :  
سأسبقه إليها وأصرعها بختجى ، ولكنه سبقنى عدواً وأخذها ،  
كما أخذ سابقاتها ، وطبع مئات القبلات على وجهها وعينها  
ثم ردها طليقة فداء لليلى . ففقدت الأمل في أمره ، وبقيت  
بلا طعام من صيده . ومن هذه الحادثة في ذلك المكان أيقنت  
أنه مجنون بنى عامر ، فقد تبدلت حاله من جوى ليلى لونا آخر .

## (٢٩)

### الروضة

ما كاد الكريم كثير يغادر مكان الصيد ، حتى رأى  
غير بعيد روضة جميلة تذكر برياض الجنة ، قد كست أرضها  
الحضرة<sup>(١)</sup> ، ذات ورود كثيرة مختلفة الألوان . وكأنها مصحف  
حروفه من الزمرد ، تقوم فيه الشقائق مقام الحمراء<sup>(١)</sup> . أو كأن  
أرض تلك الروضة صحائف خُطت عليها بماء الزنجار<sup>(٢)</sup>  
ألفات مكررة ، تراءى كأنها بنات العشب أو بنات الربيع  
مشوقة القد ؛ وكأن شجيرة العرف قد احتمت برداء أركان ،  
فلبست من الحضرة ثياباً محكمة لتقي الغرق ، وتحتمي من سهام  
السحاب ونبال البرق . وقد أطلت من جيوب الأرض الشقائق  
كأنها كؤوس من عقيق ندى . وكأن أزهار العرف أقداح  
ملئية بالصهباء على حراب من الزمرد ، يداعبها النسيم في دلال ،  
فتمايل اللاعبين بالكؤوس ؛ أو كأنها مشاعل تتوهج ولكن  
بلا زيت ولا فتيل ، على سيقان دقيقة رمخت في الأرض أصولها .

---

(١) معرب الشنكراف أو الشنكار ، وهو نبات لاصق بالأرض في غلط الأصبع  
أحر كالدلم ، تصبغ به اليد إذا لمسته ، راجع : الألفاظ الفارسية المعربة للسيد  
أدى شير ، طبعة بيروت ١٩٠٨

(٢) منه ما هو معدن ومنه ما يستنبط من النحاس بوضع في درى الخل ، انظر  
المراجع السابق .

والورد فيها معانق للياسمين ، والخبازى فى أنسجام مع النسرين ،  
والبنفسج يميل على خده الفل ليقبله ، وقد اشتعلت فى قلبه نار  
الحب ، « فبدأ كأنه أوائل النار فى أطراف كبريت (١) » .  
وكأن الرجس - وقد انتحى جانباً - عيون تنظر هنا وهناك .  
وكأن السوسن ألسنة تتحدث إلى هذه وتلك من الأزهار . وأطلاء  
الظباء فى لعب ورقص كما يفعل الأطفال ، فتخطف هذه  
من فم تلك زهرة من الشقائق ، وتنزع تلك من هذه صيحة  
ألم . وبدت شفاهها حمراء من رعبها الشقائق ، وحوافرها خضراً  
من سيرها على العشب . وبجانبا سرب كبير من الغزلان ، مرعاه  
الزهور والخضرة ، متحرر بسرعة عدوه من سلطان الراعى وحراسة  
الكلب . وحين رأى السيد الرأى كثير هذا السرب من  
الظباء ، عاد مسرعاً إلى مكان الصيد حيث جاس المجنون ،  
وقال له : أهذا الذى هوى الصيد ، أنهض ودع عنك هوى  
ذلك المكان ، وأجمع منه شباكك وما بها من حب ، وانقل خطوك  
قليلاً إلى مكان كذا ، وانصب هناك شباكك فى طريق الغزلان ،  
فسترى هناك صيداً يتلو بعضه بعضاً فتقيم فيه مستريح الخاطر .  
فبكى المجنون وقال : ذاك حى لىلى ، وحرم لىلى كالكعبة .

(١) مقتبس من أبيات لابن الرومى :

ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت  
كأنها فوق هامات حقفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت  
( معاهد التنصيص لعبد الرحمن بن أحمد العباسى ، ج ٢ ، ص ٥٦ ) .

وهناك أقامت ليلي ، وخطرت مع رفيقاتها المجدودات ، مغردات كالبلبل الثمل ، ساحبات الذبول على العشب والزهري . فكل خضرة نبتت في تلك الأرض قد جررت عليها ذيلها ذات يوم ، وكل حسك فيها قد ترك كالورد أثراً في أذيالها . واكتسبت الورود عطرها ولونها من ذوائبها وعارضها . وإنما صارت الشقائق قانية لأنها نبتت على دموع حرقها . وقد فتح الرجس عيونه تضرعاً دون تراب أقدامها ، وبسط السوسن لسانه ليتحدث عن مجلس محياها ؛ وعلى البنفسج طابع الدلة لأنه لبس لفرقتها ثياباً زرقاء . وأطلاء الأطباء النافحة بالمسك صيد لسهام نظراتها ، فنظّل أنظارها مصوبة إلى الطريق عليها تطالع فجأة محياها . ومنذ ذلك اليوم الذي خطرت فيه بتلك الأرض ، حُرّم صيدها كالحرم . وكيف أنصب شبكة لغزال يرعى في روضتها ؟ وكيف يجمل بي صيده ، ومن ضحاياي قلبي ؟ وأينما أكن ينجذب قلبي إليه ، فأسير إليه على عيني تدميان بكاء . أطوف حوله طواف الحجيح ، وإنسان عيني هام بسيل الدموع . فلا غزاله مولية عني خوفاً ، ولا أنا ألوى من أعواد نبتته عوداً . ولأن أطل صيداً للسهم خير من أن أذعر فيه صيداً .

هكذا قال ومر لشأنه ، وانصرف لصيده يردد اسم ليلي ، وفي كل آونة كان يقع صيد جديد من الأطباء فيقبله عوضاً عن ليلي ويطلقه لما فداء . وكان هذا شأنه من الصباح حتى المساء ، لم يركن قط لراحة في هذا الأمر .

(٣٠)

## دعوة الخليفة لقيس

الدهقان الذى تعهد براعم هذه الأغصان ، والصانع الذى أبدع  
هذا التصوير ، هكذا سطر فيما كتب :

أضحى معمر الخربات مشهوراً بحديث العشق ، مهجوراً ممن  
شبهوا بالعقل . وترددت فى مجامع العصر طرف نظمه كالدر ،  
ولم يخل من تلك اللائى قلب ، وتشنفت بها الآذان ، وحليت بها  
مسامع الخليفة ؛ فاشتدت رغبته فى لقاء قيس ؛ وأنهى رغبته إلى  
والى نجد ؛ فكتب هذا إلى أعمال ولايته : أن لن يسمع من امرئ  
عذر إذا لم يرسل إليه من داره ذلك العاشق العامرى النسب اللبيب  
الأريب ، الذى شهر بلقب المحنون .

فلما انتهت هذه الطرفة إلى أبناء الولاية قالوا : إنه بعيد من  
العقل ، نافر من صحبة العقلاء ، لا قرار له فى منزل ، ولا طعام  
له سوى العشب ، فاحياناً يتخذ مقامه فى الجبل ، وفى صدره من  
الهم مائة جبل ، كفاه كمخلب المرقوة ، ومأواه ليلا الكهوف .  
وحيناً يطوف حول السهول والوديان ، وقلبه نهب لألف يأس .  
يسير نهاراً مع قطعان الحيوان ، وينشد الراحة ليلا مع حمر  
الوحش والغزلان . تحيرت فى أمره الخلائق ، فكيف يليق بالخليفة  
لقاء مثله ؟ ! فأجاب الوالى : هذه رغبة الخليفة ولا حيلة .



فأعملوا الطلب في كل جهة للعثور عليه ، وبحثوا هنا وهناك عن آثاره ، حتى وجلوه على قلة جبل في مجاس خطير الشأن ، له من شعره فوق قمة رأسه مظلة كمظلة الملوك ، وهو مثل الخليفة وسط جيش من الحيوان في حلقة محكمة من حوله ، وهو طيب الخاطر بمجلسه بينها . فقالوا له : قم وشد رحلك ، واعقد وشاح الطاعة لأمر الخليفة .

فقال : ليس لي رحل فأشده ، وقد وضعت رحلي في الجبال والهضاب ، وهيات أن أدين بالطاعة لإنسان . وحظي أسود كسواد الدخان ، وكفاني حملاً ماأنا فيه من بؤس ؛ وصدرى مفطور بسيف الهم ، فكيف أعقد عليه وشاح الطاعة . فقالوا له : حذار من هذا التطاول ، ولا تحمد مغبة ماقلت . فأجاب : لست ممن يذله الطمع ، فما أبالي عاقبة التخلف عن الخليفة . ولا أقاد بخطام الحرص ، فلست أهلاً لمجالسة الخليفة . والعاشق فوق الخلق ، إذ يملوهم في أمورهم الطمع والحرص ، وقد تخاص العاشق من كلتا الحصلتين ، فتححرر من عناء العالم (١) .

فقالوا له : تحاش غضب الخليفة لئلا يهدر دمك بدون حجة . فأجاب : أما وقد استباح العشق دمي ، فكيف يخضعني سيف الخلق ؟!

---

(١) قد يكون هذا هجاء من الشاعر لمن يترامون على أعتاب الملوك ، وقد كان الشاعر من يخطب الملوك وده ، وقد ربأ بنفسه عن الترامى على أعتابهم ، أنظر : Browne : Lit. Hist. of Persia, III, P. 510.

وأطلب النجاة من الخنجر البتار؟ وسواء لدى مت بورق الورد أم بالخنجر (١). فالخى يتحمل أن يكون مسوداً ، أما إذا كانت الحياة قد شدت رحالها مولية ، عنه ، فإن الخنجر ينبو عن هدفه .

ويئس القوم من جداله ، فأتوا بناقة من الطريق وجروا بها إليه ، حيث كان فى ظلة جبل البلاء والأسى . فبسطوا إليه أيديهم ، وشدوا على جسمه القيود والأغلال ، كما يلتف فى الجبل ثعبان بحلقات جسمه حول غصن لدن . وقد عانى من حبال القيود كأنها حلقات ثعبان ، ولكن كان فى صدره أضعاف هذا العناء . وأخذ يتلوى الثعبان ، وينثر الدور من دموع عينيه قائلاً :

أنا مشدود الوثاق بحلقات غدائر الحبيب ، فقيدى ذوائب شعورها كالمسك ؛ فما قيد آخر فى قدمى ؟ ! وهل هناك من قيد للبلاء فوق بلائى ؟ ! وإذا رنت فى قدمى حلقات قيود العشق ، سر منها العاشقون فى حلقاتهم . والمقيدون بقيود التدبير ، لهم مخرج لتخطيم القيود ، فعلى قيد خطوتين أو دونهما تتحرر الاقدام من قيود هذا العالم . وأنا المحاصر بالبلاء حتى ضاق بى فسيح هذا العالم ، فكيف بى فى مضيق هذا الإيوان ؟ (٢) وهيأت أن يمسك بى فى محضر الخليفة حلقة أو حلقتان من الحديد يضعهما فى قدمى . وإن

---

(١) قارن هذا المعنى بقول شوقى (الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣) .

لا تحملنى بجناتها أو جناتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

(٢) فى الأصل هنا اصطلاح فى لعبة النرد مفاده ما ذكرناه .

سفرأ لا يقود إلى الحبيب ، وليست غايته وصال الحبيب - حتى  
لو قاد إلى الخلد - هو في اعتقادي أعظم جرم . فهذا القيد الثقيل  
هو جزاء ذلك الجرم في مذهب العارفين لطوائف الأمور . وساروا  
به هكذا على راحلته أسبوعين أو ثلاثة ، حتى وصلوا به إلى باب  
الخليفة ، فأخذ حماماً دافئاً ليزيل الأدران عن جسمه ، وحلق شعر  
رأسه ، وكساه الخليفة حلة جديدة من جوده الذي يفيض على  
الوجود كنور الشمس . وصبوا عليه عطراً . وأجلسوه أمامه على  
مائدة نواله . ورأى المسكين أنه في مقام مهيئ ، فلم يحمد مقامه ،  
وأدرك أنه غرض لحيلة مأكرة ، يتعرض بها لأذى المهانة من  
المزهوين بنفوسهم ؛ فضايق به فضاء الكون ، وأخذته في  
جنونه نوبة وجد ، فزق خلعتة ، ورمى إلى الأرض بعمامته ، ولم  
ينبس ببنت شفة ، وركن إلى الصمت . فأمر الخليفة أن يؤتى  
بكثير إلى المجلس الخاص ، لأنه طيب المخضر مع أهل العشق . ودخل  
وحيد عصره كثير على أليف الأسفار . وقال كثير : لا تنوئ  
أولاً بقلم ودفتر . وكتبوا له على صفحاته أشعاراً طيبة كالشهد .  
وانطلق صوت كثير من الأعماق بنشيد يصف فيه جمال ليلي ،  
والحرمان من وصال ، وسقام قيس من فراقها ، وآلامه المبرحة  
من الشوق إليها . وما إن أنشد عدة أبيات حتى وجد منها مصباح  
قيس زيته ، وكان حبل وريده فتيلة ذلك المصباح ، فحرك لسانه  
«الفصيح كأنه شعلة نار ، وأنشد في حرقه قصيدة بلغت عقود أبياتها  
( ١٠٠ - ليلي والمجنون )

مائة بيت ؛ كل بيت منها كحلة من سندس ، ملئ بلآلىء الدموع  
صاف كالدر ؛ وكل مصراع من مصاريعه باب ، وتلك الأبواب  
معاير تنفذ منها الآلام . ومقاطع أبياتها شفاء مقاطع الصلور الكرية .  
وبحر القصيدة ذو أمواج تقتلع الجبال ، وهو مع ذلك يفجر مسایل  
الأشجان ، ويضرب من قوافيها ذوو الصلور المسكومة صدورهم  
بالأحجار ؛ وفي كل حرف للعشق قصة ، وفي كل نقطة قطرة  
من دم القلب ، ويسيل من حروفها ماء كالدّم هو رشح الكبد  
المقروحة ، وعصارة القلب الجريح ؛ ومطلعها مشرق الديباجة  
من نور طلعة ليلى كالشمس . وفي مقطعها قطع الأمل من طلعة ليلى  
السعيدة الحد المشرقة القسمات . ونهاى صواعقها على ساحة القلب  
من ذكرى الحبيب والديار . واستفاض فيها فى شرح أحواله ،  
وفى وصف الخيام والأطلال . وهمت جفونه بالدمع سيلاً ، فأودع  
القلوب مئآت الحرق ، وحمل الطير والريح رسائل شجى مكروب .  
ونخلط تراب قدمه بدم الدموع ، وكتب به رسالة أودعها يد الرسول  
ليفضى بها إلى الحبيب ، أو ليدعها حيث يقيم . وأودع قصته طيب  
أيام الوصال وشكوى آلام الفراق : فحيناً كان يمزق الثياب ضيقاً  
بأفعال الواشين ، وحيناً يبكى تعس الحد . فكان كل من ألقى  
سمعاً إلى نشيده غلى دمه فى قلبه ، وكل من ألقى نظراً على تلك  
القصيدة جادت عيناه بسيل الدموع .

ولما فرغ من إبداع آلامه تلك القصة ، ووصل إلى آخر مرحلة

في وصف حداده ، أوقد النار بشعل آهاته ، فاحترق منها كل قلب  
عالم يكن حجراً . ثم أخذ ينشج بكاء ، فلم تبق عين فارغة من  
الدموع ، وارتعى في قيوده كأنه الظل ، يمرغ خده على الأرض .  
ورأى الخليفة أساه وشجنه ، فأمر بفك قيوده ، وأن تفتح باب  
خزائنه ، ليعطى منها مائة بدره من ذهب وفضة ، ثم قال : ليبق  
في ديارنا ، ولينزل بجوارنا ، ولتحرر برعايتنا صحيفة يطلب فيها من  
أمير تلك الولاية أن يبذل جهده في إحضار والد ليلى ؛ وسنفتق في  
ذلك الجواهر والدرر ، حتى يتيسر لك المراد .

فلم يلتفت المجنون إليه ، ولم يقر له قرار على وعده ، ونفض  
أرادته من عطائه ، وانطلق إلى وادى العشق ، وذهب يعدو كغزال  
غر من شبكة . وأعتقد أنه نجا من كارثة . واستمر في طريقه سائراً  
أو جالساً أو نائماً ، يردد لحظة حديثاً كالشهد ، ويقول : قد نجوت  
منهم الخليفة ، وعقدت الإحرام لحريم الحبيبة .

## (٣١)

### في قافلة ليلى

السائح في نواحي هذه الولاية ، والناظم لعقود هذه القصة ،  
هكذا روى فقال :

إن ذلك المتخذ من العراء مسكناً ، الضارب كالوحوش في  
الوديان ، شبهه الأطباء في العدو والجريان ، ألقى نفسه بعيداً من  
ديار ليل ، فحث خطاه نحو تلك الديار ؛ يجوبها ، مببل الخاطر  
على غير قرار ، يغسل بدم الدموع عن وجهة الغبار ، ضالا يبحث  
عن آثار الحبيب . وكان يلاقي — أينما سار — القوافل ، ويكتشف  
مسافرين ، وكان يسير مكتوياً من نار الفراق سائلاً عن أخبارها .

و ذات يوم هبت سموم الهاجرة على الجبال والصحراء ، فأضحت  
من الرمال وقطع الحجر كأنها وعاء مليء بالجمر والشرر . وبدأ  
الثعبان فيها يتلوى بحلقات جسمه ، كأنه شعر على نار . وتبشّر  
حوافر الحيوان من حرقة السير فيها . وتضطرم الجواء بهواء لافح  
كوهج النور الذي ترمى أرجاؤه بشرر من نار ونور . وتجيئ  
الينابيع كقدر يغلي ماؤها ، ويتلوى فيها السمك ألماً ، كأنه من  
مائها في إناء شواء . وكأن صفحة كل صخرة خوان عليه أنواع  
الشواء من الصيد . والطبي في ظل قرونيه لاهث الأنفاس . والنمر  
مسكين لا يجد ما يحتوى به من الظل دون أقدام الأشجار ، فهو

فوق الأرض كظل شجرة نقذت إليه خطوط من النور . وكأنه صيد مطروح قد لاذ من عنائه بكنف من غيبوبته . وانحدرت السيول في الوديان من الأعلى إلى الأسفل . ولم تكن فيض صحاب بل كانت سيوفاً مصلته في الجبل . والمجنون في ذلك اليوم فزع مضطرب ، قد صار من القيظ والسموم فحمة اتقد داخلها بشعل الآهات كأنها ألسنة اللهب . ولم يفتر المجنون عن ترديد آهاته لحظة ، محترق الفؤاد والقدم ، قد أعيا بنشدان الراحة . قلبه من الحرقه كإحدى الشقائق . وجلس فوق هضبة . ودار بطرفه فيما حوله . فرأى من بعيد نخيماً به حشد من الرجال كأنه فلك عامر بالنجوم . فنهض المجنون يئن مما به ، وأخذ طريقه نحو الخيم . وهناك غير بعيد منه التقى بأعرابي مقبل من الخيمة فوق راحلته . فأخذ المجنون عليه الطريق ، وسأله : أيها السعيد الطالع ، ما قصد هذه القافلة ؟ وإلى أين تشد رحالها ؟ وما اسم هؤلاء وأولئك ؟ فرد الأعرابي على أسئلته جواباً جواباً ، قائلاً : وجهتهم جميعاً الحجاز ، وقد بدءوا رحلتهم بنية الحج . أما القوم فهم ليلى وآلها .

وحين سمع المجنون منه هذا الاسم أخذ يشعر بالراحة ، وارتقى على الأرض كالظل . ثم مالبت أن نهض متجرداً من ذاته ، ناوياً الإحرام بالحج مع الحبيب ، متحرراً من القراق بصحبة الحبيب وسار يحمل ليلى والمجنون يتبعه من بعيد بفؤاده المسكوم ، يسلك ذلك الطريق الطويل ، مسوقاً بالرغبة في صحبة ذلك المحمل . وقلبه

فى تردد أناته وآهاته كأحد أجراسه ، يتردد رنينه كلما لمح  
هودجها . وكان يقول : « وما حاجتها إلى المحمل ، وبحسبها قلبى  
مقاماً ؟ والمحمل حجاب الغانيات ، فليس أهلاً لأن يكون للشمس  
برجاً . وأين الطالع السعيد الذى تشرق به على مسكين مثلى من  
ذلك البرج ؟ لعلنى أصير ككرة مهينة فى شعاع تلك الشمس ، بلا  
عقل ولا فكر .

وكان المجنون يقبل مواقع أظلاف ناقتها على أثر حادها .  
وكان ينثر جواهر الدمع من جفونه فوق محيا أصفر كالذهب .  
ويقول : « هذا أثر من آثار الحبيب ، وتذكّر ناقة الحبيب .  
ومادام قد عز لقاء الحبيب ، فأقل ما تقر به العين هى آثاره » .  
مسكين ذلك الذى يقع فى إسار العشق ، يرضى من حبيبه بلا  
شئ . فإذا لم يفز بالوصال ، اكتفى بمداعة الخيال . فإذا لم يجد  
أثراً لأقدامه ، خف إثر غبار طريقه . وإذا لم يصل إلى تقبيل أقدامه  
قبل آثاره .

فانظر - أى جامى ! - فى أمرك ، وماذا فى يدك من الحبيب ؛  
فالعالم كله ثمل بجامه . والقلوب جميعاً صيد شباكه . وكل ثمل  
بنوع من الشوق : فذاك باللون ، وهذا بالرائحة . فهو شمس فى  
عرشه ، ظلّه السماء والأرض . فتأمل ظل الحبيب . وحيث إنه  
فلا تؤمل فى الظل رؤية الوجه ؛ إذ الظل حجاب الشمس . فاعبر  
طريقك فى ظلمة الحجاب ، ولا تتطلع فى الظل إلى رؤية الشمس .



(٣٢)

## لقاء في مناسك الحج

قد كان في فسيح البادية ضيق العطن ، ذلك المسافر صوب  
الحاجز وغايته الكعبة ؛ فهو مع الحبيب ومحروم من وصال الحبيب ،  
ونهب لأسى البعاد . وحين نزل بحريم البيت الحرام ، توجه إلى  
ذلك المقام الفريد ، وأخذ يطوف ، سالكا سبيل الوفاء . ونهضت  
ليلي متجهة شطر البيت ، فتزين البيت بجمالها . ووقعت عينها  
على ذلك الشريد ، فتحدر من عيونها دم القلب . وقالت وهي  
تبكي : أيهذا النائي عن العين ، وأنت مثار كروب الشوق في  
العين ! كيف أنت في صراع الفراق ؟ وكيف أنت في نار الفراق ؟  
أما أنا فما بي حاجة لشرح حالي بدونك ، وهأنذا غريقة في دموعي !  
أنا طوال الأيام والليالي أسيرة شوقك ، وحيدة مع خيال وجهك .  
ليس لي من إنسان سوى إنسان العين ، أسيل منه دم القلب .  
وأنت في ذاك الأسى خير حالا ، إذ تنشد العزاء في نظم القول .

وأخذ المجنون يتاجيا بالمعهود من نجوى ؛ ولكن بلسان  
الصمت ، ناظراً إلى الأمام والخلف ، حذاراً من أذنياء الناس .  
وشرعا يطوفان بالبيت في مدى مائياً من فرصة كانت قلوبهما  
فيها نهبا لأسى لا حده له . فبدأت ليلي الطواف ، وفتى أثرها  
المجنون كريب الصدر . فكانت تقبل الحجر الأسود ، والمجنون

طروب بنجياها على الأرض . ووضعت ليلي شفاها على ماء زمزم ،  
فخلأ المجنون بالبكاء عينيه ماء . وسعت ليلي بين الصفا والمروة ،  
وقد بلغ المجنون ذروة الوفاء لها . فعانى الهموم من شعرها الفواح  
بالمسك .

وشهرت السكين في يدها حادة لنحر الهدى في منى ، فصاح  
المجنون : بل أريق دمي أنا . وشمرت في رمي الجمار ، فكان قيس  
يعطو برأسه في طريق تلك الأحجار . وبدأت تودع البيت المرفوع ،  
فأطلق المجنون صيحاته خشية الهجر . وفرغت ليلي من طواف  
الوداع ، فرمت بمسند هودجها ، واغتم المجنون الفرصة ، فاتخذ  
قبالتها مجلسا . وجلسا معاً جلسة الوداع ، يسيلان من مآقيهما دم  
الدموع . وبدون قول أسفر عن آلام صدرها لسان العيون الفاضة  
بالدم . وودع كلاهما الآخر كما يودع الجسم رأسه ، ولا يتيسر  
العيش لجسم حرم صحبة الرأس . وسأقت ليلي محملها على حرقة  
وشجن ، وبقي قيس وقدماه من دموعه في رحل . وأضحى الهودج  
بليلى كنافجة الظبية ينفج مسكا ، وأما قيس فقد تجمد دمه في  
جسمه كنافجة الظبية ، وضاع سره مثل النافجة .

وباح من حاله بهذا القدر الضئيل فقال : وا أسفاه أن يبق  
الجسم وتذهب الروح ! وأن ينأى عن القلب الصبر ، وتذهب  
القوى من البدن ! لاح لي جمالها بعد طول هجر ، وأخشى أن  
تكون قد ملتنى . وقد أفنيت عمراً أحث الخطى على أثرها ، حتى

— ١٥٣ —

رأيت وجهها دون نقاب . ولم تكذ تفر عيني برؤيتها حتى توارث  
ولم تخش في الله . وما أنا إلا ظمىء الشفاه في القفار ، أجرى في  
العراء كل صوب أطلب الماء ، وقد نفذ صبري نفاد الماء ؛  
ووصلت إلى حافة الينبوع ، فلم أكد أجلس لأطفىء نار ظمىء  
بوصالها حتى شهرت على خنجرها : أن قم . وما طريقى إلى الموت  
ببعيد . وليس في الدنيا إنسان في مثل عيشي . والقلب منى ذاهب ،  
والصدر محترق . فلا ذاق أحد يارب مثل هذا العيش .

هكذا قال ، وافترق عن آل ليلي ، ولكنه صاحب الركب  
بالخيال ، متخذاً له رفاقاً آخرين في الطريق . وقد نفذ حوله  
وطوله ، وعز صبره ، وعزيت عنه الراحة ، خشية أن يكون  
بين رفاقه امرؤ سوء ، يقع من قلبه على موطن الداء ، فيدرك  
ليلى منه ملال ، أو تعلوها سورة انفعال ٥

(٣٣)

## زفاف ليلي إلى شاب من بني ثقيف

ناظم عقد هذه الجواهر ، قد ملأ سلك نظمه بالدرر ، فقال :  
 إن تلك المكنونة كالسر في محمل الأسفار ، ذات الدل  
 المخدورة في هودجها ، ظبية صيادة الأسود ، مغيرة على قلوب  
 الأبطال ، مثار جنون العقلاء والحكماء ، تنال من كل ذى مقصرة .  
 وخرج ركبها من الحرم ، وأخذ حاديها يغنيها بحدائثه . وكان  
 الحجيح قد أخذوا يثوبون بمحملهم مسرعين . وكان من بينهم  
 غنى ممشوق القوام من بني ثقيف ، يحياه شمس وجبينه قر . وحول  
 يحياه عذار ينفتح العنبر ، هو دائرة من المسك حول بدر وجهه .  
 في إصبعه خاتم الرئاسة ، وهو كبير قبيلته أباً عن جد . فيض نواله  
 يفوق الحد ، يغمر الجبل والسهل . فهو خالى الوفاض بما ينثر  
 من كنوز عطائه ، وغيره في غنى بفيض نواله . واتفق أن مر  
 تجاه محلها ، فوقع في قلبه جنون حبها . وكان قد ألقى نظره على  
 حجاب هودجها ، وهبت ريح فرفعت الحجاب ، فتبدت له من  
 خلف الحجاب شمساً يفيض من وجنتها الشعاع . تنسدل غداثرها  
 حتى مهوى القراط ، فرأى الليل والنهار مجتمعين . وحاجبها  
 مصلت إثر آلاف الفرسان مولين تقدح سنايك خيولهم بالشرر ،

وترنو بعينين فيهما إغراء الخلود وسحره . ويتسم فيها عن نضيد  
يفك عقد الروح .

ويزأى ذقنها وضيتها أمام عنق كالماء النмир ، هو لوح به  
مئات للمتأدين . ورأى من خلف النقاب ذلك القمر ، فعزب  
الوعى عن روحه اليقظة . وهو طائر قلبه صيداً للعشق ، ووقع  
فؤاده جريح العشق . وأضحى مسكيناً لا حيلة له . وأعمل فكره .  
في طلب النجاة ، فوقف به العجز دون الحيلة . وبحث عن وسيط  
يستعين به . وكيف يستطيع المرء الاهتمام إلى وجه الحيلة في أمره .  
مهما كان ذا حنكة وتجربة ؟ وبعيد لدى العارفين أن تستطيع  
السكين قطع مقبضها . فالخير ، إذن ، في الاستعانة بوسيط بصير  
بمداخل الأمور ، ليكون زينة مجلس العرس . وبدونه كيف  
يحظى صهر بوصال عرسه ؟ فوقع على خبير ساحر القول ، راوية  
للقصص ، شيخ عذب القول في مضائق الأمور ، يستطيع أن  
يصلح بين الماء والنار . وأرسله إلى والدها ، فقام بالدعوة وحدد  
لها موعداً . وحينذاك قال : نسبي عظيم يضارع نسبك . ومالى  
نظير في الجاه والجمال ، وفى المال والنوال . أجيئك إلى كل ما  
تطلب ، وأصب دون قدميك كل ما أملك . ولى من القطعان ما  
ينطى الوديان وادياً وادياً ، كما تكسو الطريق أشجار القناء . ولى  
فى كل مكان خدام من النساء والرجال كقطعان الإبل والخيول رأساً  
رأساً . وعندى من الذهب والفضة ما يفوق العد والوزن . وأنا

مملوك لك ولا حيلة لى ، والعبد وماله لمولاه . وأنا لك صهر طيب  
العشرة ، أقبل قيد إيسارك لى ، وإذا حزت لديك القبول ، كنت  
سعيداً سعادة يقصر دونها الكلام ، وإلا فلن أستطيع بكل مالى أن  
أحوز ذرة من السعادة .

وتلوق والدها مائدة ذلك الشيخ الشهية ، واستملح هذا  
الشاب ، ووقع فى قيد حبه طواعية بلا شرط . وقال : إنه فى  
الجمال لا مثيل له ، وهو ابن لى ونور عيني . وفى استجابة رغبته  
سكن لخطرى الحائر . ومع هذا فلا عيب على أن أستشير أهلى .  
وذهب فطلب والدتها العارفة حق المعرفة بقدر جوهرتها ،  
وانفرد بها دون الناس ، وأسر إليها بذلك السر . فرضيت هى به  
كذلك ، ونزل فى صدرها منزل القبول . وقالت : هو أمر موافق  
لكلا العاشقين . فحين تصير ليلى فى حيازة ذلك الزوج ستنسى  
بذلك صديقها القديم . وسيتوجه المجنون بحبه إلى أخرى حين يشم  
هذا الخبر ، ونتخلص نحن مما يدهمنا من أمر ؛ إذ غدونا أصدقاء  
القوم .

ولكنها حين أفضت إلى ليلى بهذا الكلام ، عرا قلبها اضطراب  
كاضطراب ذوائبها ، واحترق فؤادها غما ، وصارت بشرتها  
الفضية كاحدى الشقائق حرقه . وارتوى ورق خلودها بدموع  
حمراء كماء الورد . وامتلاً جيها بلرر الدمع ، ونفضت يدها من

خيال وجودها ، واضطربت حائرة في أمر نفسها . لا طاقة لها بمخالفة رأى أمها . وهى بعيدة عن الرضى بقولها ، إذ لا حيلة لها في ترك حبيبها القديم . ولوت برأسها لا تحير جوابا . وبدت العذراء خلف نقاب الحياء ، وعلا وردة وجنتها ماء الحجل . فإذا تقول لأمها وأبيها ؟ وإلام تلجأ إذا خرجت عن رضاها ؟ وإثر هذا الحديث الذى دهم بالخطر روحها ولت باكية متعجبة ، ولم تحاول أن تنبس بكلمة . فقالوا : هذا السكوت رضا . وحررا للخطب رسالة حتى يسعى فى إثـر مقصده . وحين سمع المحب هذه الرسالة رأى فيها سعادته فى الدارين ، فطاول بتاج فخره الثريا ، إذ أصبح كل شيء فى أمره مهيئاً . وحين غطت عروس الغرب (الشمس) نقابها بغدائر الظلام فى لون العنبر ، وأوقدت تجمـر الفلك بحب الحرمل ، وأضاءت المجلس بمصباح القمر ، كان قد هيء مخفل الطرب ، وأقيمت الزينات ، ودعى أشراف القبيلة للحضور ، وجلس كل فى مكانه المهيأ له . وعقدوا قران البلر بالنجم . وأتى الأصدقاء بأطباق الذهب والنقد . لينثروها حين العقد . فكان هناك قوم ينثرون الذهب ، ودونهم جمع غفير يلمونه ، وكانت أكف الأثرياء تصب الدراهم ، فيجمعها الفقراء فى أذيالهم . فهذا يجمع من قطع النقود ملء راحتيه ، وذلك يملأ بالذهب قبضته . والقوم فى سرور لإلـيلى ، باسمون بالأمل ما عدا لـيلى . ورأى الصهر هذه التحفة تزف إليه كما انتهى ، فلعـب برأسه السرور ، مؤملا من

ورائها الخير ، غافلا عما دس له من السم . كطير حوم بعيداً عن  
عشه ، ليقع على كل حب يتاح له ، فوق نظره على حب قد  
هيء ، فهوى إليه ليلتقطه ، فقفز له من فوق الأرض فخ ،  
وأحاطت بعنقه حلقتة الضيقة . ومضى هزيع من ليل الزفاف ،  
ملاً الشوق فيه جوانحه ، فسعى في أثر تلك الشبهة بالبدر في أوجه ،  
في محفها المزينة كالفلك ، وحملها مكرمة إلى منزله ، وأجلسها في  
حجلة الدلال .

وتبأت مقعدها معززة مكرمة ، ناظرة كالقمر وجهها إلى  
الأرض ، لم تفك عقدة عن عقد حواجبها ، ولم تفر بابتسامة عن  
نضيد الجواهر من ثناياها ، بل أمطرت اللؤلؤ الرطب من بكائها .  
وهو دونها ظامئ الكبد ، ينظر ماء ربه من بعيد . وليس له في  
حرقة ظمئه على الصبر يدان ، ولم يؤذن له بعد بالورد . وراود  
نفسه يومين أو ثلاثة ، حتى طغى الشوق فقصم متن الصبر . وهم  
أن يضع يد هوسه على قامة هي بحق نخلة ذات ثمر . فأهابت به :  
انأ عني ، وخذ مكانك دوني ؛ واصبر عن جنى هذا الرطب  
الشهي . فلم يقطف أحد من هذه النخلة ثمرة ، بل لم يرامرؤثمرها .  
فلا يليق أن تكسر منها غصناً ، فهذا هوس بالغ المدى . فأنا جريحة  
القلب ، في انتظار من غدا رهين الأسى والخور ، من فداني بالصبر  
والفؤاد ، وجعل روحه هدفاً لبلأى . وهو بي ضيق الصبر في  
رحاب البادية ، يعاني في شعابها ألواناً من الهم . وعلى خيالي يرمى



الطباء ، وفي هواى يمزق الثياب ، ومن رسم فراقى يقطع نياط قلبه ، فيبحث عن ترياق فى دموع الأطباء . ولم يغفل عن ذكرى لحظة ، ولم يمل إلى سوى . ولم يحظ برؤية وجهى مرة واحدة ! ولم يسر قط إلى سير المتناول . هو قانع من مروقامى بالظل ، راض من التدرج بريشة من جناحه . هذا ؛ ولم أرفع إليه رأسى فى ذلك الظل ، ولم أطر إليه لآثر تلك الريشة . وأنا - بعد - على عهد وفائه ، بما لى من طوق ، ويغلبنى إلى لقائه داعى الشوق . فانظر بعين الاعتبار إلى حاله وحالى ، أنا المبتلاة بوصال سواه ، وعشرة غيره . وإياك وذلك الوسواس ، فلا تغر بطولك ، ولا يبطرك جاهك وعزك . قسما بصنع الخالق المزه ، المبدع فى تصويره على ألواح الثرى ، إذا تطاولت مرة أخرى على كفى ، لأبسطن إليك يدى ، شاهرة على أم رأسك سيف الانتقام . فإذا عصرت عن الانتقام منك ، فى مكنتى أقتل نفسى ، فأزهق روحى بسيف الظلم ، لأنجو من نير عسفك .

وسمع المسكين هذا الوعد من شفاه لا تغتر لإاعن حلول البسمات ، فعلم أن قدم حظه كليل ، وأن الناقة بلا زمام صعبة المراس . ثم وجد نفسه أسير شباكهها ، ووجل قلبه لفراقها . فلم يجد بداً من العيش على حرقة الوجد . واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها ، فكل لحظة للوصال موصلة بالفراق . وتثير فى

— ١٦٠ —

نفسه أوقات الراحة ألوان المحنة . قد اجتثت جذور أمله ، له  
من أسباب الأسى ما يموت به مائة مرة ويحيا . ودام على هذه الحال  
أمره . وكان هذا كل ماله في حياته من خلاق .

وقضى نحبه يوم أن قضى في ذلك الأسى ، يتخذ منه زاداً  
لأخراه .

( ٣٤ )

## المجنون يعلم بزواج ليلي

موسيقى غناء هذا العرس ، الموقع على آلاته من عاج وآبنوس ،  
قد دق على طبل بيانه الثمين ، وأطلق من صدره هذا اللحن  
الحزين ، فقال :

حين عاد من الحجاز ذلك المعاني لطعنات العشق ، المطلق  
الصيحات من تباريح العشق ، مر بحرم الحبيب ، فانتكأ جرحه ،  
وعادت حديقة ذكرياته أنضر ثماراً ؛ وعراه الوله من جديد ،  
فأطلق أناته من السطوح والأبواب ، وعقد من حبال دموعه قيثاره  
وغنى عليها أنشودة ، ووقع من لوايع قلبه لحناً ، باحثاً أينما ولى  
عن آثار الحبيب . وكان كلما جلس على دمن ، أو قام على طلل ،  
فقليل له : إن هذا أثر من آثار تلك الشبيهة بالبدر ، الشهيرة  
بالجمال ، أى ليلي : بلاء روحك ، التى ذهبت بمالك من حول  
وقدرة ؛ وضع جبينه عند سماع هذا القول على تلك الدمن ،  
وأسال عليها من دم الدموع ، وتغنى غزلاً بذلك الطلل ، ممرغاً  
وجهه على الأشواك والحشرات .

وكان يجلس فى حرم الخيام المضروبة ، فإذا قيل له : ليلي  
هناك ، جعل مأواه ظل الخيمة ، واتخذ منها حرماً يطوف حوله .

وأينما جلس في البادية كان ينقش اسمها على الرمل ، ثم يمحوها  
خط بفيض دموعه . وقد رآه شخص مرة ينتقى الثرى ويضع منه  
على رأسه ، فقال له : عم تبحث في الثرى ؟ من أجل من تضع  
فوق رأسك التراب ؟ ! فأجاب المجنون : إني أنتقى الثرى من كل  
أرض ، لعلنى أجدر بريح تلك الجوهرة النقية ؛ وحين لا أجدر يحها  
أضع الثرى على مفرق ألما وحسرة . وسأظل أطلب هذا السر من  
التراب حتى أصل إلى الماء . وحظى من الطلب مذاق الطلب ،  
أما الدر فلا سبيل إليه . فأجابه الآخر : أرح نفسك من المطلب ،  
ومن طى الأيام والليالي في هذه المحنة . إذ أن تلك الجوهرة النظرة  
التي تمضى عمرك والها في التطلع إليها والوجد بها قد اقتلعت منك  
قلبا ، واستبدلت بك آخر حين وجدته خيراً منك ؛ فانفض أنت  
كذلك يدك منها ، واطرح من جانك هوى هذا الصديق . فن  
لم يخلص كل الإخلاص في طريق الوفاء ، فلا تساوى مائة كومة  
من حصيده حبة من الشعير . فبينما تقيدت حين بسطت يدك إليها  
بالعهد ، مدت هى يدها لبيعة آخر . وتحدثت أنت عن ليلى درة  
مكونة ، على حين أمسكت هى لسانها عن المنطق باسمك ، وربطت  
قلبا بحبيب طابت شمائله ؟ وأخذت قلبها من كروب حبك  
واختارت شاباً في مقتبل الشباب من بنى ثقيف ، ذا عقل راجح ،  
وتزوجت به . وباعتك كعقد وضيع القيمة بجوهرة . فهما كاللام ،  
والألف في مكان ما ، وأنت قائم كالألف وحيداً . وهما كالظفر

واللحم رفيقان ، وأنت كالظفر قلع من رأس لصيص . فانهض  
وانتزع من رأسك هذا الخيال ، ودع عنك الهوس في المحال .  
وما معنى الصفاء مع ذوى الدخائل السود ؟ وما جدوى مجازاة  
الجفاء بالوفاء ؟ والحسان كورد (١) الفجار لا يعرفه للوفاء عهداً ،  
ولنما يغتر فيه بلونه ورأثته ، وكل من بكر إليه قطفه . وكيف  
يتخذ الأرغوان من الصفصاف ؟ ! وكيف يجعل من اللص بستانى ؟  
وما دامت قد وضعت أذيالها في قبضة الأشواك . ووردة ليست  
لك خير لك أن تركها مهينة في الأشواك . فكن رجلاً ، وانأ  
بجانبك عن كل امرأة تبحث عن إرضاء نفسها بزواج . ومنذا الذى  
رأى فى نعل واحد قديمين ؟ أو فى منزل واحد سيدين ؟ والمرأة  
مخلوق كله سحر وخديعة ومكر ؛ أما عن إخلاصها فلا لون ولا  
رائحة . والمرأة صعوة جناحها (٢) أحمر أصفر ، وإرضاءها محال .  
فإذا صدف عنها وقعت فى حبال الهوى ، وإن أكرهتها قضت  
ألماً . وهى نخلة ممشوقة القد ولكنها من الشمع ، فما إن تهزها حتى  
تكسر ؛ فلا زهرتها نافعة بالمسك ، ولا ثمرتها حلوة المذاق .  
قد حليت بكل الأوراق والأغصان إلا غصن الوفاء ، فقد قطع من  
شجرتها . سرعان ما تنسى عهدك إذا عانت سواك ، وطريق

(١) الكلمة الفارسية هي كل دوروى ، أى الوردة ذات الوجهين . انظر :

Desmaison: Dict, Pers, Franc, III, P, 219

(٢) عصفور صغير الرأس .

الخلاص من ناقض العهد أن تنقض عهده . فانفض يدك من وصال  
ذلك الحبيب القديم ، مادام قد نفّض يده من حبك . فإذا صبغ  
كفه بلون آخر ، فلا تلون كفك بمحنائه .

وسمع المجنون هذه الأنشودة ، فهض يرقص رقصة الصوفية ،  
ثم صُرع فتمرغ في التراب الرطب بدم دموعه ، كطائر نصف  
مذبوح . ثم أخذ يضرب بالحجر صدره وقلبه ، على أثر فجيئته  
في حبيبه الحجري القلب . وصار أمره نهياً لمائة خسار . ثم سقط  
فاقد الوعي ، فلم تتردد من شفّتيه أنفاسه ، ولم يعد للحياة فيه من  
أثر ، حتى لم يدر أحي هو أم ميت ، وفقد الأمل في بقائه . وبعد  
طول إنعمائه عاد إلى الحياة ، فألقى روحه نهياً لآلاف الغم . وجرى  
في حلقة النفس ، فلم يردده بسوى الآهات التي تحرق صدره  
بسنانها ، واستمر يرددّها قائلاً :

أواه من قلب حبيب حجري القلب ! وآه من قلب حبيب  
ولوع بتحطيم القلوب ! واأسفاً أن تتقد شموع الحسان بصدر نافذ  
الصبر ولهان ! واحزنا ألف مرة أن مزق ذلك الحبيب جيب شرفي  
حين مزق الجيب من لباس الطهر ! فحشا على رأسى تراب  
الحسرة والندم ! قد نفّض كل عقد أو ثقة ، وانضم إلى من لم يكن  
له به عهد . فهو ذو قرين وأنا وحدى فرد . وقد وجد طريق  
الشفاء وخلاني لآلامى . فحرمانى منه يحرق كبدى الكريب ،  
وحظوة الآخرين به تزيد للهيبة انتقاداً . فأنا بذلك الحرمان

كالشجرة السوداء ، وبهذه الخطوة في نزع المحتضر . وقد يسهل على العاشق الوهان احتمال البعاد والإشراف على الهلاك ، ولكن العبء الذى ينوء به هو علمه أن حبيبه فى أحضان الآخرين . لقد ظل دهرأ يستخرج الكنز ، فلما جمعه حمله غيره . وقد غرس فى حديقته شجرة ، فاقتلعها فى غارته جيش . فيا من كنا معاً جليسين ، وقد أخذنا الطريق على الريح حتى لا تسوقى إلينا وجه إنسان ، ولا تحمل ربنا إلى الآخرين ، هأنذا أحيا فى أمل أن أفضى إليك بلوعتى ، وأن أحمل النسيم إلى تلك الحسناء ما به تذكرنى مع من تذكر . أيتها الريح توجهى إليها ، وألق نظرة منى على حسنها ، وقولى لها : يامن هربت بقلبها منى وركنت إلى آخر ، حين تبصيرين ندىمة كأسه ، وتنقلين النقل على الشراب من فمك إلى فم ، تذكرى آنذاك حال مرير الخلق محطم الكأس من ألم القلب ، يعد نفسه للموت من هموم حبك ، ولم يظفر من وصلك بظائل ، وإنما يضرب فى الأرض نادماً صادق العهد .

## (٣٥)

### أسى المجنون بعد زواج ليلي

في هذا الوادى الذى يصهر الروح ، كان الخبير بمراحله  
ومنازله يتغنى أحياناً بألحانه ، مطلقاً أنغام موسيقاه ، قائلاً :  
إن هذا المحب الفريد فى لطفه ورفيقه الجور ، قد أفلت من  
العقل زمامه عقب حديثه عن ليلي وزوجها ، وتحرر من الفكر  
خيره وشره ، وصار مجنوناً بخمر العشق ، وطار صوابه بذلك.  
الرحيق ، وناله الأسى بحرقه على حرقة البالغة بالفراق ، وزاده.  
الهيام اضطراباً على اضطراب ، فنفر من الناس ذوى الطباع  
المسفة ، مولياً وجهه شطر الوحوش النقية الدخائل من حقد.  
الإنس ، التى لا تسعى له بأذى ، فكانت كلها تألفه (١) ، تأنس به  
وتهش له ، فكان ينطلق فى الجبال والوديان ملكاً يرافقه جيش من  
الوحوش ، فإذا استراح فى ظل شجرة ألقى دونه بعض قطعانها:  
على الرمال والأحجار ، حلقة محكمة حوله ، كأنه فيها فوق عرشه .  
وإذا وقع ما يعكر الصفو ، فسرعان ما يستضيئون بعدل ملكهم ،  
فيعود لهم الصفاء والوثام . فلا الظبي بوجل من الذئب ، ولا التيوس

---

(١) من المألوف عند الصوفية أن الوحوش تألف ذوى الكرامات منهم ، راجع

مثلاً: الدكتور عبدالرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية ، ص ٩٣-٩٤



فى خشية من الليث . والحملان لاهية بذيل النمر . وإذا سار  
 وادى همومه جرت حمر الوحش أمامه وخلفه ، وكنس الثعلب  
 له الطريق ، ونثرت الغزلان فيه دموعها تلطف حرة ، وقام سرب  
 من الغربان ظلّة فوق رأسه . وإذا مال عنهم فى مكان ليكتب رسالة  
 لليلى ، أعطاه الظبي ساقه قلما ، وصفحة عجزه ورقة ، وحمل  
 عينيه طيب الخاطر ، ليتخذ قيس من سوادها مداداً . وهكذا كان  
 يسير مردداً ألحانه ، مرسلًا ياقوت دموعه ، تمشى بين يديه أسراب  
 من الظباء رشيقة مطمئنة ، وإذا به فجأة أمام روضة ، وعلى مسافة  
 دون أقدامهم بساط الخضرة ، تنشج كثوسهم بالحر فى لون  
 الورد ، فلوى المجنون من بعيد عنهم عنانه ، ليجنبهم خطر جيشه .  
 وكان فى أولئك القوم من عرفه ، فناداه متغنياً بالشئاء عليه ، قائلاً :  
 ياطلبة من جن جنونهم من العشق ، ومن يحياه يتألق بنور الشق ،  
 أيها السالك طريق التجريد ، وحيد المسير فى مضايق التوحيد ؛  
 أيها المصلى على رأسه حسام الأسى وهو دون الحسام مقيم  
 كالجلجل ؛ أقسم عليك بمن جنت بحبها ، وبمن فقدت من جرائها  
 الرأس والقدم ، وأقسم عليك بمن لا تعرف الحياة إلا فى كنف  
 وصالها ، أقسم عليها بشفتها الياقوتين حسناً ، وبغدايرها الملتوية ،  
 وبعينها النجلاوين كعيون المها ، الفاضلتين بالسحر والحر ،  
 وبجدائل شعرها فوق قعر أذنيها ، ألا تنأى عنا بجانبك ؛ فنذ مدة  
 ونحن على شوق إلى لقائك بعد البعاد ، واليوم ظفرنا باللقاء عقب

السفر ، فلا تستبح ، إذن ، قطيعتنا ؛ وقد وصلنا إليك فابق معنا لحظة ، لنلقى عن عاتقنا ثقل الغم .

ورأى قيس حاجته ، وسمع منه آيات رضائه عنه وحبّه له ، فترك جيشه في مكانه واتجه نحو هؤلاء القوم ، وسألهم : أى الديار دياركم ذات الرونق والطيب ؟

فأجابوا : نواحى الحجاز مقصد كل تقي ، وطالما قصدها لىلى ، وسارت هناك بمحملها ، وجرت في تلك الرسوم أردنها تنفح المسك .

وسمع المجنون قولهم ، فوقع كالظل على الأرض فاقد الوعى ، وصاح متغنياً بهذا النشيد :

أيها الرفقاء القاطنون بتلك الديار ، ذكرتموني بالحبيب ، ألا فداء لكم روحى وقلبي ، ودون أقدامكم رأسى ! ليس بى من هوى لقصد الكعبة ، وما فى نيتى القيام بالحج ؛ وإنما الطواف بلىلى ، وسوى ذلك فضل . وما لى من جدوى من الطواف بالكعبة ما دمت لا أستطيع أن أمر بمنزلها ، فحجى وعمرتى رؤيتها ، وبلونها لا حج لى ولا عمرة . وسهم وصالها المسلود من الجعبة تدور به الرأس طوافاً بالكعبة . فأنا الظامى إليها بوادى الأسى ، فكيف أروى من زمزم ؟ وأنا الطروب فى زمزمة همومها ، أجريها هائماً على لسانى ، فتجرى من دموع عيني زمزم أخرى . وأينما

أسر فغائتي من السير وصالها ، وكل مقام لا يضيئه مصباح يحياها  
فهو النار ولو كان الجنة . فليلي - أينما حلت - هي المراد ، لا  
أطلب بها سلمى ولا السواد (١) . وسأظل على ذكر منها ، لاهايا  
عن الغيد حتى أطفئ أساى فى أحضانها . فلا رأى عدو ما عانيت  
من حبها ! لقد وقعت فى مخلب العشق غير مبال ، ونبتت فى  
شرح الشباب ، وأفلتت من برائن العشق . وأنا فى انتظار الوصال ،  
وروحى من الفراق فى وبال ، أضحت هى نقداً لغيرى ، وصارت  
لقمة فى فم سواى . فلها رفيق حبيب ، وأنا ناء بعيد ، وتنعم هى  
بالوصال ، وأظل غريباً مهجوراً .]

هكذا قال ، ومرغ فى الأرض جبينه ، مرسل الآهات من  
صدر ممزق ، باكياً بدموع من الدم ، حتى وقع من بكاءه فى  
إغماءة . وحين أفاق فى المساء كان الفلك قد استبدل بلباس النهار  
لباس الليل ، فصار ذا لون واحد وهو الخلداع ذو اللونين ، يحتال  
لمراذه وهو فى قوة النمر ، فخرج قيس من حلقه رفقاءه ، وانضم  
إلى سرب الأطباء ، تكاد روحه تزهرق من الهجر . وأمضى الليل  
كما كان يمضى كل ليل .

---

(١) هى نفس الكلمة فى النص الفارسى ، ومن معانيها فى العربية : المال الكثير ،  
بوساد البلدة قراها ، وسواد القلب حبه كسودائه وسويدائه .

(٣٦)

## الحمامة المطوقة

عندما بزغ الفجر ، وحال لون نجوم الفلك ، واسترسلت من القبة اللازوردية على الأرض أشعة "مبهوتة" ، أفاق المجنون من غيبوبة نومه ليجد في طلب حبيبه ، وسار يردد لاسم ليلي حتى انتصف النهار . وهبت سموم الهاجرة ، فأخذ يقع وينهض متعثر الخطى فوق الرمال المتوهجة ، ظامئ الشفاه ، رية من خنجر الفراق ، يعانى فى صدره من آهاته خناجر الفراق : وإذا به يمر على قرية كجنة الخلد والقرار ، فيحاء كأنها وسط الوادى القائط نار الخليل (١) . فأوى منها إلى حائط قصير جلس عليه أسود كالغراب من لفح الشمس . وأقبل رب الحديقة عليه قائلاً فى لطف : أيها الرفيق ! قد صرت أسود كالغراب ! فكُن ضيفي ولك المنة ، وزين بمضرك عشي . فليس الجلوس على الحائط بمقام لك ، فخذ مكانك من البيت فهو بيتك . ولا عليك إذا صرت أسود ، فجة العين الصحيحة سوداء .

فتأثر المجنون بلطف هذا الشاب ذى المروعة ، وخف إلى

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ( وقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) ،

سورة الأنبياء ، آية : ٦٩ .

منزله ، وقد قال حقاً سيد العرب : « نحن العرب نكرم الضيف » ، وبسط المضيف للضيف الكريم مائدة نواله ، وأعد له على المائدة شهيداً صافياً وشواء من الطير . ولم يمد المجنون إلى المائدة يده ، وامتنع عن تناول الطعام ومذاقه ، قائلاً : « ما هذا طعامي ، ولست بقادر على إساغته ، فليدين الناس صيد الحيوان والاعتداء بذبحه ، وأما أنا فكل حي حرام علي ، ولدا أُلْفِي كل الحيوان . وإذا أنشبت في الحيوان أسنانك فلا مناص من نفوره منك ، طلباً للنجاة . وأجِدني أعاف شراب البلح ، إذ هو قِيءُ النخل ، وكيف أطعم قيثاً ؟ ويُمرُّ في حلقى عصير النبات الحلو . وإنما يحلو في ذوق النبات (١) .

فكانت الأعشاب فطوره ضحى ، وكانت كذلك عشاءه مساء . وحين يحى الليل رونق النهار ، لبس رب البيت لباس النوم

---

(١) من المقطوع به أن بعض المتصوفة كانوا يعفون ورعاً عن أكل الحيوان راجع مثلاً :

Massignon:Essai , P, 233

وما أشبه حال قيس هنا بما روى من أن رابعة العدوية « صعدت جبلاً ، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان ، وبقيت حوالها آمنة كل الأمان . وفجأة أقبل الحسن البصري فقرت الغزلان . فقال لها : يارابعة ؛ لماذا فقرت كل الغزلان مني ولم تفر منك أنت ؟ فسأته : ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فقال : أكلت طعاماً طهى بالزيت . فقالت رابعة ، يا من تأكل دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك ؟... » (الدكتور عبدالرحمن بدوي : رابعة العدوية ، ص ٩٤-٩٥) كذا المطار : تذكرة الأولياء ج ١ ص ٦٥ .

وأوى إلى حجرته . وكانت في صحن الدار نخلة سهلة الغذاء نفيسة  
 الدخل . فهي تقنع بقطرات السحاب زاداً ، ودخلها في رأسها  
 وسعفها وعصيرها وعذقها . وتدنو أعذاقها مذلة القطاف ، يحلو  
 بها ريق من أمرت حلوقهم . وعرجونها ذو شماريخ من ذهب ،  
 قد علق بها عقيق سائل ؛ فهو في اللون عقيق ، ولكنه في الطعم شهد  
 يغرى أفواه الطامعين . وقدها شبيه بقذ الفاتنات الغيد ، وعلى  
 رأسها الطيور تتلو أناشيدها . قال المجنون إليها . ووضع رأسه على  
 جذعها ، متذكراً قد ليلى ؛ وأخذ يبكي قائلاً : لا تطيب الحياة على  
 نأى الحبيب ، وإنما هنا عيش من يتمتع من حبيبه بنصيب ،  
 فيرفع رأسه مزهواً بتقبيل أقدامه ، وقد طويت العالم في هذا  
 المطلب ، فلم تظفر يدي منه بقدم ولا أثر . واليوم من ذا يعانى  
 مثل حرقى ؟ ومن له مثل حظى في ظلمة الليل ؟

وبينما هو على هذه الحال إذا طائر في سعف النخلة يرفع صوته  
 صادحا بالخان نفادة ، ويردها هتوفا ، تنال من القلوب الصم  
 كالصلد ؛ وكأنما كان يوقع الخان صداحه على ريش جناحه  
 المهيض ، باكياً يشدو كل لحظة بلحن جديد ، من غير عود على  
 أعواد الشجرة . وكان يطلق في كل آونة من همومه تغريدة كان  
 لها في كل ريشة من ريشة صدى ، حتى ليظن أنه أضحى وكله  
 أنات أشجان موقعه على أوتار جناحيه ، أو أنه صار بما يعمره من

أسى الآهات عوداً وعروقه فى العود أوتار . وفى كل ظفيرة من  
زفرات أساه كانت عظام جناحيه مضارب لأوتار فؤاده .

وأصغى المجنون إلى شكواه ، فغدا مثقلا بأشجانه ، وكلما  
صارت صدحات الطائر أكثر حدة انفطر لها قلب المجنون  
وتصدعت أركان روحه ؛ وقصرت به طاقته عن سماع تلك  
الأنات ، فسعى يثبو على رأسه تراب الأسى ، حتى وصل إلى رب  
الدار ، ودق عليه الباب قائلاً : يارب الدار ، ما هذا الأمر الذى  
حُمّت به روحى هذه الليلة ؟ وأى ألم عرا هذا الطائر ؟ وأية حرقه  
يعانى ؟ وما ذاك السهم الذى به تمزق صدره ؟ فما أشد ألمه فى  
أناته ! لقد تمزق صدرى لإربا على أشجانه . وأخاف أن تفارق  
منها روحى البدن . وهو يكشف بنوحته عن سر جواه ، فبهيج  
منى قصة الآلى .

فأجاب رب الدار : كانت هنا حمامتان مطوقتان ، قد حسن  
منظرهما ، يعيشان فى صفاء . قد اتخذا لهما هذه التخلّة عشاً ، وبنا  
لهما فى رأسها منزلاً . وكانا فى المنزل أليفين يغردان ألحان الطرب ،  
يغدوان معاً يطلبان الحب ، ويردان معاً الماء ، لم يعتريهما قط ملال  
من الصحبة ، ولم يعانیا أذى الهجر . قد طابت غدراهما  
وروحاهما ، وقصرت يد الدهر عن أن تنال بالسوء أردانهما .  
ولكن منذ يوم أو يومين وجد طريقه إلى عشهما بازوار بالصيد ،  
ففرق بينهما ، وبسط كلاهما جناحيه للهرب ، وهجر كل منهما الآخر

وعاد الباز لعشه ولم يعد أليف الحمامة ، ولا يدرى ما تم فى أمره :  
أهو حى أم وقع فى مخالب الباز . ففى قلب هذه الحمامة من نأى  
أليفها لوعة ، وبه من فراقها — ولا شك — حرقه .

وسمع المجنون هذا اللحن من رب البيت ، فأطلق من أحشائه  
صبيحة زلزلت القرية فاستيقظت من نومها ؛ وبكى قائلاً : هذا  
هو كل دأى ، ولم يعان هذا الحرمان أحد مثلى ! !

ثم سار شطر النخلة وجلس تحنها ، وأخذ يتكلم بفصيح لسانه إلى  
عجماء اللسان قائلاً : أيتها المرجانية الساق الياقوتية المنقار ؛ رأسك  
بندقة ، وجناحان خضراوان كالفسثقة ، فلونك — ما حييت —  
كرقعة الساء ، وأنت ياقوتية العين عنبرية الطوق ، ورأسك محاط  
بطوق الشوق . أنت ناقوس دير الحب ، والمطرية على موائد  
المعوزين ، توقظين بوعظ الحانك سكان هذا العالم ، فينتبهون على  
بليغ أشجانك . فأحياناً تعظيهم فى جوف الليل . وأحياناً بعد غفلة  
النوم فى الصباح ، أسأل الله بسابق عنايته ، وبلاحق ما لا يتناهى ،  
من فضله ، أن تجدى أيتها الحمامة من تفتقدين ، فتستعيدى ما  
كان لك من هناءة ، وتلوى موصولة الهناءة إلى القيامة ؛ فأنا  
أيضاً شريك لك فى الرزء ، باق على حالى من فراق الحبيب أبد  
الدهر . فقد قضينا عمراً معاً صديقين وفين ، يفدى كل منا الآخر  
بنفسه ، قد سكن خاطرنا فى مهد الوفاء ، ونحلا طريقنا من شوك  
الهجر ، ولم يعل عيانا غبار الأسى . وكانت قلوبنا مكلومة من



أذى الواشين ، ولم نكن نلقى بالآلى من يعرض لنا بالنصح . كنه  
معاً روحين فى بدن ، نتوارى من عيون العدو والصديق ، فرمتنا  
الأيام بسهام غدرها ففرقتنا . وها نحن أولاء نقاسى الأهوال .  
هيات ! وماذا قلت ؟ ! هذا كذب ، وشمس الكذب لا تضىء .  
ففؤادى كالشقائق حرقه ، وهى خلية البال كالوردة النضرة .  
وهى فارغة القلب ، وأنا جد مشتاق . وهى ذات أليف ، وأنا  
وحيد لا أليف لى . وهذا البلاء للمصائب بالعشق أشد هولاً من  
شجون الفراق . وقد ملأت العالم قصة أشجاني ، على حين هى  
لاهية فى أحضان سواى . ونزيلة القبور خير لدى العاشق منها فى  
يد غيره . والثمرة التى وقعت فى أرض الحديقة أفضل من تلك  
التي اختطفها عادياً الغراب .

هكذا قال ، وأفاض من عيونه دماء قلبه سيلاً ، وافترق عن  
رب البيت ، وسار إلى حيث لا يدري أين استقر .

## (٣٧)

### رسالة ليلي إلى قيس تعتذر عن زواجها

أخرج بائع الدر من درج القصة جواهر الكلام ، قائلاً :

ليلى تلك الدرة فى صدف شرفها العظيم ، ودونها الدر المتألق  
فى أصدافه ، عروس حجلة الجمال ، وسيدة القصر الصبيحة  
المحيا ، تغزو بحسبها قمر السماء ، وجمالها لإكليل على هامة  
النيرين ، كوكب فى برج الشهرة ، ونور حرم الجلال ، ظبية  
الدمن وغزال الأطلال ، عقدها الثريا وخلخالها الهلال ، حين  
انتظمت فى سلك آخر ، وصارت حلية تاج سيد عظيم ، فاتخذت  
قريناً ذلك الجليل القدر ، المشهور بنداى الآفاق ، لم تزل على خجل  
من أمرها ، غضبى من أجل حبيبها ، وجلة أن يقع فى ظنه أو  
يطوف فى خياله أنها أدبرت عنه ، فاتخذت باختيارها زوجاً  
أنست برفقته ، وأذاقته رحيق ريقها ، وأسلمته مفتاح كنزها ،  
واستسلمت له فيما يراد منها . فلم تر وجهاً للرأى غير أن تشرح له  
أطوار القصة طى صحيفة مطوّلة ، سلسلة التعبير كصفوف  
خواتمها ، محررة بدم العين السائل من الأهداب ، ليكون الألم  
عنوانها ومضمونها ، وترسلها إلى المجنون ليرى ما تعاني من أسى  
فى وحدتها ، وما يعتلج بقلبها من شجن ، ويستبين منها حالها

وانفطار قلبها . وكان من دأبها أن تكتب لنفسها عن همها .  
 وحين ورد لها هذا الخاطر كتبت هذه الرسالة التي تم عن جوى  
 الصدر : بدأتها باسم الخالق سبحانه ، مانح السكينة لمكلومى  
 القلوب ، الذى جعل من حاجب الحسنة قوساً ، ونشر من لحاظها  
 سهام الفتنة ، والذى حلى حدود الغيد بالورود ، فهاج بها شوق  
 يلبل الروح ؛ دواء آلام ذوى الآلام ، ومرهم جروح الصدور  
 السقيمة ، يحرق القلب والدين ببرق الجمال ، ويضئ العين بصبح  
 الوصال .

و حين فرغت من ديباجة الرسالة أخذت تتحدث عن حال  
 نفسها ، فقالت : هذه الرسالة تحكى ما استجد فى قصتى ، وهى  
 موجهة من عاشق ولهان إلى من اغتصب قلبه . هأنذا قابعة فى  
 زاوية اليأس ، على حين تقود راحلتك فى عرض السهول والوديان ،  
 فقدمى فى أذيال الغرم ، وأنت فى مضايق اللوم . وليس لى من  
 ذنب فى أنى لزمت الصمت ، وفى أنى لم أقدم إليك بعذب  
 الحديث ؛ فأنا رهينة شباك ، فكيف أدنو منك وأنت الطليق من  
 الأشرار . أيها الفار من الحلال إلى شعاب الوديان ، لا رفيق لك  
 فيه سوى الغزلان . ولكى تنجى الطير بلواعج أشجانك تردد  
 حرفين (١) من اسمه ذى الحروف الثلاثة . أيها الحاث الخطى بعيداً

---

(١) من أسماء الطير فى الفارسية : آهو ، والحرفان يرددما قيس هما : آه .

من الأهل ، تسابق الأوابد عدوًّا ! ! أسرع إلى مقبلا ، وعد  
نحوى لتشعل النار في ذوى العيون العمى من الحساد . أيها النائر  
الدموع على أسراب الظباء ، وعلى قلبك من عبء الفراق جبل ! !  
أطلق نفسك من ربة هذا العبد ، ليتضح الأمر فيما يكون . أيها  
النائي بجانبك عن الخبز والديباج ، ويطيب لجنبك المقام على الأشواك  
والصخور ! ! كيف طويت عنا كشعًا ؟ وكيف أنت على  
الأشواك والصخور ؟ ! من ذا يقاسمك الوسادة ؟ ومن رفيقك على  
الفراش ؟ ومن يزورك مساء في مضجعك ؟ ومن يتذوق العذب  
من شهد شفاهلك ؟ ومن يمس براحته جسده حين تستريح ؟ ومن  
يأسو جراح أذاك ؟ ومن يرى كف قدمك ليلا لينزع ما علق  
بها من الأشواك ؟ ومن يبسط لك المائدة ضحى ومساء ؟ ومن  
يقاسمك الطعام غير الوحوش ؟

وعلى الرغم من كل هذا ، عليك أن تقوم بالشكر ، إذ لا  
ريب في أنك أنحف مني حملا . فكل ذرة من جبال غمى ثقل  
مائة جبل ؛ فمن نصيحة الأب إلى جور الأم إلى الكروب التي ينوء  
بها الرأس ، إلى ما فُرض على من أمر الزوج . فإذا تأوّهت متجهة  
بنظري إليك ، قال : من أجل من هذه الآهة ؟ وإذا بكيت من  
لوعة الحرمان ، قال : ليس لبكائك على سلطان ، وإذا أردت  
أن أخطو خطوة خارج البيت ، قال : لا تتجاوزى عتبة الدار ،  
وإذا أدبرت وجهي إلى عين ماء ، قال : أشيحي عنها بوجهك .

وإذا انتحيت ناحية في جانب السهل ، قال : إلام هذا الدوران ؟  
 وإن الدهر الذى تعهد وردنى بالماء منذ أطلت على الوجود ،  
 وفتحها برعمة صغيرة بين حاد الأشواك ، لم يجعلنى فى وئام مع  
 الزواج (١) ؛ فهو أمر لم آتته عن اختيار ، وكنت خاضعة فيه  
 لسلطان والدى . ومهما نفذ إلى قلبى من شوك ، فكيف يتسنى لمن  
 رأى ورد خدك ، أو تنسم ريحك على مهب الصبا ، أن يفتح  
 ناظره على إنسان سواك ، أو يصحب امرأ غيرك ؟ فزوجى لم  
 يشاركنى قط مضجعى ، ولم تمس رأسه رأسى ، ولم يجذب بيده  
 كفى ، ولم يطأ بقدمه أرضى . وهو قانع منى بالنظرة من بعيد .  
 وقد أضحى نهاره من الأسى حالكا كالليل ، ودق جسمه من  
 الألم كالشعرة ، وكادت الشعرة أن تبتر فى صراعه مع الدهر  
 ولكنها مع ذلك سبب احتجابى عنك ، فما أطيب أن تسقط من  
 يديننا ، كى أرى وجهك بلا حجاب ، وأنأمل شمسك بدون  
 سحاب » .

وقد بدأت الرسالة على استيحاء ، وبدأت فى آخرها سافرة  
 الغاية ، ثم ختمتها بطابع حبها ، واضعة فى نهايتها حلقة ميم السلام ،  
 ثم طوتها كعلبة لؤلؤتها روح العاشق ، ضناً بها على عدول يترصد

(١) يدعو الصوفية إلى العزوبة للتفرد للعبادة ، انظر مثلاً الدكتور عبدالرحمن  
 يدوى : رابعة العدوية ص ٥٣-٥٧ ويدعو شاعرنا كذلك للعزوبة فى قصة سلامان  
 وأبسال انظر :

— ١٨٠ —

الدوائر ، وكتبتُ على الرسالة من فيض دم العين : ليرحم الله  
تعالى امرأً لديه من المروءة والتضحية ما يسأل به عن خبري ، أنا  
التي مللتُ الحياة في منزل الغم ومقام المهجران ، وفي مدينة البلاء  
وملك الحرمان ، فأسأله أن يوصل إلى قيس خطاب الوفاء ،  
ليقف على حال أسيرته .

## (٣٨)

## قيس يتسلم رسالة ليلي

فرغت ليلي من رسالتها ، وختمتها بالغالية ، وخرجت في قوامها الممشوق من خيمتها تبحث عن رسول ، وتخطر بين خادمتين لها كأنها الحجلة رشاقة . وكانت خيمتها تطل على مروج قريبة من عين ماء فضية يرد حوضها الظامئون في الصحراء ، فزينت بمقدمها تلك العين ، وغسلت يديها مما سوى الحبيب ، وجلست غافلة عن نفسها ، عينا على الطريق ناظرة ، كأنها في صفائها عين الماء ، لعلّ امرأ يقدم إليها ، ويكون على يديه تحقيق سؤالها . وفجأة انكشف غبار الطريق عن عربي على راحلته ، ليس بريح وهو أسرع من قائظ الريح ؛ وليس بسيل ولكنه أسرع عدواً من السيل الجارف . فلم يكد يرتد إليها طرف حتى أصبح منها كالكعبة من زمزم ، ونفض عن أذياله غبار الطريق ، وأناخ راحلته على حافة العين ، وقرب من المورد كالخضر (١) ، فروى منه وجلس جلسة الخضر . فقالت له ليلي : من أين أنت ؟ فإني أجد منك طيب ريح الصداقة — فأجاب : من أرض نجد الطاهرة ،

---

(١) كالخضر في وردة عين ماء الحياة التي يتجدد من يردّها ، كما في أسطورة الخضر المطابقة لأسطورة الإسكندرية .

وغبار أرضها كحل الأبصار . فمن تلك الأرض نبتت زهرتي ،  
وفيهما تفتح كالوردة قلبي — فقالت له ليلى : هناك بابائس  
عمر الخلق ، لقبه المجنون واسمه قيس ، يدور في تلك الديار ضالا  
مكروباً عليه مظهر الحداد ؛ ألك به معرفة ؟ وهل لك من سبيل إلى  
التحدث إليه ؟ — فأجابها : نعم ، فأنا له صديق ، مستظل بكنف  
وفائه ، مشمر عن ساعد الجد في محبته . وطالما تحدثتُ إليه ،  
أسرى عنه الهَم ، وأدعو الله أينما كنت كي يسكن خاطره .  
فقالت ليلى : وكيف حاله ؟ — فأجاب : دائب على إرسال  
الأنات من العشق ، دائم النفور من الناس ، فارّ مع الوحوش ،  
مستريح إليها ؛ فحينئذ يتلو من القوافي ما يلهب الصخور ، ويسيل  
على الجلاميد من حرقة كبده ما يصبغها ؛ وحينئذ يهذى في ركن  
غار ، وعلى وجهه من الأسى غبار . — فقالت ليلى : أو تعرف —  
أيها العاقل — من هي التي وقع في حبال حبها ؟ فأجاب : نعم ،  
من أجل ليلى يرسل كل لحظة من ناظريه سيلا . فليلى حديثه حين  
ينهض ، وليلى همه حين يبكي . وهذا الاسم غذاء روحه ، اكتفى  
به عما تجود به الطبيعة من غذاء على مائدة طعامه ، وهو كل ما  
يجرى على لسانه ، وهو غايته من لسانه .

فأسالت ليلى من جفونها دموع الدم ، وأبرزت من ضميرها  
كمين السر ، قائلة : أنا طلبة روحه ، واسمى هو الذي يجري على



لسانه . ومن لوعتي احترق صدره ، وعلى ذكرى طاب بستان  
خاطره . وأنا التي أشعلت نارى بفؤاده ، وأضأت بنورى جوانب  
عيشه . وأنا كذلك التي صيرت أنحاء روحه خراباً ، وشويت  
أضلعه على حر جمرى . ولكنه يجهل ما أنا عليه من أسى يشرف  
بى على الهلاك ، ومن لوعة تلفح كيدى . وروحي فذاك إذا  
استطعت أن تنهى إليه من أخبارى . ففى رسالة مسطرة بدم مهراق  
من القلب ، فناشدتك بما له عليك من حق الوداد إلا حملت منى  
هذه الرسالة ، لتسلمها إليه يداً بيد . فقم بما أنت له أهل من دين  
الوفاء ، وعد إلى بجواب هذه الرسالة . وستحمل إليه أسى وتعود  
إلى بلوعة ، وستسلم له شمعاً وتأتى إلى بمصباح .

فنهض ذلك الشاب ذو المروءة قائلاً : يامن غمرت بالأسى  
قلب المجنون ، حق لى الفخر أن أبذل جهدى ، وأن أسلم راضياً  
روحى فى سبيل نعيمك . فكل حرف من رسالتك هو لدى المجنون  
الحياة ، بل هو من الحياة أفضل . ولا أعلم يداً أسديها أعظم من  
حمل هذه الرسالة إليه .

فتبدل ما لبلى من أسى النفس سروراً ، ونشرت من جيها  
مكون تلك الرسالة ، ووضعت فى طياتها رمزاً للشوق : شعرة من  
سود ذوائبها وعود عشب جاف ، تريد بذلك أن تقول : منذ اليوم  
الذى انفردتُ عنك صرت نحيلة كالشعرة ، شاحبة كالعود .

ثم أسلمته رسالتها إلى من شُهر بالعشق ، فخف بها من مكانه إلى ناقة أليفة أسفار ، وأخذ يقطع الطريق إلى مقر المجنون . ووصل سليماً معافى ، فأخذ يعدو يمينا ويساراً ، لا يعثر للمجنون على أثر ، فكاد فؤاده ينفطر غماً . وسار إلى ظل شجرة ليستريح برهة من جهد الطلب ، فرآه صريعاً كالثمل (١) ، قد أفلت من يده زمام العقل ، ليس بنائم ، ولكنه مغمض العين ، يقظان القلب ، متحرر من ذاته . فعينه هناك وروحه في مكان آخر ، وهو باد هناك ولكنه مختف في مقام آخر ، قد خرج عن دائرة القمر والشمس ، وتسامى عن نطاق الفلك ، وانقطع عن دعوى العشق ، ولوى عنانه عن المعشوق ، وغرق في بحر العشق ، وانصرف عن كل شيء سوى العشق (٢) . وعلى الرغم مما بذل الرسول من حيلة كي يلتفت إليه ويعي له ، لم تأت حيلته بجذوى ، ولم يصل بصياحه إلى مسمعه مهما ارتفع به . فأخذ يحدو جهير الصوت بأغنية تردد صداها في أنحاء الجبل ، وكان حداؤه باسم ليلي ، فسرعان ما وصل نداؤه إلى قلب المحبوب ، فأفاق من غيبوبته ، وعاد إلى نفسه على سماع ذلك الاسم ، وقال : من أنت ؟ وأى اسم تردد ؟ وما غايتك من ترداده ! — فأجاب : أنا رسول ليلي إليك ، خصصني

---

(١) يصف الشاعر هنا قيساً وقد عرته نوبة وجد صوفى .

(٢) أى المشق الإلهى الذى كانت ليل سبيله إليه ، انظر فصل ٤٨ من هذه

الترجمة ، ثم انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتاب : الحياة العاطفية .

بحظوة تلك الرسالة ، وليلى أنيس روحك ، ونور عينيك ، ومثيرة دموعك — فقال المجنون : ولكنك لم ترع حرمة الأدب ، إذ لم تطيب شفاهك بالمسك وماء الورد ؛ ومن أنت والنطق بذلك الاسم كل لحظة ؟ ولم تلك المرأة ؟ فأجاب في عجب : بل أنا لسانها وترجمانها إليك ، أحمل منها رسالة كالدرّ المكنون ، أقدمها برهان إخلاصى لك . وها هى ذى الرسالة وكل كلمة فيها هى من رشح شباة قلمها .

ولما سمع المجنون اسم الرسالة مشى على رأسه كالقلم ، وجلس أمام الرسول جلسة ذى الحاجة ، وتسلم منه رسالة الوفاء . ورأى اسمها على عنوان الرسالة ، فقبلها وأمرها على عينيه ، ونفذت إلى رأسه نكهة الوصول ، وأطفأ ذلك النسيم مصباحه ، فسقط فاقد العقل والوعى ، وفقدت عيناه النظر ، وأذناه السمع ؛ وحين عاد إلى نفسه أخذ يعدو بنعمة الشوق ، قائلا : ليست هذه الرسالة من الحبيب زهرة فى روض الأمل ، ولكنها روض ذو مئآت من الورد للقلب الكريب . وهى على مائدة الوفاء لقمة منحها سائلا على تلك المأدبة ، مختومة بالمسك كنافجة الطيبة ، كأنها ذؤابة من غدائر الحبيب ، وهى رقية ذوى القلوب السلية ، سجل بلاء أسرى البلاء ، مرقومة بقلم حسن الخط ، فيها طراوة الجدة .

وحين فض الرسالة أطلق من رأسه ذلك النشيد : ليست هذه

- ١٨٦ -

الرسالة باكورة ربيع وكفى ، ولكنها بستان من البنفسج ، يشرح الصدر نقش قلمها ، ويشقى القلوب ما تحلى به ورقها ، مسطورة على صفحات الشوق من قلب كلهم قوسه الألم . وكأن صفوفها تمال من العنبر اتخذت طريقها فوق صفحات من الكافور ، وتحمل كل نملة منها إلى عشها قلباً من قلوب البائسين كأنه في فها حبة . ولكل حرف من حروفها مذاق الخمر وشكل الكأس ، فإذا حسوت من تلك الخمر جرعة أخذت ترقص ثملاً . وتبدو سطورها واضحة كأنها سلاسل من المسك ، كل سلسلة منها قيد لأقدام ألف عاقل .

ثم شغل بقراءة الرسالة ، وحلى بها جيد روحه . ورأى منه الرسول ذلك فقام إليه يرجوه في كتابة الرد . فقال قيس : كيف أسطر جواباً ؟ وإنى لأكتب على وجهى بدم دموعى ، وأنا فارغ من الورق والقلم ، ورقى الرمال والقلم لإصبعى .

فامتطى الرسول في الحال ناقته ، وسار مرحلة حوالى المكان ، وأسرع في كل صوب ، حتى وجد في المساء طريقه إلى قبيلة ، وظفر منها بما كان يطلب . وحين نشر الصباح أعلامه ، نهض ولوى عنانه شطر قيس ، ووضع أمام الكتب أدوات الكتابة ، وأخذ المجنون يخط رسالته ، وابتدأ قائلا :

(٣٩)

## رسالة المجنون إلى ليلي

ديباجة رسالة الأمانى ، وعنوان صحيفة المعانى ، لا يليق  
أن يكون غير اسم مسبب الأسباب ، الذى به تفتح أبواب الغم ،  
وهو مطلق يد التدبير ؛ الحى واهب الروح وقابضها ، مقصر يد  
كنز العدم . من أسعفة بنعمة الوصال سما برأسه فوق الفلك ، ومن  
أحرق صدره بالهجران أحاطت بغلات وجوده النار .

وعندما فرغ من حديث المقدمة أعرب بألحانه عن سر قلبه  
المكلول ، قائلاً : هذه الصحيفة آية المحبة ، من مصاب القلب  
إلى حبيبة القلب ؛ أى من ضجيج الأشواك إليك أيتها الوردة  
الناضرة ، ياشبهة الربيع نضرة وابتساماً ولكن فى غير عيون  
البائسين . أنت حديقة ولكنك مجثم غراب ، مرهم لكل الناس  
ولكنك لى داء . يا ذات الوجه الخبيء دونى كالكنز ، فى حين هو  
در على أذيال الآخرين . أنت سحاب حظى منه أحياناً البرق ،  
ولا ينالنى منه قط غيث ؛ بك تصبح كل أرض جنة فيحاء ، ولكن  
أرضى بك رطبة بدم الدموع ، وكل ما تولينى من عناية أنك  
تحرقين ببرقك حصيد أحشائى ، فرفقاً بمحرق الحشا مكروب ،  
وأفيضى عليه من معين لطفك يا عين ماء الحياة ، وأنا دون فيضها

ظمىء أكتوى بمئات الجذوات ذات اللهب . نعم كان الخضر أهلاً  
لورود عين الحياة ، فلا ضير أن يموت بفوتها إذن مائة إسكندر (١) .  
وقد احترق الإسكندر ظمأً إلى تلك العين ، وجف دونها كأنه  
نافجة ظبية ؛ ولكن أين ألمه مما أقاسى أنا رهين ظلمات بحر البلاء ؟  
في اللحظة التي وصلت إلى فيها رسالتك تضوع بعطر الوفاء من  
قطرات قلمك ، وضعتها على عيني الفائضة بدم الدموع ، وأنزلتها  
من صدرى في مكان الروح ، وجعلت منها رقية لقلبي المعمود ،  
وغذاء للعين ، وقوتاً للقلب . وأسلت بكل حرف قرأته منها قطرة  
من دم القلب . وأثارت نقوشها في صدرى ألحان الأسى . وكانت  
كلماتها نواة السحر ، تمت بها أشجاني وطغت بها على الهموم .

وقد قلت : إنك بدوني تعانين ألم الوحدة ، ولم تنسيني قط ،  
ولكن من الإنصاف ألا تزهي بعشق إنسان وأنت في أحضان آخر .  
وما جدوى الحديث عن الإخلاص إذا تدنست شفاهك بقبلات  
سواي ؟ وعلى افتراض أنك فوق النقص والدنس ، فأى مجال في  
ذاك لظنون سوء لدى العاشق المسكين ! ، فهو في كل لحظة  
أسير مئات الشكوك . وكل شبهة لديه دليل ، وكل ذبابة نافقة  
هى في خياله فيل حى . فقد يتوهم من الظنون ما يقتلع الجبال  
فتأوى جبال الهم إلى صدرى . ويرى في النملة ثعباناً ، فيحس

---

(١) هى عين ماء الحياة التي شرب منها الخضر فخلد ، ولم يستطيع وردها الإسكندر ،  
راجع لهذه الأسطورة : الشاهنامة ، تعليق وتحقيق الدكتور عزام ج ٢ ص ٢١ .

فذلك الثعبان ألف ناب في قلبه المنفطر . وإذا سقط طائر يلتقط  
الحب على سقف بيت الحبيب ، أدرك المحب منه غبار الشك في  
أنه رسول يحمل رسالة من آخر إلى الحبيب .

وقلت : إنك في شغل عن عناقه ، راغبة عن قبلاته . وحسبي  
أسى أنه يرافقك من الصباح حتى المساء على أمل أو يأس ، وأنه  
يرى ألف مرة في النهار ذلك الوجه الذى لم أره منذ سنين ، وتلك  
الثمرة التى لن أقطفها مدى العمر .

وقلت : إنك صريعة الألم ، على شفا الهلاك من الغصص ،  
تودين لو اختفى من الطريق ، أو تبدد في الهواء دخاناً ، وما أكثر  
ما يبدو لك من أصدقاء لو اختفى ! وما أكثر ما يظهر من متنافسين  
للظفر بما حبيت به من صفات ! وإذا طار عن شجرة التين غراب ،  
فهناك سواه في الحديقة مائة غراب . ولكل امرئ من أولئك  
أسباب يتوطد بها أمله ما عداى ، فيوم أمله بعيد صبحه ، وأنا  
طبيب الخاطر باليأس . فما لي والأمل ؟ ! وكفاني ما يحز في صدرى  
من أنك أمل الآخرين . فإذا أردت إرضاء العدو رضىت أنا بما  
تريدين ، ورغبت فيما فيه ترغبين . ومن الخيف أن يُدعى مهيناً  
من ترضيئه صديقاً ، فهو بصدقتك ذو خطر ، قد صار من  
الصفوة ولو كان قبل من الدهماء . ولا يحمل بي ألا ألتخذ صديقاً من  
تختارينه صديقاً ، فهو منى مكان التقدير والوداد . وخير لمن يعانى

— ١٩٠ —

من أجل حبيب أن ينزل على رضاء حبيبه ، وأن يصرف عنانه  
عن هوى نفسه ليسرع الخطى في طريق مراده ؛ فالعشق بعيد من  
هوى النفس ، والعاشق من ينفر من هوى نفسه ، فهو طروب  
في أساه راض بهوممه ، وهو تراب في ديار اليأس ، فلاأظل على  
حرمانى ويأسى ، طيب الخاطر ببلاء الدهر من أجلك . ولازال  
الدهر طوع مرادك ، ولا زلت مع الخلان في وفاق ، وإذا متُ  
فلك البقاء :



(٤٠)

## وفاة زوج ليلي

هكذا جلا ساحر البيان أسرار هذه القصة ، ومضى في تصويرها قائلاً : قد شهرت عصا العصيان على زوجها تلك الشبهة بالكعبة ، الفريدة منظرًا ، الساحرة المحيا كأنها من صور الصين ، أعنى ليلي قمر السماء ، التي جازت زوجها سوءاً على طبيته ، فقصرت يده عن باب حصنها ، وحطمت في وجهه مداخل الرجاء ، ولم تفتح له صحائف المراد ، ولم تدن له بالانقياد . فوقع المسكين على سرير المرض ، ولم يحظ من وصالها بغير البلاء ، ولم يجن من وراء حسن نيته غير الضرر . والوصل الذي لا يتجاوب فيه الحبيب مع الحبيب لا ينال المحب من ورائه غير صنوف الأعباء ، ورؤية جنة عدن من بعيد دون قطاف ثمارها أشد من عذاب النار على البائسين من أهل النار . وازداد به المرض قليلاً قليلاً لئلا يثر ما ساور خاطره من الأشجان . ولفحته الحمى بلهيبها فاحترقت عروق نبضه ، وكان يحس كل من يضع إصبعه ليحس نبضه كأنما وضعه على شمع تحته نار . ووقف على رأسه طبيب عالم ، حاذق في علاج الصعاب ، وفحصه ليقف على مدى مرضه ، وكشف عن عينيه ، فنفض يده من الأمل فيه : واستمر بضعة أيام يتلوى من الألم

كالثعبان ، وإذا عناية الله تبسط يدها إليه فتضع حداً لآلامه ، فخلصت نفسه من الصراع ، وتحررت روحه من سجن هذا القفص ، وطار طائرهما مخلقاً في عالم الصفاء . قد أسلم الروح ، ومن ذا الذى تخلد آلامه ؟ ! ومن ذا الذى يسلم الروح بدون آلام ؟ فالحي لا يندرج في قالب الموت ما لم يقاس الآلام ؛ قد تمكث في الدنيا قليلاً في جهد ، ثم ترحل عنها في ألم لا ينقطع . ففي مقامك فيها آلام ، وفي رحلتك عنها آلام . واهاً لهذا العالم ، آلام على آلام ! وينجو من آلامه كل من بكر منه بالذهاب . ألا فانصرف عن هذه الدنيا موطن الآلام ، واهرب من ذلك العدو المبين . فالصبح في لون الرومي والمساء في سواد الزنجي لصان لا يستحيان ، وهما واصلان منك إلى ما يريدان ؛ فذاك يخدعك بما يثر من ذهب النور ، وهذا يسحرك بما في كفه من جواهر الفلك ، حتى يستنفدا منك كنز الأبد ، وينزلاك في عذاب الخلد ؛ فحذار أن تقع في خداعهما ، وأن تغتر برونقهما وجمالها .

وكان قلب ليلي من حرقها لفراق المجنون كبرعمة امتلاً كأسها بدم الأشجان ، فاتخذت من موت زوجها تعلقة لتسيل دم قلبها دموعاً . وفكت في مأتم زوجها عقد الآهات عن صدرها ، تلك الآهات التي كانت قد أشعلت النار في حصيد صبرها ، وأطلقت في الفضاء نجىء أشجانها ، وكانت تصيح باكية : حبيبي ! وتنظم در القول في فراق الحبيب ، ولم يكن قصدها به

— ١٩٣ —

الزوج ، بل كان في رأسها خيال آخر . وقضت زمناً في لباس  
الحداد ، قائمة بما تفرضه عليها عدة الوفاء ، فكانت في لياليها رهينة  
فراش الأسى ، ساهدة تبكي حتى الصباح ، وفي النهار نهياً لجوى  
الفرقة ، تشعل بآهاتها جوانب العالم . وكان مأتم زوجها تعلقة لظهور  
ما كمن من العشق في قلبها . فقضت عمراً في طويل البكاء والآهات ،  
فقصرت بذلك عنها ألسنة الخلق .

## (٤١)

### بكاء المجنون على غريمه

أراد ذلك الأعرجى — الذى كان قد تجاوز حدود الرشد فمثل يوماً أمام المجنون وأخبره بعقد قران ليلى أفادى فؤاده — أن يأسو ذلك الجرح بمرهم الحب ، فتوجه صوب ذلك الجبل على أثر علمه بوفاة الزوج ، وأمعن فى البحث عن ذلك الهاثم على وجهه حتى عثر أخيراً على أثره : وقال له : لدى لك بشارة أقولها إذا أذنت لى فى القول : ما كان قد اعترض طريقك من شوك أصابت فؤادك به طعنة قاتلة ، حين سقتُ لك خبره ، قد أزاحه ريح الأجل من الطريق ، ولم يبق له فى الطريق من أثر . فقد خرج زوجها من حدود الدنيا موطن الآلام . ونجا ذلك الفتى الوسيم مما كان يعاني من أسى ، ووهبك بماته البقاء .

وسمع المجنون حديث موته ، وعلم أنه أسلم الروح ، فتلوى أماً ، وأخذ يبكي بكاء السحب فى الربيع ، واسترسل فى البكاء حتى تساءل جلسيه عن سبب بكائه فى فصيح من القول : ياسيد العاشقين ، وياخبراً بدقائق أسرار العشق ، سمعتَ فيما مضى عقد زواجه ، فزقت ثيابك من الغصة . واليوم وقد سبق إليك خبر موته ، وعلمت انقضاء أجله ، ترسل نائماً نفس البكاء والزفرات .

فكيف وفقت بين الحالين ؟ إذ عقلى قاصر عن إدراك السر .

فأجاب المجنون : بكيت فى ذلك اليوم لما أصاب روحى من تلف بزواجها . ومن لا تنهل دموعه حين تحز به الشدة فهو حجر ، وإن كان آدمى المولد . واليوم أنثر الدمع لما التهم فؤادى من نار بذلك الخبر . وذلك أن زوجها قامر فخر ، ولم يفقد فى صفقته ذهباً وفضة وكفى ، بل خسر ما كان يملك جملة ، وكان خلى الفؤاد مما سواها ، وكان طائر وردتها النضرة ، وشريكها فى المسكن ، يستمد نور باصريه من بقائها ، وقد قضى نحبه محروماً من وصلها ، وأسلم الروح من تباريح عشقها . وأنا المقروح الكبد المكروب الفؤاد ، وآلاف الفراسخ بينى وبين أحضانها . أضرب كل يوم فى عرض الديار ، وأقبح الليل فى زاوية غار ، فلقائى لها خيال ، قربى منها محال ، سوى أننا كلينا من سكان عالم واحد ، ودوننا سماء واحدة ، وتمس أقدامنا وجه أرض واحدة ، ونعيش فى عصر واحد . وأنت تدرى أنى سأقضى نجبى فى النحيب ، ذليلاً على سرير الهجر ، مثقل الصدر بعبء فادح ؛ وسأخر صريعاً فوق الصخور والأشواك ؛ مهجوراً من الحبيب نائياً من الناس ، لارقيق لى غير ظباء الصحراء ، ولا محرم لى سوى قطعان الحيوان ، وسأكون فى سكرات الموت كغزال ثمل ، وسأخرج يدى من جيب هوسى لأحتضن غزالاً على صدرى ، وانزع شعرى يدى ، ثم أفقد الوعى ، وتشد روحى فى طريقها الرجال ، ويضحك من

موتى الدهر القاسى ، وتنوح على الظباء فى مرقدى ، ويشيعننى إلى  
 مثنوى القبر ، وسأوى إلى اللحد يوم القيامة ، من أجل ذلك الظبي  
 الذى لم يبال بما نالنى من غرم . وحاشا لمثلنى - وأمامه من المستقبل  
 ما وصفت وروحه ، نهب لداك الأسى - أن يطرب بموت الأعداء ،  
 أو يسر بانقضاء أجلهم . وكيف أضحك مسروراً حين يصاب آخر  
 بألم أشكومنه وأضيق به ؟ ومتى نسى نصيب امرئ الفلك الدوار  
 والطاغية الجبار ؟ فإذا كان قد جرى بالأمس بمصايب عدو ، ففي  
 غد دورى ليحطمنى تحطيم الزجاج . وخير لمن يسر بآلام الناس  
 ألا يعيش ، وأولى له أن يبكى على محنة نفسه . فالحكيم فى دار  
 الهموم هو الذى لا يفرح بما يصيب سواه .

هكذا قال ، ونهض محيياً ، واستأذن فى طريق سلوك محتته ؛  
 فشد ذلك الرجل رحله إلى قبيلته ، وبقي هو مع عشيرته من  
 الحيوان . . .

## (٤٢)

### في طريق المجنون إلى ديار ليلي الكلب الطريد

نظم راوى هذه القصة فيما نظم جواهر الكلم ، فقال :  
كان قيس غريقاً في أحضان المحيط الزاخر العباب ، نهيب  
العقل سليب الرشد ، تكسرت سفينة عافيته فتعلق منها بلوح ؛  
فحين سمع ببشرى موت عدوه سرعان ما فكر في نفسه ، فأدرك  
أن عقبة أزيحت من الطريق ، فصار الوصال أقرب منالا . فالبدر  
في مهده ولا حراس دونه ، والوردة — بعد — نصرة لم يعرها  
ذبول الخريف ؛ فحدا به الشوق إلى ديار الحبيب عادياً كراحلة  
تسابق الريح ، أو كفرس سبوح ، حتى وصل إلى حى حبيته  
الوفية ، فتلفت حيران ذات اليمين وذات الشمال يقتنى أثرها ،  
ولذا به يرى من بعيد كلباً (١) سقط إعياء وعجز عن السعى ،  
ووهنت ساقه وكل تخليه عن الصيد ، يقف شعره إن عوى  
ثعلب ، ويثوده خوف الوحوش . قد هزل حتى بدت ضلوعه من  
جانبيه ، وصار جراباً بداخله عظام ، أو كجعبة مليئة بالقسى .

(١) لهذا الوصف الواقعي المثير نظير في الأدب الفرنسي في وصف بودلير للجيفة

انظر :

وخلت يدها من الشعر ، واشتبتكتا حلقه في شكل الثعبان . وخلا جوفه من الطعام ، وحمل عليه الجوع ، فقضضت أسنانه ، حتى ينخيل أنه جعل من عظامها طعامه . وبدت في جسمه من الأرض الحشنة جراح سال منها دمٌ غمر جنبه ويديه ؛ وكأن كل جرح في جلده فم ، وفيه القيح كاللسان ؛ وتطل من بينها بيض العظام كالأسنان ؛ لا بل صار جلده منها كشبكة ، عيونها مليئة بما يشبه النحر لوناً ؛ وليست بشبكة للصيد ، بل هي مجلبة للذباب يطلب قوته . وكأن الثعلب يخاطبه كل لحظة في لهجة الساخر المتكبر : أن هيا أنشب أظفارك — أيها السبع المفترس النمر — في هذا الثعلب المسكين ! ! حتى متى ترقد عريان على وجه الأرض ؟ ألا فابحث بمخلبك لك عن فراء ! .

ورأى المجنون ذلك الكلب ، فجرى إليه جريان الدموع من عينيه ؛ ووقع كالظل دونه ، وقبل ألف قبلة تراب ساقيه ، وغسل بدموعه أقدامه ، وفرش له من الرمل الناعم سريراً ، وجعل من ركبتيه وسادته ، وأظله من حر الشمس ، وضمد بدمعه جراحه ، وأزال عن جسمه الأدران براحتيه ، ونفض الغبار عن رأسه ووجهه ، وطرده الذباب عن ظهره وجوانبه . وبعد أن مهد له مرقداً أطلق صوته بهذا اللحن الجميل :

يا من قلاذته طوق الوفاء ، فداء لك ليوث الأرض ! ! أنت تفضل الإنسان ولاء ، وتفوق المحارم إخلاصاً . لا تصد عن



يطعمك من يده لقمة ولو رماك بعدها بمائة حجر . وأنت في الليل حارس ، وفي النهار راع ؛ يمل اللص منك مهنته ، والذئب منك أسير مخلب سبع . نباحك يوهن قلوب اللصوص ، إذ يهيب بالعس أن يمسكوا بعضهم . ولشعة منك في ميدان العراك بألف حارس لدى الألباء . إذا غدوت طريقك أسد القلب ، فالعس دون الكلب . وكم ضال في حالك الليالي هديته إلى الدار بنباحك . صوتك ليلاً نغم عذب يحلو لمسمع ابن السيل . فإذا وصل نباحك إليه من ديار الحبيب فقد انفك إसार روحه . فإذا انصرف للصيد كان صيدك للملوك ، يطلقونك من سواعدهم قوساً ، ويرمونك من قبضتهم أنشودة أحبولتهم ، وأنت إذ ذاك مكسو بالخز والديباج ، في عنقك قلائد الذهب والجواهر . ومن يعجز منهم عن اللحاق بك عدواً ، يقف على أثرك بحصانه ؛ فلا يزال يتبعك حتى تجود عليه من طعام مائدتك . وما بك من تقصير حين تعدو لجلب فريسة ، بل تخلف وراءك ظل باز الصيد . وسواء وقع الطير لك فريسة أم أطلقتته الريح من كروب إيسارك ، فكم ثعالب ماكرة اخترقت جلدها مخالبك ، وهي اليوم معروضة في دكان الفراء ؛ ويرهب النمر قوة مخلبك من قبل أن يبلى بسطوتك ، فيبقى معتصماً بقلة الجبل ، على ماله من صولة يدّرعُ بها سلاحاً واقياً ؛ وسمع الأسد بمكرك فتواري خائفاً في البراع ، وانصرف

— ٢٠٠ —

عن نزالك على ماله من رماح مسدودة من لبدته . وأنت آفة الغزلان . وما قوى الظباء المسكينة إلى قواك ؟ ! ولا ينجى خمر الوحش — حين تبلوها بصولتك — ما اشتهرت به من سرعة العدو . وإذ يراك الأرنب الجبلى نائماً يهرب خوفاً من عينيه النوم .

هذه هى قصة شبابك ، وتاريخ حياتك الطاهرة . والآن وقد حطم الدهر قواك ، وفقدت مخالبك قواها ، يهجرونك مهيناً محقوراً ! ! لم يبق إنسان منهم يحقك عليه ! ! . وسأظل رفيقك حتى الموت ، ثم حاشا أن أنساك بعد ! . فقد أقت زماناً على أعتاب ليلى ، وكنت دهرأ حارسها ليلاً . فهما تخلى عنك هذا الشرف وسقطت دون تلك الرتبة ، فأنا الأسيان على سوء مصيرك ؛ وسأجعل من حلقة ذيلك لى قلادة ؛ فابسط إلى يد الصداقة ، ومُد بها حول عنق طوق السعادة . وأنا القائم لك بحق الوفاء ، أضع وجهى على تراب أقدامك ، إذ سارت أقدامك فى ديارها ، وطالما جرت على أثرها ، ولم تسترح ليلاً فى حراستها ، بل كنت تظل تدور حول خيمتها . وأقبل عينيك ، إذ طالما نظرت بهما إلى محياها ، وقد اكتحتنا — من ريح طريق تلك الطاهرة العرض — بميل الشوك وأعواد العشب . وأعقد على ذيلك جواهر الدمع ، فكم طرقت بحلقته ذلك الباب ، وأود أن ألصق قلبي على ما وسمت لك ليلى به من علامة حتى تصير ناره برداً وسلاماً . وموجز القول أنك — من رأسك حتى القدم — كنت غارقاً فى نور حاملها ،

وأريد أن أخلى لك مكاناً في قلبي العامر بها ، فكن دواء الجراح  
التي أرسل منها أناقي . ولست إلا تراباً في طريق وفائك يا من جبل  
على الوفاء . فأماناً وعهداً وألف أمان ! ! وأسألك - إذا وصلت  
يوماً إلى تلك الديار وعدت إلى ورود أنهارها ، ومررت بديار  
الحبيبة ، وكان لك شرف المنول على أعتابها ، وجلل مفرقك  
غبار طريقها - أن تقبل لي آثار أقدامها أينما وجدت الآثار ، وأن  
تمرغ من أجلى رأسك في تلك الأرض . وإذا وقفت ضيفاً  
على مائدتها ، ورمت إليك بعظمة من بقايا طعامها ، وطابت بها  
نفسك ، فتذكرني ضيفنا مثلك على مائدة نوالها . وحين تتردد  
ليلاً على أعتابها ، وتراها في لباس نومها ، فذكرها في ساهداً  
في أرض الهوان ، نائياً عن تلك الأعتاب . وحين تهيم أمطار  
الربيع فتغمر أردان خيمتها ، فجُددُ على بشرح قصة عيني  
الهامين بالدموع من أجلها . وضع طوق منتك في عنق مذكراً  
بأني كأوتاد خيمتها المشدود عنقها بالإطناب ، ففي عنق مثل هذه  
الحلقات من الجبال ، وأنا - بعدُ - أرزح تحت أعباء من الأهوال .  
وإذا أصابها الأرق يوماً فخرجت تنزه في ضوء القمر ، فاتخذ  
تعلّة أنك تهدهدها للنوم ، لتحكي لها هذه القصة على لسان المحب  
الواله : « يا شبيهة الليث في الصيد ، والغزال في الحسن ، وبهاء  
جمالك مشهر كالسيف في لون دم الأبطال من ضحاياها ؛ حتام أظلم  
غريباً صريع الوجد ، أضرب هائماً في الجبال والسهول . قضيت

عمرى بعيداً من بابك ، رفيق الظباء وحر الوحش . واليوم أمثل  
للقرب منك ، ولكن ناظرى مظلم من غبار الهجر ؛ وأخاف أن  
أتقدم خطوة إليك ، فتصيب أشجانك بحممتها قلبي . وإذا كانت  
عقبة قد أزيحت من الطريق ، فهناك مائة أخرى مهياة . ومهما  
يكن البطل ليثاً قهاراً فهو في خطر الوقوع في حيلة ثعلب عجوز  
محتال . وقد يصيب الثعلب الأعرج برائن الليث المحطمة للأحجار .  
وأنا الجسور المقدام في غابة تلك الديار عرين الآساد . وإنما أسمى  
في طريق الوصال ، وأتصيد لحظات قربك ، كي أظفر بصيد  
وصالك ، وأتخذ عرينك مقاما . فإن لم أصل ظلت كما عهدتني  
يظلني خيال الموت دون القصد ، وسأقضى نحبي ، فتخلصين من  
أمرى ، وأخلص أنا من نفسي .

(٤٣)

## المجنون يزور ليلى متخفياً بين القطمان

راوى هذه القصة بقضها وقضيضها ، قد استخرج هكذا  
لسها من قشرها ، فقال :

حين وصل قيس إلى ديار الحبيب — وهو الخبير بمآتى الأمور ،  
النافذ لى لها ، والواصل من قشورها إلى لبابها — دقَّ عليه الأمر  
دقة الشعرة . فلألديه أجازة بالمثل أمام الحبيب ، ولا صبر له  
فى البعد عن تلك الديار . وقد اشتد به الشوق لقرب الدار ،  
وأمامه ألف عقبة دون الوصال . فهام فى ديار الحبيب والها على  
غير قرار . وكلما رأى شخصاً فى تلك الديار ، أو صادف امرأ  
فى الطريق ، بحث لديه عن حيلة فى أمره ، وطلب منه دواء لقلبه  
المصاب . وذات يوم كان يدور حول ذلك السهل ذا قطيع يمر  
عن بُعد ، وحول القطيع نفح عير ينبىء عن ريح الحبيب ؛ وعلى  
وجه الراعى شبه لمعة نور من أنوار ليلى تتألق من بعيد ، فأضاء  
مصباح هواه على رؤية تلك الإشراقة ، وقال : يا ذا العباة السوداء ،  
ومنك يدبعت نور موسى الكليم (١) ؛ كل جبل بمقدمك طور ،

---

(١) من الواضح أن الشاعر يقتبس معانيه من قصة موسى ورعبه الغم ، انظر  
مثلا : سورة القصص فى القرآن الكريم ، آية ٢٨-٣٣ .

وفي الطور من نارك نور . يامن بك هذه الأرض كالوادي الآيمن ،  
ومن ترهب السموات عصاك ؛ فأينما تلق بعصاك من كفك تنزل  
بها ضربة في عراك الحيوان ؛ ومهما بدت في صورة العصا ، فهي  
ثعبان (١) مبين في عين الخصم . وصوت مقلاعك أمان لمن يروعه  
الوحش . وحينما تسدد أحجار مقلاعك بقوة عضدك ، يولى الذئب  
عن قطعانك ، هارباً ينهض من خوفه ويقع . ولو كان صيدك فوق  
بروج الأفلاك التي تعيا بها آلات الحرب فصوبت إليه أحجارك ،  
لهوى الصيد مرتعداً خوفاً من فوق البروج . يامن كئوس ألبانك  
مائدة مبسوطة يطعم منها الناس ؛ والصبح كأنه كهل أشيب يُقدّم  
من فيض تلك الألبان غذاء لصغار الضأن والمعز . أو تبخل على  
برئ مائدتك وأنا الظامئ الأسير ؟ فلا تكن حرباً كالدهر على  
ظامئ الشفاه ، وجد على في المحترق بجرعة من ريك . وما بي  
حاجة إلى غذاء الجسد من الألبان ، بل إلى ذلك الغذاء الروحي .  
ولا يغيب عن لطفك وودادك مرادى . فافتح لي باب ديار ليلى  
واحملني خفية إليها ، حتى أجلس في ركن أتأمل جملها المحتجب  
دونى . وأطيب نفساً منك بطوق تقودني به إليها ككلب في  
القطيع ، فلعلى أستطيع في جملة كلابها أن أمرغ يدي على أعتابها .  
أو امنحنى — كرمأ منك ووفاء — فراء نعجة ألبسه فوق جسمي

---

(١) في الأصل أزددها ، وقد ترجّتها بـثعبان مبين لمناسبة السياق في الاقتباس منه

المهدم الهزيل ، لا جلد به ولا لحم ؛ وإنما هو عظام فى جراب :  
 فقدنى إليها عظاماً فى ذلك الجلد ، وسط قطع جُعلت فداء من  
 قطع ! ! لعلنى فى حريم دار الحبيب أنظم فى عداد صغار النعاج .  
 وحين يغشى القطيع ذلك الحريم ، ستلقى عليه ليلى نظراتها ،  
 فتشمنى كذلك هذه النظرات . وأنظر إليها أنا بدورى ، فأرى  
 وجهاً يحترق قلبى شوقاً من فراقه .

هكذا قال ، وسقط كالظل لإعياء فاقد الرعى ، كأنه ميت  
 تبوأ فوق الثرى مرقده . واستمر دهرأ على هذا المنوال ، وكانت  
 عيناه تسيلان دموعاً ، وتنطلق من كبده المحترقة آهاته . وقام  
 الراعى على رأسه باكى العين محطم القلب وحين عاد إلى نفسه من  
 اغمائه ، وغمره من جديد فيض أساه ، تكلم الراعى فى لهجة المشفق  
 عليه ، وقال له : أيها المفقود الوطان ، طب نفساً ، فالوقت وقت  
 إسعاد ، وهذا الليل هو ليل الوصال .

واحضر له فراء قائلا : ليكن هذا لك حجاباً حتى بيت  
 الحبيب ، فالبسه جذلان ضاحكا ، وارقص به طرباً بين النعاج ،  
 فعسى يطوف القطيع بتلك الغانية هذا المساء ، كما يحدث كل  
 مساء ؛ فتكتشف أمرك بين العجاوات ، فتسير إليك من دون  
 القطيع ٥

وكان المجنون قد سمع بتعلق ليلى بذلك القطيع . فلما رأى

المسكين الفراء نهض وارتداه ، وصنع له منه قدماً أخرى . وكان قلبه دائماً أسير شجى العشق ، فكيف تقصر في طريق العشق أقدامه ؟ ! ولكنه أضاف إلى ساقيه قدمين آخرين من يديه . ثم قوَّس كالقطيع ظهراً سبق أن حناه عبء الهَم . وأضحى رفيق القطيع وشبيهه سيراً وعدواً وظهراً . وحدا به الأمل للسير على قدميه ويديه ليظفر بالأمل . وأخذ يهمس قائلاً : يارب فاجعل الليلة حظي بهذه الخلعة الجديدة لين الملمس حمله ، وإن تكن هي سنجابية خشنة الملمس . لو أن هذا الأمر وصل إلى حبيبي لتهد منه خجلاً ، وستكون الخلعة في وقعها عليه شوكا في جانبه ، على أنها فوق ظهري لينة الملمس . وأنا في هذا الجلد كنافجة الظبية جفافاً ، فيالكلب شبيه بغزال الصين (١) ! وليس هذا اللباس أهلاً لكل قوام ، فهو لباسى حتى تعود لى الروح وكفى . وقد زدت بمقدار ألف فراء لآثر سرورى بلبس هذا الفراء . وبهذا الإهاب أبحث عن سعادة الوصال ، وسأخرج اليوم من نطاق إهابى طرباً .

و بينما يحدث نفسه بهذا القول وصل الراعى إلى البيت . وخرجت من خلدورها تامة الحسن كالبلدر التام . توسوس حلبيها عالية الرنين ، وتحلو نغمات خلخالها بساقها ، ويتموج شعرها ذو الغدائر المثناه الملتفة ، يعطر أرجاء العالم بعنبره الخالص . ودارت

---

(١) غزال الصين معروف بكبر نافجته .



حول القطيع وألقت عليه أنظارها ، و مر القطيع ضائاً ومعزاً أمامها ، حتى جاء دور المسكين ، فنظر إليها من تحت فرائه ، فلم يبق له صبر ولا قرار ، وذهب من يديه زمام الاختيار . فأطلق صيحة ، وخر في الطريق صريعاً كالطفل . وسمعت ليلي الصوت فعرفت من هو الذى وقع في طريقها . وجلست فرأت فراء خشناً مملوءاً بدم كبده محترق كنافجة المسك . وقد ذهب عنه العقل فلم يعد يرى ولا يسمع ، فجعلت وسادة رأسه صدرها ، وغسلت عن وجهه الغبار بدموع عينيها . وحين عاد لوعيه وفتح عينيه وقع ساجداً أمام محياها ، قائلاً : يا إنسان عين ذوى البصائر ، وباقبلة الدلال لذوى الدلال ، وبستان الورد المزهو بأزهاره ، وبانور المصباح الثمين ؛ أنت عرش فى الأعلى وأنا الأرض ، فهيات أن تكونى حيث أكون . هذا ؛ ولا أعتقد أنى وقعت بعيداً ، فهأت ذى واقفة على رأسى . وأنت مرفوعة الرأس فى أوج العرش فى عليين ، فحاشا أن تتخذى من أرضى فرشاً ! إن لمس أذبالك على كفى محال ؛ فهذا اللقاء ، إذأ ، من قبيل الخيال . والسكرارى الذين يرون فى أمسياتهم أنواعاً من الخيال ، يتصورون فى أحلامهم مائة محال . وحسن طالعى على ما أقول دليل ، فهذه الواقعة من ذاك القبيل . وإن حلماً فيه أرى محياك ، وأجلس معك مطمئناً لحلم فيه يقظة جدى ، ومنه نور عيني .

ورأت ليلي منه هذا التضرع ، وسمعت منه هذه اللطائف

التي طابت بها نفساً ، فقالت : يامن أنت ضيفي هذه الليلة ، قد  
سكنت بك روحى هذا المساء . وهذا الإهاب حائل دون الحبيب ،  
فلا تقنع من الحبيب بالإهاب ، واطرحه عن عنقك ، واجلس بلا  
إهاب مثل اللب ذهب عنه القشر . وحتام التكلم من وراء ستار ؟  
وفى النية الإفضاء إليك ببعض الأسرار .

وأضاء الليل ، وطلع القمر ، وأسرعت محنتهما فى طريق  
الزوال . وبقياً معاً حتى الصباح ، لم يكفا عن الكلام لحظة واحدة .  
فكم حكيا من قصة ملؤها الآهات والزفرات . وكم اشتكيا من  
الأشجان فيما مضى من السنوات . وكان قد بقى أمامها مئات من  
طرائف القول ، وإذا الطائر يغرد بلحن الفراق . ونشر الصبح  
علماً من ذنب السرحان ، ونام الكلب وغردت الديكة . وعلى  
صياحها ودع كلاهما الآخر ، فنصبت ليلى قامتها سائرة نحو  
خيمتها ، ومشى قيس صوب الصحراء ، وهو من البكاء  
كإحدى الشقائق .

نعم ، هذا شأن الدهر . إذا وجد كليم القلب مفضول الكبد  
طريقه إلى حبيبه بعد آلاف من الآلام والجهد ، فلا يكاد يلتقى بنظره  
على محيا حبيبه حتى يحول الدهر بينهما ، مهيباً به : أن أسرع  
بالانصراف ! !

(٤٤)

## المجنون مع السائلين في ضيافة ليلي

حين فرغ ذو القول العذب من حديث السحر في قصة الفراء ،  
كشف في سياق قصته عن لباب البيان قائلاً :

قد ضل في السهول والجبال زماناً ذلك الهزيل كالدف ، تنبعث  
منه الأنات على ضربات الهجر . وقد ظل قانعاً من الحبيبة بذلك  
الفراء ، يحمله لذكرها ، ويجد فيه لحاظه سكتاً . ولكن حين أبلى  
الدهر منه الإهاب ، ولم يبق في كفه حتى تلك البقية من الحبيب ،  
صار أمره إلى ما يشهى العدو . فلا حبيبة في أحضانه ، ولا ذلك  
الفراء على جسمه . وماذا يبقى من سلب الروح بدون الحبيب ؟  
وما العظام بلا إهاب ! وما إن مر عليه زمن على هذه الحال حتى  
تصاعد الدخان من حريق قلبه الحزين .

و ذات يوم كان يحترق لوعة ، إذا هو أمام الراعى وقت  
الظهيرة ، فسقط دون قدمه كالظل ، وأطلق من صدره صيحة  
قائلاً : أيها الآسى المكلوم الفؤاد ، حظى بمقدمك عجب ، ألا  
فانظر بعين العطف إلى ما يعانى الفؤاد ، لتطبني — ياذا المروءة —  
من داء الفراق . فقد كنت قتيل الهجر ، مسلم الروح للأجل ،  
ولكنك نفتت في من أنفاس لطنك ، وأعدتني كالمنسج إلى الحياة .  
فمنظرة أخرى منك إلى حالي ، فأنا اليوم متعلق منك بالأمل .

( ليلي والمجنون )

فبكى الراعى ، وقال : أيها الفتى الغريق فى الهم من رأسه حتى القدم ، قد قرح أساك كبدى ، وأجرت آلامك دم دموعى . ألا ليسعفك الحظ كما تشاء ، كى تدبوا عرش مرادك . ولم يبد لى من قبل وجه فى علاج أمرك ومأتى دوائك ، ولكن ليلى — تلك التى أبدع القلم الإلهى فى تصوير بدائعها ، العذبة المحض كالشهد ، بل من الشهد أطيب — تطهو كل أسبوع من لبن قطيعها طعاماً خاصاً تقدمه مساء للمساكين الذين حرموا مائدة السماء ، فيتوجه إلى أعتابها من تلك النواحي كل من خلت يده من موائد الرزق ، لينشد غذاءه من نوال مائدتها . وهى التى تشمر عن ساعدها لتقسم بينهم الطعام بنفسها ، وتعرف منه لتضع فى إناء كل امرئ نصيبه . ويمر الجميع آنذاك ، سواء منهم المعارف والغرباء . وهذا المساء هو وقت الأمل فى العطاء ، وموعد النوال للمحرومين . فانهض وفى كفك الوعاء ، وانتظم فى سلك ذلك الصف ؛ عسى أن تنال — فى انتظامك بين السائلين على تلك المائدة — بعض النوال .

وسمع المجنون تلك البشارة ، فقام ممثلاً للإشارة ، وأخذ فى نحيل كفه كأسه ، وانطلق فى ديار الحبيبة حتى وصل والهاً إلى ذلك المكان فرأى أمامه هناك ألف محب ، كل منهم يمد يده بوعائه ، يطلب كالحيب النوال على مائدة إنعامها ، وينال ما قسم له من رزق . ورآها المجنون من بعيد ، فولى عقله من رأسه ، وطارت روحه من جسده ، وضعفت ساقاه عن احتمالها ، واحتال بكل قواه ليظل

منتصباً على ساقيه . وأتت نوبته ، فقدم كالأخوين كأخيه . ورائته  
 ليلي فلم تعامله معاملة الآخرين ، فبدل أن تعطيه نصيبه من الطعام  
 ضربت بالمغرفة كأسه فانكسر . ورأى المجنون كأسه محطمة فوقه في  
 خاطره أن الأمر يسير على وفق ما أراد . وكان صوت تحطيم الكأس  
 في أذنه حلو الأنغام فوق به ثملاً ، ونظم لنفسه أنشودة جعل يرقص  
 على ألحانها قائلاً : من كان عيشه ميسراً فعيشي كذلك جد ميسر :  
 فلم تنلني كالأخوين حاجة ، وحطمت بحجر الظلم كأسى ،  
 واختصنني وحدي بأنظارها ؛ وحطمت كأسى من دون الآخرين .  
 ومن قبل حطمت - دون سبب - قلبي ، ولكن أمرى مستقيم من  
 هذا التحطيم . وياليت الحجر الذي أصابت به - جهرة - كأسى ،  
 كان قد حطم كأس سرى ، حتى يبقى ذلك السر في صف الواقفين  
 مرفوع الرأس . ولا أطلب لي خلاصاً ، سوى تحطيم كأسى على يد  
 الحبيب . وليس علىّ بذلك من جور ، بل إنى لأرجو به النصر . ألا  
 فداء لذلك التحطيم ألف رأس ! ! ولتكن الأرواح جزاء تلك  
 اليد ! ! وقلبي مقطوع النياط بخنجر حبها ، وقلبي خال من كل شيء  
 سوى حبها .

## (٤٥)

### المجنون يفقد عقله كله

موقع عذب هذا النغم ، ومغنى لحن هذه القصة ، هكذا ضرب  
على أوتار الأعواد من بيانه ، فقال :

وقع قيس من جديد في محنة المهجر ، وهوى فريسة آلام الصبر ،  
وذلك أنه عندما زایل رأسه طرب كأسه ، فارق السرور قلبه .  
فأخذ يحترق في نائرة الفراق ، ويكتوى بشعلة الاشتياق . وكأن  
قدمه - أيناحل - فوق مقلاة ، فلا هو بذائق للنوم طعما في عرض  
المروج ، ولا هو بمستسيع عذب الينابيع شرباً . لا صبر عنده ولا  
قرار ؛ ينطلق أنينه على الأشواك والحشرات . ينشد في كل شيء  
عونا ، ويطلب لنفسه الخلاص مما دهمه من خطر . وذات يوم في  
الظهيرة كان يهب هواء تموز لافحاً كالنار المتقدة ، واتجه هو إلى  
خيمة الأذلاء ، أى إلى ظل شجرة من شجر الطلح ، يسرح طرفه  
من هناك في كل صوب . وفجأة عمر السهل عليه يقوم من عليه  
الناس ، ذوى محفات وهوداج . فسرعان ما نصبوا هناك مائة خيمة ،  
وأقاموا لهم منازل كالقصور . وعلى ما يرد عادة في خيال العاشقين  
وهو سهم في التعلق بالخال ، مر في خيال المجنون تلك الأمنية المحالة :  
وهى أن يكون هؤلاء القوم ليلى وقومها ، وأن تكون هذه رحالهم  
ومظاهر جاههم ومالهم . ثم عاد وقال : هذا هوس وخيال ، وتعلق

من الحظ بالحال . وبينما هو يردد لنفسه هذه الفكرة وذاك الأمل ،  
 ظهر من الخيم جمع من النجوم يتوسطهن قرأ ، خرجن متزهات  
 منطلقات شطر الصحراء ، متجهات إليه يُجرّرن أذيالهن دلالات .  
 فنظر إليهن قائلاً في نفسه : من هؤلاء ؟ أمصدر نفع أم مثار أذى ؟  
 وهن مسرعات نحوه يتساعلن : من هو ذلك الوحيد في القلاة ؟  
 حتى إذا وصلن إليه رأى جلياً كلاهما الآخر . فوقع نظر المسكين  
 على ليلي مع جمع من نساء قومها . ورأى قدمها مستويّاً ممشوقاً ،  
 فأخذ ينهض ويقع على غير وعى . ثم فارقه الوعي ، فجرت ليلي  
 إليه ، ووقفت على رأسه ، وأسندت رأسه إلى ركبها ، ونثرت دمعاً  
 مخضباً بالدم من عين قد قرّحها البكاء . وصبت عليه من دموعها ماء  
 الورد ، فردته من نومته الطيبة إلى رقدة المستيقظ . وأخذ كل منهما  
 يتأمل في جمال الآخر ، واحيى بمحضره ملال الآخر . وتحادثا في  
 قديم مكنون الضمائر ، وأفاضا في القول بكل در مثقوب . وفي وقت  
 الوداع ، كانا بحيث لا يتمنى أحد أن يذوق امرؤ محترق القلب مثل  
 هذا الجحيم . وقال لها المجنون : « يانور القلب وناره ! لقد مرت  
 بأرضي اليوم وسط حشد من الهموم وحرق الوجد ، فخبّرني  
 كيف أراك فيما بعد ؟ » .

فأجابت : سأمر كذلك في وقت عودتي بهذه الأرض . وإذا  
 ظلمت في مقامك هذا فأمل في رؤيتي . وسيتبدل أساك بطلعتي  
 سروراً ، وسأتحرى برؤيتك من ربة الحنة .

وانصرفت ليلى من المكان ، وبقي به قيس كالميت ؛ كأنما انفصلت عن جسمه الروح . وأخذت تنأى عن أنظاره حاملة معها قلبه ، وهو يتابعها بعينين ملؤهما الحسرات . لم يكذبى له فى روحه من رفق ، وظل يردد القصائد فى الفراق . وبموجب الوعد الذى سمعه منها لم يتحرك من مكانه . وفى حيرة عشقه بأسرة قلبه لم يجلس ، بل ظل منتصباً كالشجرة . فكانت الطير تجثم على رأسه بعض الوقت ، ويظل هو ثابتاً كأنه شجرة أحكم فى الأرض أصلها . واسترخت شعوره مهتلة متشابكة كأنها الأغصان وظل على هذه الحال عهداً ، فاتخذ طائر من رأسه عشاً ، وبدأ شعره مهتلاً كأنه — فوق تمثال جسده — نقاب أسود كالمسك مرصع بجواهر البيض . وفسق البيض عن صغار طير ، تغرد بالحن العشق . ومر به حين على هذه الحال ، فعادت ليلى فى طريقها إلى ديارها ، ونزلت فى ذلك المنزل المبارك وحطت فيه رحلها . وقال كل امرئ من قومها ، ناشداً فى النوم راحته من مشقة الرحلة . ونهضت هى فى الظهيرة كأنها الشمس مضيفة المحيا . وانتعلت فى قدميها الرقيقتين أديماً محلى بالذهب . ولبدت فى ثياب من الخز الأزرق المحلى بأوسمة يمنية . وخرجت فى زينتها بوجه كالجنة ، يتجلى فيه أمل كل أمل ، وقد أهيف ممشوق كالسروة يجذب القلوب ، وتهادت كالحجلة حتى وقفت على رأس الحنون ، فوجدته ولهان قد خرج من نطاق العقل ، ولم تبق منه فيه ذرة ، واستغرق فى العشق من رأسه حتى القدم ؛ عيناه إلى



الأرض ، يلتمعان كالأنجم الشاحبة التي أخذت تتوارى في ضوء الشمس. وطالما دعتة الهَيْسَمَة (١) بصوتها فلم يعد إلى وعيه . فرددت نداءها له بصوت مرتفع قائلة : يا من ديدنه الوفاء ، انظر إلى من جُبل على وفائك .

فأجابها قائلاً : من أنت ؟ ومن أين ؟ عبثاً ما قدمت إلى .

فقالت له : أنا مرادك ، وأمل فؤادك ، وبهاء روحك ، أنا ليلي ، من أنت بها ثمل ، وأنت هنا أسير قيد غرامها .

فأجابها : إليك عنى ! إليك عنى ! ! فقد أشعل عشقك اليوم في جوانحي ناراً تلتهم أرجاء الأرض ، فانتزع من نظري غبار الصورة . ولن أعود - بعد - فريسة الصورة . فعشقي قاد السفينة بموج الدماء ، فتخلف عنها حب العاشق والمعشوق .

ففي البدء تتحقق ذات العاشق في كل ما يليق بطبعه ، حين تأخذه سورة العشق ، وتموت ميول نفسه ؛ فيولى وجهه إلى كل ما يريد الحبيب ، ويظل ينشد - في العالم كله - رضاه . وحين تشتد جذبه العشق به ، يبرأ عشقه من كل وسواس ، فيسقط في موج بحر العشق ، ويفقد وعيه على تلاطم أمواج العشق . فيشد الرِّحال حب العاشق والمعشوق ، فيصير الشطران في إدراك العاشق شطراً ، فيصرف نظره - ألبتة - عن الثنائية ، ويخصُّ عين بصيرته عن

---

(١) الهينة : بصوت خفيض .

« أنا » « وأنت » ؛ فهو في أمان من صراع الثنائية ، فيخلد والعشق حتى القيامة (١) .

وعلى سماع هذه الكلمات فرغ فؤاد ليلى من الصبر والقرار ، وعلمت عن يقين حاله ، وجلست تنشج بكاء قائلة : « واهَا لِمَنْ أَسْلَمَ عن يد دينه ولبه لوقوعه في شرك حبناً ! ! وأشاح بوجهه عن مبنى الأمل ، وجد في إثر دائم البلاء ! ! فوقع فيه صريعاً . إذ لم يحظ من مائدتي بنوال . وهيات أن أجالسه مرة أخرى ، أو أن أحظى في لقاء برؤية جماله بعد الفراق » .

وفرغت من قولها ، فعادت أدراجها في الطريق ، وأقامت مأتم الفراق . وانصرفت وملء صدرها الآلام والآهات ، تقول وعيناها تهيمان بالدموع : واحسرتا من دهر طاغية ! مورد عيشه رنق لا يطيب ، وقدح شرابه مترع بالسم ، يتبدى في مظهر القهر لطفه ! ! كنا حبيبين طابت بالصدقة نفوسنا ، بعيدين من وهم الزمان ؛ يلور الفلك بما نشتهي ، ويناولنا الساق كأس الطرب ؛ فسقطنا صريعين على يد اللثام ، وافترق كل منا عن صاحبه . فهو

---

(١) يتحدث المجنون هنا عن العشق الإنساني حين يبدأ طاهراً فيتجه المحب إلى التضحية والفداء في سبيل حبيبته ، ثم لا يلبث أن يتذكر الله مبدع هذا الجمال وهو مصدر كل جمال ، فيشيع بوجهه عن المخلوق إلى الخالق ، وينصرف بكليته عن طريق العشق الإنساني إلى المعشوق الأزل . انظر فصل ٤٨ من هذه القصة ، ثم انظر الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : الحياة العاطفية .

على شفا الموت فى النأى منى ، وأنا فى البعاد منه كالشعرة هزالا .  
 فهو مولّ وجهه شطر وادى العدم ، وأنا سائرة إلى مضيق الأسى .  
 وهو بدونى مشرف على الهلاك ، صريع فى وحل الدم من دموعه .  
 وأنا بدونه فى سبيل الزوال ، لا أبحث بدونه عن خيال للجمال .  
 واليوم قطعت منه الأمل ، ووطنت قلبى على هجره إلى الأبد . قد  
 ذهب من كان له وصالى ، وآن للقلب أن تبلغ به مُزق الجوى  
 مداها ، فلا رأى إنسان ما قاسينا من حرقة ! ولا عانى ما تصاعد  
 من مصباح قلبينا المحترقين من دخان ! !

هكذا قالت ، وشدت رحلها محطمة القلب ، ورحل المحنون  
 كذلك من موطن آلامه إلى موطن آخر . فحين انتهى من وعد  
 حبيبته رحل بعبء همومه من تلك الأرض ، ودأب على حياته التي  
 ألفها من قبل فى صحبة الوعول والظباء .

(٤٦)

## بدوى فى زيارة المجنون

من نصب المجنون المحفة لعروس هذا السر هكذا حداها  
بأنغامه قائلا :

كان فى ديار العرب بدوى على حظ من العقل ، رقيق  
الحاشية ، طاهر الذيل فى ساحة العشق ، ساحر البيان فى طرائف  
نظمه ، بهيج عذب صوته الأشواق ، ويبلغ إلى أعماق القلوب من  
ذوى الأذواق . سمع هذا البدوى بقصة المجنون ، وبصيته فى  
نظم الغزل كالدور المكنون ، فاجتذب الشوق إليه عنان روحه  
فركب ناقة عداءة كالريح ، وقطع الطريق ، وجانب السهل حتى  
وصل كالريح إلى قوم بنى عامر ، وتحادث معهم مستخبراً عن  
آثار المجنون ؛ فقالوا له : لأنه معتزل للخلق ، قد أنس بوحوش  
الصحراء فصار مثلها وحتى الطبع ، وغنى بالأنس بها عن  
الإنس ، وقد استراح إلى صحبة الوعول والظباء ، فهيهات أن  
بأنس إلى أهل القبيلة .

وسمع البدوى هذا الكلام ، فلوى عن العامرين عنانه ، وشمر  
عن ساعد الجلد فى خوض الأعاصير وقطع الجبال والسهول ،  
واجتياز النجاد والوهاد ، وكم قاسى من خوف نخاتلة الوحوش ؛

— ٢١٩ —

وإذا به يرى سرباً من الأطباء ، وبينها قيس الكاراعى ، منتصب  
انقامة دون انحناء ، كالآلف المجردة ؛ وهو أسود كالآلف من  
أثر سموم الضحى . وهو يسير وسط الأطباء لا يسترده إلا بضعة  
أعواد من العشب ، من الأمام ومن الخلف . ومن رأسه يتهدل  
شعره الفاحم على صدره كأنه شعاره الأسود ، وهو من ضعفه  
وسواد لونه نحيل كأنه شعرة بين شعره الفاحم .

ورآه البدوى على تلك الحال ، فأقبل عليه محياً بالسلام . وحنا  
ظهره للسلام ، فذعرت أسراب الأطباء وفرت على تحيته . فأبغضه  
المجنون ورفع ليرميه حجراً ، وشن عليه حرباً لا صلح فيها . وقال  
له : لم تكلمت أيها الغر ؟ ولم تجاوزت فى طريقك حدك ؟ قد  
أذعرت منى أصدقائى ، وجعلتهم يفلتون من شبكة وفائى . فباك  
وهذا الهوس ، وامض لشأنك ودعنى وشأنى . فأنت أسير نفسك  
وقد تحررت أنا منها ، وأنت مستريح إلى طبعك ، وقد تخلصت  
أنا منه . وأنت فى طرب العرس ، وأنا فى مأتم ، فكيف نتفق ؟

فلم يجد سبيلاً إلى صحبته بحديثه ، فبدأ يردد عليه من آلامه ،  
مانشداً له أنواع الألحان من عال ومنخفض ، فوفر له حظاً من  
غذاء الروح . وطاب خاطر قيس على سماعه إياه . ولم يلو عنانه عن  
صحبته . وتعلق كل منهما بالآخر ، وتوافقان كاللبن والشهد ،  
وأخذوا يتساجلان الأشعار والغزل ، وكم قرأ المجنون من رسائل  
أشجانه ، ونثر مئآت من عقد جواهره . وصار البدوى صديقاً

— ٢٢٠ —

لجوهره ، وأصبح كله أذنًا ، ولا شيء مع الأذن غير عين الفطنة .  
وكل ما وصل أذنه من در ، نظمه هو في سلك الحفظ . وهكذا  
عماله من الصباح حتى الليل ، وكان يجهد ليلاً في ترتيب هذه  
الآليات . فكان في النهار يتصيد منه ما يتاح له ، ويمضي الليل ساهداً  
يكرر ما حصله لينظمه في سلك الحفظ . ولكن ما لبثت أن خلت  
راحلته بعد بضعة أيام من الماء والزاد ، فاضطر لوداع تلك البقعة ،  
قاطعاً أوامر الصحبة ، وفي خاطره كثير من القصائد ، كل بيت  
منها يستدر بتلاوته الدمع من قلب سامعه .

(٤٧)

## موت المجنون

مسطر عنوان رسالة الفراق ، هكذا جاد بفيض قلمه قائلاً :  
 إن ذلك البدوى الذى ألف النجاد والوهاد ، وكان قدوة فى  
 بكاء الأطلال والدمن ، بعد أن مر حين فى دياره مشغولاً بأمره  
 وأعباء عيشه ، راجع قلبه هوى لرؤية المجنون ، فخرج من منزله  
 على راحلته السريعة العدو ، ومر أولاً من العامرين ، مستخبراً من  
 كل امرئ عما نعى إليه من أخبار المجنون ، فقالوا له : منذ قرابة  
 أسبوعين وقلب هذه القبيلة مصاب من أجله ، فلم ير أحداً له أثراً ،  
 ولم يسمع عنه خبراً . وعسى أن يسفر انقطاع الأخبار عن خير إن  
 شاء الله .

فنهض الأعرابى مسرعاً ، وتوجه من مساكنهم شطر الصحراء ،  
 ولم يدع جبلاً أو سهلاً إلا مر عليه مر الريح . وقطع الأرض شبراً  
 ينقب عن ذلك الصديق الكريم . وبعد بحث استغرق يومين  
 أو ثلاثة ، كان البدوى يسير فى طريقه يائساً ، وإذا هو بقطعان من  
 الوحوش دون الجبل ، فأسرع بالذهاب صوبها ، فرأى فى وسطها  
 المجنون ، مع ظبي ناصع البياض ، شبيه ليلى عيناً وجيداً ، وقد  
 تعانقا فى حفيرة ، وورقدا رقدة أعوزتها الرعاية ، هى رقدة الموت ،

على وسادة من الأرض وسرير من الشوك . وكان قيس قد أسلم  
الروح من حرقة الفراق ، ورأى ضجيعه في الحفرة ما حل به ،  
فأتى وفاء له . وحوله حلقة من الحيوان قد كسرت غصن الطرب .  
فن صدر الظبي تسترسل الآهات ، ومن عيون الوعلة ينصب  
الدمع ، ومزق الثعلب فروته . ونثر بمخلبه على رأسه تراب الأسى .  
وأخذت الذئب تمزق من هول المصيبة وجه الأرض بأظافرهما .  
ووقفت حمر الوحوش في دماء دموعها مما دهاها ، بعد أن كانت  
آمنة في كنفه .

ولما رأى البدوي تلك الواقعة ، وأنها خراب في ركن حياته ،  
استرجع ، وأسأل من أهذاب جفونه الدموع . وأخذ يتن وفاء ،  
ومرغ وجهه على أقدام المجنون وهو في صراع مع أشجانه . ثم  
ألقى نظرة حوله ، فرأى خلف ظهره هذه العبارات مخطوطة بإصبعه  
على الرمال :

واحسرتا أن مت بجوى العشق ، فلم تسلم على سرير الموت  
روحي ، وغدت شمس الزمان برداً على أعضائي ! ! ولم أنل من  
أحد في هذا العالم مرحة . وقد قصمت مصابرة الليالي ظهري ،  
وتقضت على الأيام بسيف الحجر . ولا أحد مثلي مقتولا بلا دية ،  
ومحروماً من كل تغزية . فما على رأسى بكى صديق ، ولا غسل من  
الغبار وجهي . ولم يحمل لى امرؤ من حبيبي السلام ، ولم ينه إلى  
منه رسالة . وقد أسلمت نفسي عن يد إلى طبيب الفلك ، فلم



يداوئى فى رفق . بل أفرغ قدح شرابى من الماء ، وأبدلنيها برشح دم القلب . وقد قرح كبدى تفكيرى فى غدى ، ففى كل غدٍ لى مرّقه فى الكبد . ولم يعان أحد من هم غده ماعانيت ، ولم يمت أحد فى مثل حظى . ويضيق قلبى بقبة الفلك كأنها حوله زجاجة ، فتحطمت بها زجاجة حياتى على صخرة القدر . وسبق من تلك الزجاجة حتى الحشر ما يكون وقعته على الأفئدة الكليمة شديداً كلدغة الحمة .

وقرأ الأعرابى هذه القصيدة ، فروع قلبه وانتقد بنار الأسى . وكان معنى كل بيت كالزيت يقع على نار صدره ، وأطلق من جوى قلبه صيحات . وامتطى راحلته العالية السوق ، وسار بها حتى ألقى ظل رحله فى بنى عامر ؛ ولكنه لم يلق فى ديارهم ظلاً ، بل شعلاً من نار انتقدت بها أرواحهم وقلوبهم ، فإنه بذلك الخبر أورى ناراً ذات ألسنة أحرقت عالمهم . ومزق أهل الحى جميعاً على سماع الخبر ثيابهم ، ورموا بعمائمهم إلى الأرض ، وقطعوا الشعور ونخدشوا الوجوه . وماذا أقول عن الأب والأم ؟ كل ما أقول قاصر عن وصف حالهما : لقد خرج أبوه المسكين عن وعيه ، وارفص جسمه بفيض دم كبده . وعرت روح الأم من ذاك المصاب حرقه . وكأنما ألقيت نار على كل أخ من إخوانه . وبدأ أهل الحى وقد أعييتهم الحيلة ، على ما هم عليه من صدق الدخيلة . وساروا إلى

ما دون قمة الجبل متجهين شطر المجنون ، وفي صدورهم من الهم  
آلاف الجبال فالقلوب مديئة بالأسى والشجن ، والعيون مليئة  
بدموع من هدم . ورأوه ووقعوا على مرآه فريسة الأحزان ،  
وأطلقوا صيحات الأشحان . وسلك كل منهم طريقاً في حداده ،  
وسطر على قلبه معنى الأسى لفقده ، فمنهم من عانى حسرة على  
شبابه ، ومنهم من صاح أسيان على هجره وحرمانه ؛ وقام منهم  
من ذكر القوم بضلال الحيلة في طبه ، ووفى آخر القول في سوء  
حظه ، وتحدث بعضهم عن طبعه الفياض بالطرائف ، وتحدث  
آخرون عن نظمه الذى يسمو بالروح . ومنهم من تلا حديثه الطاهر ،  
ومنهم من قص مأساته الأليمة . وظلت أمه تنجب من وقع  
المصائب ، وتلصق وجهها بمحياه الشاحب . وكان أبوه يصب من  
دمع عينيه دما يختلط بثرى قدمه . ولما سكن جلبهم وصياحهم  
أنزلوا المجنون فى مغيب نعشه كالقمر ، ووضعوا بجانبه الظبي  
الذى قضى معه وفاء له . وحمل العامريون نعشه لإجلالا له على  
الأعناق والأكتاف متوجين إلى محلهم . وكانوا يتركون فى كل  
خطوة خطوها مائة عين ماء من فيض عيونهم ، وكلما نقلوا به  
خطوهم كانوا يسلون مئات الصيحات ، وخلفوا وراءهم فى كل  
ميل قطعوه نهراً آخر كدجلة ، ونيلا بعد نيل . والوحوش على  
أثرهم تحثو الثرى على الرءوس ، وتمشى الهوينا مطلقة أنواع  
صيحاتها بأنغام الأسى ، وظلوا كذلك طوال الطريق حتى وصلوا .

فغسله الباكون بفيض عيونهم ، وخضبوا بدم دموعهم وجهه ،  
لأنه طُل دمه فقتل بسيف العشق . ثم حفروا له في باطن الثرى  
حفرة ، وغيبوا ذلك القلب الطاهر ، فخلص بذلك من الهم صدره ،  
وملئوا باطن الأرض بكنزه . ورقد معه - دون قدميه - ذلك  
الطبي الذي قضى في هواه . وأوى المجنون إلى منزل لا عيد فيه ،  
في صحبة لا ثقة به من الطبي والقبر . ومنذ نفص المحبون من ترابه  
أضحى مقامه مزاراً لكل بائس مجروح من جور الدهر ، يصب  
فوق قبره درر الدمع ، وتقصده الوحوش تطلب لها قراراً  
وسكناً ، وتكحل الطباء سواد عيونها النجل بغبار ضريحه ،  
وتسرسل في تقبيل حافة الضريح ، حتى يتقوس ظهرها مثل القبر .  
وقد نبت العشب الأخضر في ثرى القبر المرتوى من دموع الطباء ،  
ورفت في حواشيه الشقائق . وفي ضوء ذلك المزار الملىء بالنور  
تنأى الوحوش عن طباعها السوء . فقد أزال الثعلب بذيله غبار  
الحيلة من طريقه ، وبدا الأسد وكأنه يخاف الذئب ، إذ ننى عنه كل  
أثر للكبرياء .

نعم ؛ إن العاشق العف الطاهر الدخيلة ليس عشقه من عالم  
المجاز ، فترابه ترياق مجرب ، وعشقه الطاهر لكسير الوجود ،  
ينزع الزيف من زائفي القلوب ، ويصير نحاس قلوبهم ذهباً  
خالصاً . فقد صار المجنون - بعد أن توارى في الثرى - كنز  
كرم لجميع الناس . فكل من وقع فريسة الأسى والألم مدّ يده إلى

— ٢٢٦ —

أعتاب ذلك الكنز ، فأصاب من معدن الكرم مراده ؛ بل وجد  
مائة مراد فوق مراده . فحظيرته روضة الفرح ، وذخيرته  
رضوانها . ولذا فوجوه الخلق جميعاً إلى حظيرته ، وعيونهم على  
ذخيرته . ألا طوبى للقصاد إذ يؤمون تلك الحظيرة ! ! وطوبى  
للنفوس بتلك الذخيرة ! !

(٤٨)

## المجنون وجد طريق الحقيقة (١)

حذار أن تظن أن المجنون قد فتن بحسن المجاز (٢) . فعلى الرغم من أنه صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلي حين وقع ثملا

(١) قد أحب المجنون ليل حباً صوفياً في قصة الجاني ، لأنه هام بها أولا وصبا إليها ولكنه ارتقى من الحب الجسدي إلى الحب الروحي ، فنفذ من وراء جمال الجسد إلى ما يدل عليه ذلك الجمال من معان روحية ، أسمى هذه المعاني دلالاته على جمال مصدره واهب كل جمال ، وهو وحده أهل لأن يحب لأنه ذو الجمال الذي يجلب عن الكيف ، وما جمال المخاوف إلا دليل على جماله ، يهتدى به من سمع أرواحهم في سلوك طريق الحقيقة . وحين انتقل المجنون من مرحلة فنه بحمال لبلى إلى تلك المرحلة الروحية السامية ، كان قد برىء من الحب الإنساني ، ولم تعد ليلي في عينيه شيئاً ذا بال . ( أنظر فصل ٤٥ من هذه القصة ) ولكنها ظلت رمزاً مدلوله الجمال الخالد ، وبقيت لذلك طريقه إلى الوجد ، فكان ينطق باسمها وقصده الذات الإلهية ( ك شعراء الصوفية ، انظر ديوان ابن الفارض مثلاً ) وقد مر المجنون في عشقه بالمراحل التي يمتازها كل حب صوفي حين ينتقل من حب الجمال الفاني إلى الهيام بالجمال الخالد . وقد تأثر الصوفية من المسلمين في هذه النظرة إلى الحب نراء أفلاطون وأفلوطين في الجمال ، انظر الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : الحياة العاطفية .

(٢) حسن المجاز : الحسن الحسى في هذا العالم لأنه وسيلة يموز بها العاقل الحكيم، إلى حسن الحقيقة ، أي يهتدى بهذا الحسن الأسمى كما سبق أن شرحنا . لأن جمال المخلوقات دليل على جمال ذى الجلال : يقول أحد شعراء الصوفية :

جمال في كل الحقائق سافر وليس له إلا جمالك سائر  
تجليت للأكوان خلف ستورها فنمت بما تحفى عليه السرائر

(أحمد الكشخاناوى النقشبندى : جامع الأصول ، طبعة القاهرة ١٣٣١ هـ ص ٥٧) ..

يحبها ، فقد رمى آخرأ بالجام من يده فتحطم . فثمله إنما كان من  
الخمير (١) لا من الجام ، إذ أنه هرب في عقيب أمره من الجام .  
فتفتحت في بستان سره من أزهار المجاز أزهار الحقيقة . فالعين  
التي انبجست تهلل من شق حجر ، قد صارت بحراً وغطت الحجر .  
فكانت ليلى طلبته في هذا الجيشان ، ولكن توارى وجهها عن  
قصد العاشق وكان يحلو في فمه تردد ذلك الاسم ، ولكنه كان  
يرمى من نطفه إلى مقصود آخر . فالعاشق الذي يضيئ من هيامه  
بحبيبه ، يقول : « القمر » ؛ وقصده وجه الحبيب .

يحكى أن صوفياً نقي السريرة رفع عنه الحجاب في نومه ،  
فظهر له المجنون بوجهه على حقيقته ظهوراً لا لبس فيه ، فقال له  
الصوفي : يامن ظلت على حال بأس وهلاك ، تغنى بالامك في  
مجاز الفتنة ثلاثين عاما ؛ حينما نازلك الحمام ، ماذا فعل بك معشوق  
الأزل ؟ .

فأجاب المجنون : « قد دعاني إلى حظيرته ، وأجلسني في  
صدر سرير قريته ، وقال لي : أيها الجسور في ميدان العشق ، ألم  
تستح من أنك في تلك الدار كنت تحتسى الراح من كأس ليلى ،

---

(١) الخمير رمز للوجد ، وكانت ليلى سبباً لهذا الوجد الصوفي الذي يسكر فيه  
المحب بظفره بلذة الحقيقة ، والسكر لا يكون سببه إلا المكاشفة بنعت الجمال ، لأنه  
طرب الروح وهيام القلب : ( المرجع السابق ص ١٦٣ ) .

وكننت تناديننا باسم ليلي ؟ ! ولم يجر على سوى هذا العتاب ، عند ما فتح لي باب الخطاب .

أى جامى ! تأمل فى الخليفة ، فكل ذرة منها فى عيون أهل الحقيقة جامٌ مباركة مترعة من نبع الأزل (١) ، سطر عليها من كل جوانبها اسم . وذلك الجام ما هو ؟ هو جام الباقي . وذلك الاسم ما هو ؟ هو اسم الساقى . فمن الجام انشد الراحة بخمره ، ومن الاسم تطلع إلى صاحب الاسم ، منزهاً إياه عن السهوات ؛ وبالسكر غب بنفسك عن هذا العالم ، حتى تتحرر من وجودك الخالص ، ومن ظلمة الزهو بنفسك ، فتصل إلى مكانة لا سبيل إلى تجاوزها ، ولا خبر عنها إلا بانقطاع أخبارها - وقد حدثتك عن عالم لا معالم له ، وأخبرتكم بما يدل عليه ، وعليك أنت أن تترك .

---

(١) أى أن الجمال فى كل المخلوقات دليل على مصدره ، فهى مظاهر مقتضية لمراتب وصفات غير متناهية ، كما قال أحد شعراء الصوفية :  
لا تقل دارها بشرق تجد كل أرض العامرية دار  
ولها منزل على كل ماء وعلى كل دمنة آثار  
(أحد الكشغانونى : جامع الأصول ص ٥٨) .

(٤٩)

## نعمى المجنون إلى ليلي

مسطر عنوانات هذه الجريدة هكذا خط في خاتمها قائلاً :  
حين فرغ ذلك الأعرابي الرزين من دفن صديقه المجنون ،  
امتطى ناقة نجيبة كالغزال عدواً ، وتوجه برحله نحو ديار حبيبته ،  
فوصل إليها وقلبه وروحه نهب الأسى ، وأخذ يسأل منزلاً منزلاً ،  
ويدور في الحى منقباً عن ليلي فريدة دهرها ، حتى وجد طريقه  
لحيمتها ، فرآها دون الخيمة كالبدر ؛ وليست بدرأ ، بل هى  
شمس تضىء العالم . وليست بشمس ، بل هى نار تحرق هياماً بها قلوب  
العالم ؛ ولكنها مع ذلك كالبدر جمالا ، والمشتري زينة ، والخور  
شبهاً ، والملائكة شمائل . وعرفها الأعرابي من بعيد ، ولكنه تظاهر  
بأنه لم يعرفها . وسأها قائلاً : أيتها الغانية الكريمة ، ومن أنت هنا  
مقيمة ؛ ليلي ذات الطلعة كبدر التمام ، أين مأواها والمقام ؟

فأجابته : « أنا هى » . وما كادت تم إجابتها حتى أشاحت  
بوجهها وعيناها تهيمان بالدموع . ثم قالت : إن قلبي — وهو مأوى  
حبه — لم ينبئن قط بسوى الحق ، وهو يحدثني في كل لحظة قائلاً :  
إن ذلك القعيد بالعراء الممزق الأردن ، الهائم من أجلك في  
السهول ، والجواب في سديك للجبال والوديان ، قد قضى من محنة



فرقتك ، وأسلم الروح وحيداً غريباً . فوا أسفا لما قاسى من حرمان وعزلة وغربة !

فصاح الأعرابي باكياً : « يا من تراب أقدامها للسماء قمر ، والله لقد حدثك قلبك حقاً ، وأصاب فيما ثقب به لك جوهر هذا السر . قد قضى المجنون مسكيناً مما حملته من شجن ، ولم يقو على الحياة في هجرك . واحتسى شربة الأجل على ذكراك محتضناً غزالا . ولم يقف على رأسه سوى قطعان الحيوان ، وليس من أسي أشد من تلك الوحدة . وقد وصلت أنا إليه ، ووقفت على رأسه ميتاً ، ورأيت وحيداً غريباً . فذهبت في نفس اليوم محترق الفؤاد إلى قبيلته . وسلكتنا خاشعين في طريق وفائه ، وأنزلناه مكانه في القبر . وتوجهت إليك من تلك الأرض وعلى جبينى من غبار اللحد .

وعلى سماع هذا الخبر وضعت ليلي رأسها في موطئ القدم وسقطت صريعة في هائل من الدموع ، فكأنها هوت برأسها في عين ماء ، قد ملت الحياة وسئمت البقاء . ثم فقدت الوعي طويلا ، وحين عادت إلى نفسها أخذت تردد طرفة هذا اللحن : واسفاه أن ولى أمل الروح ، وذهبت السكينة عن قلبي المهيبض ! ! وقد كنت جسداً روحه قيس ، فكيف لى بالعيش بلا روح ؟ ! وها قد دق لروحي طبل الرحيل ، وهأنذى مقفية على أثر روحي ! . وحين

أقضى نحبي غارقة في البكاء بعيدة عنه ، وأتأى بجانبى عن شئون  
 هذا العالم ، ليكن مرقدى قريباً منه حتى أضع رأسى على كف  
 قدميه ، مطلقة من قلبي الحسرات على فوت حظه ، وسأطبع مئاة  
 القبلات على تراب هذه القدم . وحين يبلى جسمى المهيبض جلده  
 ومخ عظامه ، ويصبح جسدى كاليراعة في ذلك المسكن ، به من  
 سهام البلاء آلاف الثقوب ، حينذاك سيكون كل ثقب منها فماً  
 يصبح أسى وشجناً ، محدثاً قيساً عن عميق الأسرار ، شارحاً له  
 ماضى الكروب . وكلما ارتفع من عظامى صوت أجاب هو عليه  
 بنفس اللحن . ونبى معاً نتناجى في غير مغرم حتى القيامة . ويوم  
 يصب ماء الحياة على أجسام الموتى ، فينهضون من قبورهم ،  
 سيفتقد كل منا الآخر ، وسأقوم من القبر يدي في يده ، وسنكون  
 معاً في المواقف حيث يقف كل امرئ على ما كتب له . وسنقسم  
 معاً المصير ، أيما في جنة وأيما في نار ، وننعم معاً فارغى البال .

هكذا قالت ، وانصرفت إلى خيمتها جاعلة منها مأوى الحزن ،  
 وظلت حزينه ما بقيت في هذا العالم ، فكانت رفيق المحنة  
 والأشجان .

وأى امرئ لم يعرفه مثل ما عراها من الأسى بفقد الأحباب ؟  
 فيارب لا كان في مصائب الدهر ما له من سنة في فجيعتنا بفراق  
 الأبد !

(٥٠)

### ليلى تضى وتستمى على نصح صديقاتها

أضحت ليلى كشقائق النعمان ، غريقة فى دم الحرقه  
والأشجان ، قد ضاقت على قلبها الأرض بما رحبت ، ورمت  
بكأس عيشها على حجر الأسى . وفقدت فى صراعها مع الآلام ،  
لذة المطعم وراحة المنام . وذهب عن بدرها المشرق الضوء ،  
وانفض عن وردتها الغضة ماء الروثق ؛ وصار قلبها كبرعمة ،  
مضرجة بدم الأحزان ، وكانت دموعها فى لون شقائق النعمان .  
ثم غزت جسمها أخيراً الحمى ، فنهبت وردها وياسمينها . واتخذت  
الحمى روحها هدفاً ، فلم تترك فى خلودها لون عافية ؛ بل رمتها  
بسهم من قوسها ، فأحالت حمرة وجنتها اصفراراً ، فغدا دينار  
جمالها درهما نقشه آهات الألم ، وصنعت بثور الحمى على شفيتها  
خالا ، واتسع عن ساقها الخلخال . وعلى وسادتها بلغت بها الأنات  
المدى ، وغدا سريرها كمبضع جراح ، وهى فوقه نحيلة الجسم  
واهنة كالشجرة لحمه وسدى . ونمت فى حديقة جسمها زهرة الأسى  
الزرقاء . وذهب عن قدها روثق السَّرو ، وعن صبتها بهاء  
الأرجوان ، وآد قلبها عبء الأسى ، فقوس صنوبر قدّها . وعلمت  
صديقاتها - وهن موضع سرها ونجواها - بأنها وقعت مريضة على  
سرير الأشجان ، عقب موت ذلك الغريب الشريد ، فحاولن ما

فى وسعهن أن يجدن لها دواء فى نصائهن ، فقلن لها جميعاً فى حذب :  
ياشجرة الورد فى حديقة الأمانى ، وياسروة روض الحياة ،  
وياديباجة سجل الجمال ، وعنوان صحيفة الحسن ، ومن سلكت فى  
أمرك طريق الوفاء ، وكنت راسخة القدم فى خلق الحب والولاء !!  
فى ذلك العهد الذى كان يعيش فيه المجنون ، كان مقامك فى بيت  
الهموم لا تبرحينه ، وكان هو سالكا بروحه لك طريق الوفاء ؛  
لم يرض بك بديلا . وما أطيب ما كان منه لك من وفاء ، ومن  
ثبوت قدمه على حبك . ولهذا يلد الحبُّ الحب ، ومن ديدان الوفاء  
أن يزيد جزاؤه وفاء ؛ ولكن اليوم - وقد شد رحله من هذه الدار  
وولى وجهه شطر العالم الآخر - أى جدوى من هذا الحب والوفاء؟  
وماذا ترد عليك هذه الماحنة التى تعانين ؟ فلا تعيشى بالحداد مع  
الميت ، فليس المرء يحى على الحداد والنحيب . وأخلى بالك من  
الوسواس ، وأفرغى قلبك من هذا الشجن . ولا تُذرى على الريح  
شبابك ، ولا تزهدى فى صفاء العيش .

فلما سمعت حديثهن نظرت إلهن ، وقالت : أيتها الغافلات  
عمابى من نار ، وعن حرقه قلبي ومأتى بلائى ، لا تحرقن على  
الدوام قلبي بهذا الشمع المشثوم الذى تُشعلنه ، وأنا المتقدمة الجوانح  
من فراق الحبيب ، فإذا انتفاعى بحرقه أخرى ؟ فقد كنت أحياء  
على ريح قيس حتى سمعت قصة موته ، فضقت بالحياة ذرعاً  
وصرت غريبة عن سعادة الشباب . وكان بستان عمرى به مورقاً ،

— ٢٣٥ —

واليوم يطالغنى بريحه الموت . فلا خلاص لى من الكرب الذى  
أشعل الجوانح بسوى الموت ! فعسى الوصال الذى قبض يده عنا  
فى مضيق هذا العالم يبسط يده لنا فى العالم الآخر ، وما أطيّب النجاة  
من الهموم لأحظى بالحبيب خالصة له ، وأنعم وإياه بالسعادة فى  
عيش السرور الخالد ! !

## (٥١)

### وفاة ليلي

أقبل الخريف بريجه ، فخلعت الأشجار على مهب ريجه ثيابها ،  
وتعرت من خلعتها الخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه .  
وصارت الورد زهرها وعشبتها في لون العنب حين يخرج من  
المعصرة ، وتجلت آلاف الألوان عرضها صباغ الفلك من مصدر  
واحد . ورمى طاووس الشجر بثماره ، وطرح سلطان المروج درع  
أوراقه . وأصبحت الأشجار مما نالها من القبة الزرقاء قليلة الحوة (١)  
كثيرة الاصفرار . وذوى البستان على برد الريح ، وذهبت رعشة  
الحمى التي انتابته بماله من رونق . ودليل ما يعانيه من سقم دوامة  
أوراقه على عصف الريح . وكأن كل غصن ، من الأغصان  
العارية من الورق والثمار ، ثعبان الضحاك (٢) فوق كتف الأشجار ؛  
وبدا الرمان ضاحكا على ما تجرع من دم الأسى ، تراءى أسنانه

---

(١) الحوة : بالضم سواد إلى الخضرة ، والأحوى : الأسود ، والنبات الضارب  
إلى السواد لشدة خضرته . وهذا هو المراد من كلمة سيهي أو سياهي في النص الفارسي  
(٢) الضحاك من ملوك الدولة البيشداية في تاريخ إيران الأسطوري . زقد حكم  
إيران ألف سنة ، وبصورة مؤرخو العرب وكذلك الفردوس في شكل إنسان قد  
بيت على كل كتف من كتفه ثعبان ، وهذان الثعبانان لا يتغذيان إلا بأخاخ الناس .  
انظر مثلا : تاريخ الطبری الجزء الأول ص ٢٢٦ من طبعة de Goje ، وانظر :

مضرجة بما يشبه الدم ، وظهر كالعاشقين ذا حدود صفر عليها  
الغبار من الألم ، وتبدى النارنج أمام الرائي كأنه كرات ذهب  
صولجانها من البلور الأخضر . والعناب مطل من بين الأوراق  
الصفر كالدموع على وجه العاشقين .

وصارت غصون الكرم ذهبية اللون تبدو حيناً منها العناقيد درأ  
خالصاً على سواعد حور ، وأحياناً تتدلى تلك العناقيد من عرائش  
الكرم زنجية نقية اللون . وقد تدنو قطافها للتقبيل كأنها أصابع  
العروس أول عهدا بالعرس . وجلست الكمثرى على غصنها ،  
منتحية جانباً بين الأعواد . والفسق مستو على سوقه ينظر في كل  
صوب نظرة الغيران . وخلت الحديقة من الورد والزهرة ، وتبدلت  
بغدادها إلى كوفة (١) ، فاتسمت بسمى الكوفة من رضاها بالنور  
واليوم . فهي في زاوية الزوال الغانية التي يغار منها ورديات الحدود

---

(١) يتلاعب الشاعر هنا بالألفاظ على حسب اشتقاق معانيها ، فيغداد في الأصل  
مكونة من كلمتين باغ=حديقة ، داد=العدل ويلازمه السلام ، ولذا تسمى بالعربية :  
مدينة السلام ؛ في حين أن الكوفة كلمة عربية مرادفة لكوفان ، وكلاهما اسم  
للمدينة المعروفة . ومن معانيهما : الرملة الحمراء المستديرة ، أو كل رملة تحاطها  
حصباء ، أو الدغل من القصب والعشب ، أو سميت المدينة كذلك باسم جبل لأنهم  
سهلوه وبنو عليه ، فهي في أصل اشتقاقها تدل على أرض تصلح لسكنى البوم ، هذا  
والكوف بالفارسية : البوم ( راجع القاموس المحيط مادة الكوفة ، والقاموس  
الفارسي تأليف Desmaison ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ثم معجم البلدان  
لياقوت ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ) .

من غايات بغداد ، كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان .  
وكانت ليلى - تلك الوردة ربّية المروج - طريحة على الأشواك ،  
أشواك الموت ؛ متهيئة لتسلم الروح . وأخذت تبكى وتقول لأُمها :  
أيتها الأم الحميدة ، الطاهرة الفراش العفة النقاب ! يامرهم المهد ،  
وصافية الحب ، وشبهة بلقيس في صباحة الوجه ! اعطني على  
لحظة بحبك ، وطوق جيدى بفضلك ، وضعى على وجهى وجهك  
الشفوق ، وانظرى إلىّ بعين كرمك . فقد كنت من قبل - لقليل  
الناس وقاهم - غير عطوف علىّ . ولم تسعى في عقد آصرتى  
بالحبيب حتى رمتنى فرقتة بالموت . لقد قضى هو من غم العراق .  
وهأنذى على الأثر أسلم الروح والبدن لداعى الأجل . فيومى بدونه  
مشرف على ليل العدم ، والروح متهيئة للخروج من الشفاه . وحين  
تشد الروح رحلها ستمدين من أجلى بساط المآتم . فانظرى مقامى  
غريقة في دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ،  
واجعلنى كفى من خلعة طهرى وعفتى ، ولايكن في لون ياقوت  
دهوى . ولنى به وجهى الأبيض ، ففى ذلك دليل أنى شهيدة الحب .  
واتخذنى من نار صدرى مجمرأ ، وخذى عطر طبيى من دخان  
كبدى المحترقة . ولست بحاجة إلى عصاة على الرأس ، فاتركينى  
مرفوعة الرأس بالعشق ؛ واحمى عن وجهى كل أمانة لحرقة  
الفراق ، لتسبرى لى بذلك منال السعادة ، وتذكرى ما أستقبل  
من حبيب ، فيجملنى موكبى ، وتوجهى بى في سفرى شطر قبره ،



— ٢٣٩ —

وأنزلى جنباً من ضريحه الطاهر . وليكن مكانى فى حفرة دونه  
قدميه فى ثرى لحدّه البهيج . واجعلى رأسى تحت كف قدمه لتكون  
لرأسى تاجاً ، وسأقيم على الوفاء له حتى الحشر . وبومذاك أنهض  
طيبة الخاطر من تراب قدميه .

وحين سمعت الأم رغبتها ، وضعت من الأسى وجهها على  
وجه ابنتها ، وبكت قائلة : أى بنيتى المباركة الشماثل ، القاطعة  
عنى جبل ودادها . إذا كنت لم أنزل على وفق مرادك فيما مضى ،  
فلا يكن فى قلبك موجدة على ، فى ذلك العهد لم يكن لى فى أمرك  
اختيار ، أما اليوم — ولى الخيار — فسأقوم بما فيه ترغيب .

ورأت ليلى أنها أجيبت إلى طلبها ، فطابت بذلك نفساً ،  
وضحكت كالوردة الغضة ، وتوجهت بوجهها إلى ديار حبيبها  
القديم ، وأسلمت فى بسمتها روحها الغالية . ورأت أمها تفيض ،  
فاحترقت حسرة على شبابها . وأخذت تقتلع يديها من رأسها  
شعورها ، وتلطم بكفها على خدها ، وكانت تخذش وجهها  
بأظافرها ، وتعلم أظفارها واحداً بعد الآخر ، وتمزق بآهاتها  
صدرها ، وتقرع باب الهلاك لنفسها ، وكانت تضع يدها على  
قلبها ، ثم تضرب بقبضتها على فؤادها الكليم . وإنما كانت تضع  
راحتها على قلبها بغية تسكين جراحه ؛ وحين كان يضيق قلبه  
بضربها عليه ، كانت تدق بالحجر على صدرها ، وتعلوها حتى  
الجهد من الضرب بالحجر ، فيذوب الحجر ليناً فى يديها . وفرغت

مظاهر حرقها وبكائها فى يوم لا رأى إنسان مثله ! ، فاشتغلت بتشجيع ابنتها ، وشرعت فى الاستعداد لتجهيزها ، وزينت نعشها على وفق ما أبدت من رغبة . وربطوا على النعش من سعف النخيل ، بعد أن نزعوا عنه أوراق الخريف ، يرمزون بذلك إلى أن تلك الوردة اللطيفة أصيبت بآفة الخريف . فلم تتجاوز — بعد — ربيع حياتها ، حتى نفدت إلى روحها سهام الخريف . وكانت فى نعشها كالعروس فى هودجها ، وعلى أثرها أمها تقبل الثرى . وهى سائرة على أكتاف المحبين ، والأم تتبعهم تنثر الدمع ، وركبها فى طريقه لوصول الحبيب ، فى حين أمها مثقلة القلب بحجر الفراق . وخرجوا بها من قبيلتها ، غير معرجين ، حتى أنهوا إلى حظيرة المجنون ، وفحروا لقبرها بجوار الحبيب ، وغيبوها فى الثرى جوهرة . ونامت هاتان الجوهرتان النقيتان جنباً لجنب فوق سرير الثرى . وصارت روضة هذين القتيلين من الأشجان مزاراً للعاشقين من كل أنحاء العالم ، ألا فلتغدق عليهما الرحمة ! وليكن مزارهما موئل السعادة ! فقد شداً الرجال من عالم الأحياء ، ونحن كذلك على الأثر . فلا يليق بامرئ فى هذه الدنيا حرص الطمع ، ولن يخلد فى هذه الدار إنسان . والدهر مسدد قوسه ، مصوبٌ نحونا سهامه ، يقبض الأرواح خبط عشواء . فخير لنا — قبل أن نعانى سهم هذا القوس النافذ إلى القلب — أن نعتزل جانباً ، لنجنى السنابل من مزرعة هذه الحياة ، ونصنع منها

زاداً لنا فيما سنسلك من طريق النجاة ، لنظفر بحياة الأبد بعد أن نفقد هذا الوجود . والعمر - في هذا العيش الفاني - برق في سحاب الحياة . ولا يستطيع نشر الصحف على لمح البرق ، ولا يمكن الاعتماد على ضوءه . فانشد نور الأزل والأبد ، وقرّ عيناً إذا ظفرت به . وهذا النور نجىء في طينتك ، متألق في مشرق قلبك . فلا ترنق صفو القلب بخيال المادة ، ولا تسدّ ذلك المنفذ بأدران طينتك . فإنك إن سدّدته ظللت في ظلمة مادة جسمك من ماء وطين ، فيحال بينك وبين نورك بهذا الحجاب ؛ فخرني أنت عما تفيد من النور ؟ يامن تتطلع إلى النور الأزل ! أشح بوجهك عن الظلمات ؛ وخير لك أن تبقى الظلمة بعيدة عن ناظريك ، لأنها حجاب دون النور . وما أطيب أن تكون من رأسك حتى القدم كالذرة غارقاً في الأضواء من شمس نفسك ، ومهما بحثت عن علامة على ذاتك ، فقلما تعثر على تلك العلامة ولو بالغت في البحث . فإن غسلت قلبك أيقظ بضوء الشمس ، وجدت نفسك كلها شمساً ، وصار عودك مورقاً كل الإبراق بعد أن كان عارياً من الورق . وأصبحت في مأمن من آفة الموت . وسيلغ قلبك مقاماً لا يموت فيه أحد سوى الموت . وتلك حياة الخلود ؛ وقد دللتك على رمز لها ، لو تعلم .

(٥٢)

## هوان شأن هذا العالم

راحة القلب من المحال ، في عالم هو مقام الزوال "وموطن  
الحداد ، مظلم ضيق الجوانب ، وزهرة زوفاه (١) لا لون لها ولا  
رائحة . ويتمزق قلب كل وردة نمت في طينته من أشواك الأسى .  
وكل شقيقة من شقائق النعمان في بستانه تحمل في صدرها منه حرقه  
الفناء . وشجر سروره الذى ينطح برأسه قبة الفلك يهوى صريعاً من  
قدميه على ريح الأجل .

والفلك مدار السنين مرتد حداداً على نفسه ثوبه الأزرق .  
وبالشمس المعتصمة بحصن الفلك رعدة الخوف من الزوال .  
والنجوم في تلك القبة العالية في يأس وحيرة بحرقه الاحتراق .  
وقد صدّع الأركان المعقودة البناء في هذا العالم كره الليل  
والنهار . وحيناً يخمد الريح نار المصباح ، وحيناً يهب بسموم لا  
تطيب . وآناً ينتصر التراب على الماء فيرد جوهره مظلماً مثله .  
وآناً يصير الماء سيولاً عاتيه فيمزق صدر الأرض مزقاً كثيرة .  
فإذا سالمك الأيام برهة — دون أن تنال منك غرضاً — فسامتها  
تلك غير خالدة ، فهي شبكة تتعقب طائر الحياة ، ثم تمزق في

---

١ (١) الزوفى . زهرة زرقاء ذات رائحة .

لحظة الشبكة ، فينفصل عنها الطائر ويهرب من محبسه . فالطائر الحكيم لا يستسلم بجناحيه للشبكة ، بل يظل مشتغلاً في حلقاتها بأمر نفسه . فيفتح لنفسه طريقاً مستسراً يصل به إلى متنزه الخلود . فإذا انتزعت عليه الشبكة من مدخلها ، وأخذت عليه أركان طرقها ، ذهب هو كذلك من مكانه الخاص به ، وخلص من ضيق القفص إلى المروج ، وغرد بألحان العيش الخالد في منأى من مضيق الأمل والخوف (١) . أما الطائر الأحمق الذى لم يدر ما الشبكة ، فإنه لا يلقى بنظره إلى رياض الروح ، فيسد الطريق دون ما له من خلاق ، ويعشق محبسه من الشراك ، ويجعل من حبة خال الحبيبة وشراك ذوائبها قيداً يرتبط منه برباط عشق خالد ، فإذا حجبته المعشوقة وجهها عنه ، جهد في قطع طريق الفراق وحرم وصالها ، فتجاوزت صبيحات آلامه العيوق (٢) . ولكن ما جلوى الصبيحات والأنات حين يحم الفراق ؟ فلا هو ظفر بالعشيقة في أحضانها ، ولا كان له منها غير الحسرات والآلام . وحين يصل من حظه إلى ذلك الوبال ، فالطمأنينة عليه محال .

أى جامى ! لا تعقد صلة بإنسان ، إذ في عاقبة الأمر لا محيد من أن تنتزع منه قلبك . وكن جليس نفسك دون الخلق ، وأنيس

---

(١) كناية عن هذا العالم .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضى في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها

( القاموس المحيط ) ، وهى نفس الكلمة في الأصل الفارسي ،

نفسك في حالات الوحدة ، وعش غريباً عن هذا العالم ، وتعرف فيه جوهر نفسك . ضارباً صفحاً عن الأغيار ، معانقاً لجوهر نفسك . ومن جوهر ذاتك انشد امرأة معشوق الأزل في قلبك . وكل ما تشن من حرب على غير نفسك يتحول على مرآتك صدى . وكلما ران الصدى على مرآتك ضاق بك الطريق لمتعة الوصال . فاجلُ الصدى عن امرأة نفسك يتفتح لك الطريق لحرم الوصال ؛ ولا ينفس لك ذلك الطريق إلا حين تصير مرآتك مجلوة . وكلما نأيت بمرآتك عن الأغيار أشرقت في قلبك لوامع النور ، فيتحرر بذلك لمبابك من غلاف الجسد ، وتتجرد من غشاء مادتك لتبقى والحبيب . كلا ؛ بل لن تظل أنت كذلك على حالة البقاء ، لأنك ستكون مع الحبيب محجوباً عن نفسك .

(٥٣)

### نصيحة إلى الابن العزيز (١)

أى حديث العهد بالنظر فى لوح الكونين ، ومن أنت قررة العين وإنسانهما ؛ على الرغم من أن عمرك سبعة أعوام أو ثمانية ، فقلبك عزوف عن الهوى . وهذا اللطف الذى جبلت عليه يجعلنى أرجو من الله أن يتيح لك عهداً تصير فيه مرفوع الرأس بحكمتك وذكاء فؤادك ، وأن يهيك من الفضل والأدب القبول ، ويجنبك طريق الفضول ، فأنا ببجوهرك الطاهر عن كل ما لا يحمد وما يليق . وابذل فى كسب الكمال الجهد ، واقض عمرك فى طلب الأفضل ، ودائرة دوامة الطلب وسبعة ، وبحر العلوم بعيد الأغوار ؛ فلا تقنع بكل ما تجد ، وأسرع من الحسن إلى الأحسن . ولا تمنح بتبحرك فى الدرس صفحات التقوى من الله ، ولا تدخل الفلاسفة فى أمر الدين ، فتكون مثل الفلاسفة نابذى الدين . أما ملك الرموز السبائية (٢) ، فلماذا تقرأ أكاذيب أهل الأرض ؟ ودونك يثرب فلا تكن مثل السفلة تطلب الإكسير من قبور اليونان .

---

(١) فى هذا الفصل ينصح الشاعر ابناً له ، ومن الطريف أن يكون من بين نصائح الجاهل لابنه ألا يقرأ الفلسفة ، وأن يكتفى بالدين وكتبه ، والجاهل نفسه خبر مثل لمن قرأ الفلسفة ومرجها بالدين فى كثير من آرائه ، كما أتيج لنا أن نشير إلى ذلك فى تعليقاتنا على هذا الكتاب ، وقد شرحنا ذلك فى الباب الثانى من كتاب : الحياة العاطفة .

(٢) لعله يقصد القرآن .

وإذا كان العالم بالدين غير أحمق فلن يتجاوز سور مدينة الدين ، فكما أن نافجة المسلك في سرّة الظبية ، فكذلك في قلب المدينة مسكُ الدين ، حيث شجّت تلك النافجة ، فتضوع أريجها وزعم الشرق والغرب ؛ ولكن أرياب الهوى منه في زكام مستحکم ، فشامهم من نكتة خالية . فاتخذ لك من ساكن هذا الحرم قدوة ، واجعل رأسك في طريق الاقتداء به قدماً . واتجه بأنظارك إلى راحلة الشرع ، فأينما تضع هي القدم فضع أنت الرأس . وإذا سلكت هذا المنحى في الاقتداء ، فستصل بك تلك الراحلة في النهاية إلى الغاية .

وكن يقظاً ! إذ سيصادفك في الطريق آلاف الحفر من الحشمة والجاه ؛ فلا تضل الطريق عن عمى قلب ، فتقع في بئر من تلك الآبار كعمى القلب . وكن يقظاً ! إذ سيعرض لك قطاع طريق الحير ليجعلوا من الذهب والفضة لك قيوداً ؛ فلا تتقيد بقيود الذهب والفضة ، ولا تفتر عن السير في الطريق . وكن يقظاً ! فكل من وقف عن السير اعترضه غول وسط الطريق . ولا تستسلم بفكرك إلى خيال الباطل ، فتقصي عن الطريق . ولا طريق سوى ما سلكه الرسول بقدّم الحق حتى مقعد الصدق ؛ فتفقد طريقه



واسلكه ، وانظر إلى آثار أقدامه في الطريق وسر على أثره . ومل  
بنفسك عن كل طريق ليست به آثاره ، إذ ليس بها غير هلاك  
النفوس . وإذا كان من طبعك قبول النصح ، وقع ما سقته لك من  
نصح موقع القبول . وقد قلتُ ما كان ينبغي أن يقال ، ونظمتُ  
في سلك الشعر ما كان على أن أنظمه من جوهر القول . وقد فرغ  
من الأمر لساني ويدي ، فصمتٌ وحطمتُ القلم .

(٥٤)

## ختم الكتاب وخاتمة الخطاب

أى جامى ! مهما عانيت من مرارة الجهد فى اجتياز محيط  
الأماني ، فحسبك هذا منالا ، إذ وصلتُ إلى الساحل السفينة ،  
بعد أن اجتازت أمواج المعاني التى جاش بها صدرك . وهذه  
السفينة أكثر يمناً من سفينة نوح ، راحة للقلب وسكينة للروح .  
من كرم طبع كل جواد أن يقف على جودى جودها . كلا ،  
فن وقف دون بحر الجود فهو كمن قاد سفينته على اليابسة ، تظل  
شفاهاه جَدْبَة لا تروى ، ولو جاب — كالفلك — البحار السبعة .

وهذه القصة شمس مشرقة من مطلع الهمة ، ومتقاة من كتاب  
الدهر ، باكورة الثمار من حديقة الأماني ، ورأس مال العيش  
الخالد ؛ وهى السحر لسحرة الكون بياناً . وهى قصة العاشقين  
الوالهين ، وحكاية عذبة عن حال البائسين ، وحديث طريف لمن  
عى لسانهم عن البيان ، وهرهم شاف لخرقة مفطورى القلوب ،  
وتسكين لآلام من حرموا القرار . وهى ماشطة الجمال للغيد  
الحسان ، ودالة طبائع المحبين . وهى طائر فضاء حديقة الأسرار ،  
يترنم بلحن حديقة الشوق ، والنفوس مصغية إلى ألعانه ، والأرواح  
منها فى أريجية ونشوة . وسوق الغيد الملائكية للخلود بها رائجة ؛  
وهى مثار آهات القلوب من العاشقين القائمين بالأسحار . فأنت

تشتم من لطائف أمرها خاصة الربيع ، إذ تُصير الورد ضاحكا طرباً ، وتستمطر الدموع من عيون السحاب ، وهى السحر وليد القيام بالأسحار ، وهى البحر مستودع الدرر ؛ وهى سكر عذب المذاق طازج من عصير قصبة القلم ؛ ونصف قطرة من هذا العصير المقطر من القلم بمائة قطرة من السكر الخالص .

فأين من نظامى (١) طائر فصاحته حلو الحديث ، الذى آخذ عنه عذب القول وثمينه ، ليشرّب من رشح هذه الكأس ماء الورد ، وليصير ريقه حلواً على مذاق هذا الشهد ؟ ! فعلى ماله من مئآت البحار ذخيرة ، فالماء يعاف متى كان فى حوزة صاحبه . وقد يعاف الظام الكوز القديم ولو كان من ذهب خالص ، ويشرب من الجرة لأنها جديدة .

وأين خسرو (١) فى دار الملك الدهلوى ، وفى لطف خلقه الجبلى ، ليحمل إلى تحفة تاجه وعرشه ، ويأتى بالخراج من إقليمه ، وينثر على مقالى جواهر من كنز خاطره الفياض بالطرف ؟

سبحان الله ! وما جدوى هذا القول ؟ ومن ذا يتكلم بمثل هذا الكلام ؟ وعادة الخلق أن يرتفعوا بمناعمهم إلى أعلى من درجته ، فيصبح بائع الخرز منادياً : مائتا فيروز (٢) بدانق ! فيسمى الخرز

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب .

(٢) الفيروز حجر ثمين أزرق .

غير وزاً ليستميل إليه طبع العوام . وهكذا جمعت عدداً من صغار  
الحرز ، وافتننت في نظمها بعضها ببعض ، ثم صرت بائعاً للحرزى ،  
مسالكاً مسلك باعة الجواهر . وكل من يشتريها بكلمة استحسان فله  
جزاء الخير . ومهما يكن كلامى غير سامى القدر ، فإن اختيارى  
يتجه إليه دون كل كلام . وميل الغربان إلى صغارها أكثر من  
ميلها إلى صغار البيغاوات . والشعر الذى يتولد من خاطر العاقل  
مثل الإبن . ومهما يكن الإبن قبيح الصورة فهو فى عين والده  
جميل الحلقة !

وهذه القصة صنع شبابة القلم الماضية ، وقد قامت بما يقوم  
به المغزل لعروس الطبع . فاكتب بالشبابة خطأ جميلاً ، وانسج  
بذلك المغزل خطوط المسك ، وسطر الحروف على لوح من  
الانصاف ، وانسج دراعة المتستر على العيب . وإذا كان الشعر  
جميلاً وكتب بخط حسن فإنه يكتسب جمالاً على جمال ، ولكنه إن  
اكتسب من الخط لباس غير جميل ، صار معيباً فى نظر متتبع  
العيوب . فإذا لم تكن بحيث تزيد فى جماله ، فاقصد فى جعله غرضاً  
لعيوب من ضل رأيهم ، فلا تفسد القلم الجميل عبثاً ، ولا تلطخ به  
الصحائف الجميلة . وما تخطه من حرف ردىء فإنما تدون به  
كل عيوبك . فإذا كنت تعد عيوبى فتستر على عيوب نفسك .  
وإذا لم تبذل الجهد فى جودة الخط ، فبالله إلا أعلمت حادّ ذكائك  
فى وضع ما تكتب من حرف فى مكانه الصواب ، فالصواب

خير الفضائل ، وحين تم الكتابة قابل ما كتبت على نسخة صحيحة ،  
 وإذا كنت قد فعلت في البدء خطأ فلا تكل أمر لإصلاحه إلى  
 الآخرين . وكانت نهاية هذا البناء الأشم عام تسع وثمانين  
 وثمانمائة . وإذا وفقت في عد هذه الآيات كانت ستين وثمانمائة  
 وثلاثة آلاف . وقد استغرق عرضها من طبع خصب بأفكاره  
 طوال أربعة أشهر تنقص قليلا أو تزيد ، وفي بضع ساعات في  
 كل يوم منها كان طبعي عظيم الجهد سعيد الطالع . فإذا جمعت هذه  
 الساعات لبعضها فلن تزيد عن أسبوعين أو ثلاثة . ومهما ضؤل  
 قدر هذا الضعيف ، فقد انتهى من هذا النظم بجيده ورديته . ألا  
 فلتكن علبة الفلك درجاً لجوهره ، وليبق صيته ملء الزمن ،  
 وليطلب الصالحون لى من الله العفو في صلاة الفجر .

## الفهرس

صفحة	الموضوع
١٠-٣	مقدمة الطبعة الثانية
١٩-١١	مقدمة الطبعة الأولى
٢٠	١ — فى معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين
٢٣	٢ — سبب نظم الكتاب وباعث ترتيب هذا الخطاب
	٣ — ذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان ، ودعاء
٢٥	بعض من حلوا فى مركز نقطة الحال
٣١	٤ — الحلقة الأولى فى قصة عشق ليلي والمجنون
٣٤	٥ — غرام قيس قبل تعرفه بليلى
٣٨	٦ — وقوع قيس عن اختيار فى حب ليلي
٤٢	٧ — ليلي الحب
٤٥	٨ — عقبة
٥٠	٩ — الناقة وفصيلها
٥٤	١٠ — برهان المحبة
٥٨	١١ — عهد الوفاء
٦١	١٢ — قبيلة قيس تكشف المكنون من حبه
٦٤	١٣ — نصيحة والد قيس له
٦٨	١٤ — نصيحة العامرين لوالد قيس بتزويجه بأخرى
٧٢	١٥ — الوشاية

— ٢٥٣ —

الموضوع	الصفحة
١٦ — نذر الحج	٧٦
١٧ — الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلي	٧٩
١٨ — منع ليلي من ملاقة المحنون	٨٣
١٩ — عقاب والد ليلي لها حين علم بقاءها المحنون	٨٨
٢٠ — الجارة الأرمل	٩١
٢١ — شكوى والد ليلي إلى الخليفة	٩٥
٢٢ — والد المحنون يخطب ليلي له	٩٩
٢٣ — رفض والد ليلي خطبة قيس	١٠٤
٢٤ — نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلي	١٠٥
٢٥ — إعصار في الصحراء	١١٩
٢٦ — الظبية	١٢٤
٢٧ — لقاء مع راعي ليلي	١٢٩
١٢٨ — المحنون وكثير أمام الخليفة	١٣٤
٢٩ — الروضة	١٣٩
٣٠ — دعوة الخليفة لقيس	١٤٢
٣١ — في قافلة ليلي	١٤٨
٣٢ — لقاء في مناسك الحج	١٥١
٣٣ — زفاف ليلي إلى شاب من بني ثقيف	١٥٤
٣٤ — المحنون يعلم بزواج ليلي	١٦١
١٣٥ — أسي المحنون بعد زواج ليلي	١٦٦

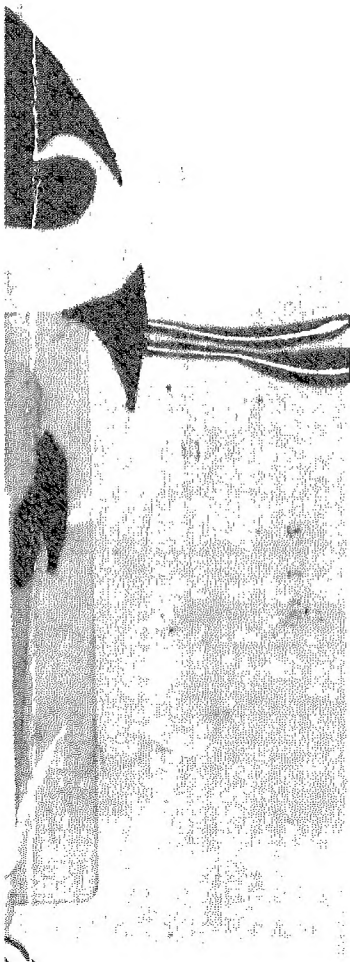
الصفحة	الموضوع
١٧٠	٣٦ — الحمامة المطوقة
١٧٦	٣٧ — رسالة ليلى إلى قيس تعتذر عن زواجها
١٨١	٣٨ — قيس يتسلم رسالة ليلى
١٨٧	٣٩ — رسالة المجنون إلى ليلى
١٩١	٤٠ — وفاة زوج ليلى
١٩٤	٤١ — بكاء المجنون على غريمه
١٩٧	٤٢ — في طريق المجنون إلى ديار ليلى « الكلب الطريد »
٢٠٣	٤٣ — المجنون يزور ليلى متخفياً بين القطعان
٢٠٩	٤٤ — المجنون مع السائلين في ضيافة ليلى
٢١٢	٤٥ — المجنون يفقد عقله كله
٢١٨	٤٦ — بدوى في زيارة المجنون
٢٢١	٤٧ — موت المجنون
٢٢٧	٤٨ — المجنون وجد طريق الحقيقة
٢٣٠	٤٩ — نعى المجنون إلى ليلى
٢٣٣	٥٠ — ليلى تضنى وتستعصى على نصيح صديقاتها
٢٣٦	٥١ — وفاة ليلى
٢٤٢	٥٢ — هوان شأن هذا العالم
٢٤٥	٥٣ — نصيحة إلى الابن العزيز
٢٤٨	٥٤ — ختم الكتاب وخاتمة الخطاب



رقم الإيداع ٥٢٤٧ - ٧٩  
الترقيم الدولي ٨ - ١٩٦ - ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN  
مطبعة نهضة مصر







مطبعة نهضة مصر

العدد ١٢٥